زكي نجيب محمود

ميلاد جديد

١

نريد للمواطن العربي أن يولد من جديد ، ولادة تتقاطع عندها خصائص الماضي وملامح الحاضر . والحق أن كل ولادة — لو استقام لها الطبع — هي حدث جديد ، يضمن البقاء للابوين ، ثم يضيف اليهما جديداً يتميز به فرداً بغير شبيه ؛ ولو جاء الوليد صورة لأبويه ، لكان الى نتاج المصانع والمطابع أقرب منه الى غرس الحياة ونبتها . فعجلات المطبعة قد تخرج لك من الأصل الواحد ألوف الصور ، كل نسخة منها ككل نسخة ، الخطأ هنا كالخطأ هناك ، والصواب هنا كالصواب هناك ، والصفحات تتماثل بداية ونهاية ، وتتشابه أسطراً وسياقاً ؛ انها كثرة عددية ، لكنها كثرة تحكي الحكاية عينها ، فالواحدة منها تغني عن سائرها . وما هكذا الحياة الخصبة الغنية الولود ، فشجيرات التفاح تنتمي الى اسرة واحدة ، لكن أبت لها الحياة الا أن تجيء كل شجيرة منها وقد تميزت من أخواتها في شيء — قل أو كثر .

هذا هو الشأن في كل ولادة جديدة — أقول : لو استقام لها الطبع ، طبع الحياة — لكن هذا الطبع قد لا يستقيم لها ، اذ تفعل العوامل الدخيلة فعلها ، فاذا أفراد البشر كأنهم التماثيل الصماء ، سويت — في قالب واحد — من صلصال ، قد يتوافر لها استواء البدن ، فالساقان والذراعان كل في موضعه ، والوجه تمت له قسماته وأجزاؤه : عينان وأذنان وأنف وفم ، لكنها لم تزل برغم ذلك هي تماثيل الصلصال ، جاءت كلها تكراراً مملاً لاصل واحد . فاذا كان

لصاحب الأصل ما للفنان الأصيل من فضل ومنزلة ، فليست النسخات التي سويت على غراره بذات شأن يذكر ، وانما هي قطع من التقليد الرخيص ، مكانها حوانيت العرض التي تبيع الواحدة بقرش أو قرشين .

ولكم شهد التاريخ فترات وفترات: فترات تمور بالحياة وتفور، وأخرى يصيبها من الجمود ما يشبه الموت ؛ ففي الحالة الأولى يكثر الخلق والابداع ، ويكثر الافراد الاعلام، الذين لا يغني منهم أحد عن أحد. وفي الحالة الثانية تتشابه الفلاة، فكلها من حبات الرمل أو حصباء المدر . وان شئت فانظر في التاريخ العربي القريب ، الى الثلاثة القرون التي امتدت به بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، والتي هي عصرنا المظلم ، الذي توسط بين قديم خصب ، وحاضر يحاول أن يكون خصباً ؛ انظر في التاريخ العربي القريب الى هذه الثلاثة القرون ، تجدها سحابة واحدة دكناء ، لفت في دخانها أفراد الناس فباتوا وكأنهم عجينة بشرية واحدة ، لا فرق فيها بين قطعة وقطعة ، كماء البحر تذوق طعمه كله اذا وضعت منه على لسانك قطرة ؛ فكأنما الاناسي خلال تلك الفترة قد تحولوا أشباحاً سوداً في غرفة مظلمة ، تدرك وجودها من همهمة تسمعها ، لكنك لا تميز منها حرفاً أو مقطعاً .

ومن هذه العجينة البشرية التي تجانست أجزاؤها جهلا وخرافة ، أردنا — ونريد — للمواطن العربي أن يولد من جديد ، ولادة يتخطى بها تلك الفترة المنكودة ، الى حيث أسلاف تركوا على درب الحضارة مواقع أقدام لن تمحوها رياح ، ثم يجاوز هؤلاء الاسلاف أنفسهم ، بجديد يساير به ركب العصر الذي يعيش فيه ... كلام هو أيسر اليسر حين يكتب أو يقال ، لكنه أعسر العسر حين يراد له أن ينتقل من مداد منثور على الورق ، ليصبح كائنات بشرية تنشط في فجاج الارض وتسعى .

٢

على أن عملية الولادة الجديدة هذه ، قد بدأت بالفعل منذ قرن ونصف قرن ، ومع ذلك فهي ما زالت بعيدة عن مرحلة اكتمالها ، اذ هي لم تزل — بعد قرن ونصف قرن — في حالة من العثار والفوضى ، تحجب عن الأعين الفاحصة وضوح الرؤية ، فلا تدري ماذا تكون بعد عشرة أعوام اخرى أو عشرين . ذلك أن نقطة البداية كانت هي الشرارة التي انقدحت عند التقاء الثقافة

العربية بعد بيات شتوي دام ثلاثمائة عام ، بالثقافة الأوربية الحديثة . فعندئـذ اضطربت صفوفنا ، وانقسمنا مجموعات أشتاتاً ، كل منها ترى الخطأ فيما تراه الأخرى صواباً ؛ وهي مجموعات ما تزال الى يومنا هذا — بعد قرن ونصف قرن — مشتتة الفكرة مفرقة الرأي ، تتبـاين — وهي متجاورة — تباين الألوان في الطـيف .

فهنالك طرفان متطرفان : طرف منهما يجزع من الثقافة الاوروبية الحديثة أشد الجزع ، ويعدها ثقافة دخيلة تستهدف التسلط والسيطرة ، ويلوذ منهـا بمكمن من التراث العربي الصرف ، حتى ليكتب الـكاتب من هذه الجماعة وكأن عشرة قرون او اثني عشر قرناً لم تذهب من عمر الزمان ، وكأنما الارض لم تزل هي الارض والسماء هي السماء . وأما الطرف المتطرف الآخر فيفرح بالثقافـة الاوروبية الجديدة فرحة الاطفال باللعب والهدايا ، يُقلّبونها ولا يحلّلونهـا ، ويلمسونها من السطح ولا يتعمقونها ، كما يفعل الذين لا يجيدون السباحة فيكتفون ببضعة أمتار يبعدون بها عن الشاطىء ، ثم يأخذون في الضرب على المـاء بالاذرعة والارجل . هؤلاء — في فرحتهم الغامرة باللعبة الجديـدة — يفزعهم أن تذكر لهم شيئاً عن تراث عربي ينبغي له أن يبعث ليحيا بنا ولنحيا به؛ وبين هذين الطرفين المتطرفين ، تجد صنوفاً شتى من الامزجة التي تأخذ بطرف من هنا وطرف من هناك ، بنسب متفاوتة .

فمنهم من يقبل الغرب كله والتراث كله ويحسب أن الجمع بينهما أمر ممكن ، كما صنع **العقاد** . ومنهم من يقبل الغرب كلـه وبعض التراث دون بعض ، كما صنع **طه حسين** . ومنهم من يقبل التراث كله وبعض الغرب دون بعض ، كمـا صنع **محمد عبده** . ومنهم من يجري تعديلاً في التراث وفي الغرب معاً ، كما صنع **أحمد أمين وتوفيق الحكيم** . ومنهم من يكاد يرفض الجانبين معاً ، فلا هو قد تعلم شيئاً من التراث العربي ليعرفه ، ولا هو يرضى بقبول الثقافة الغربية خشيـة أن يقال عنه إنه من توابـع المستعمرين . وأمثـال هؤلاء تراهم هـذه الايام بكثرة بين كتاب الشعر والقصة والمسرحية ، ومن هنا سرّ سطحيتهم ، ولكن من هنا أيضاً سرّ الابداع الذي يحاولونه ولو بدرجات يسيرة .

خليط عجيب ، وهو خليط يدل على أننا لم نُفق بعد من هول الصدمـة التي اصطدم بها الفكر العربي بالفكر الاوروبي الحديث ، كما يدل على أن فترة المخاض قد امتدت بنا هذا الزمن كله دون أن تلد المواطن العربي الجديـد

الذي لا ينكره أحد ولا يتنكر له أحد والذي نقدمه الى العالم المعاصر قائلين : ها نحن أولاء قد تمثلنا في هذه السحنة والملامح ... نعم هو خليط فكري عجيب ، هذا الذي يحيط بنا اليوم ، حتى لترى نفسك في غير حاجة الى « آلة الزمان » – التي تخيلها **ه. ج. ولز** – لتسير بك راجعة الى الوراء أو متقدمة الى امام ، فتنعم بالماضي اذا شئت ، وتطير الى المستقبل اذا شئت . أقول انك لن تجد نفسك في حاجة الى هذه الآلة التي تتنقل بك في تيار الزمن ، لانك واجد حولك من نماذج المفكرين من يمثلون لك أي عصر شئت . ولن يقتضيك الامر أكثر من حركة يسيرة تذهب بها من منزل الى منزل يجاوره ، أو من شارع الى شارع يحاذيه ، لتجد أنك قد انتقلت من العصر الجاهلي الى أواخر القرن العشرين ؛ فنحن نعيش العصور كلها في وقت راهن واحد ، ونحن نجسّد الحضارات كلها في مدينة واحدة ، فأين من هؤلاء جميعاً من يستحق أن يوصف بأنه المواطن العربي الجديد ؟

٣

لن يكمل للمواطن العربي الجديد كيانه ، الا اذا أضاف الى نفسه صفات ، وتخلّى عن صفات . وليس الجانب السلبي هنا بأقل قيمة من الجانب الايجابي ، بل قد يكون التخلّي عن الصفات المعوّقة أبلغ أثراً من اضافة الصفات المرغوب في اضافتها ، كالعليل الذي يهمه ان يطرد من بدنه جراثيم المرض ، قبل أن يهمه نوع الطعام الصحي الذي ينبغي أن يقتات به ليستردّ العافية . وعلى أي الحالين ، فكثيراً ما يتشابك الجانب السلبي مع الجانب الايجابي ، بحيث يقترن الطرد بالجذب ، والتخلي بالإضافة ، اقتراناً لا تدري معه أين انتهى الاول ليبدأ الثاني .

واني لانظر فأرى سلسلة الخصائص التي يراد لها أن تقتلع جذورها من تربتنا الثقافية ، قبل أن يتاح لنا استنبات زرع جديد ، انما تترابط حلقاتها ، فاذا سلّمت بالاولى ، كان لزاماً أن تسلم بالثانية فالثالثة فالرابعة ... واولى هذه الحلقات ، وأعمقها جذوراً ، وأكثرها فروعاً ، هي نظرة العربي الى العلاقة بين الارض والسماء ، بين المخلوق والخالق ، بين الواقع والمثال ، بين الدنيا والآخرة ،بين المعقول والمنقول ،– هذه كلها ظلال من موقف واحد وحقيقة واحدة . ونظرة العربي في صميمها هي أن السماء قد أمرت وعلى الارض أن

تطيع ، وأن الخالق قد خطّ وخطّط وعلى المخلوق أن يقنع بالقسمة والنصيب ، وأن المثال سرمديّ ثابت وعلى الواقع أن يقسر نفسه على بلوغه ، وانه اذا ما تعارضت الآخرة والدنيا ، كانت الآخرة أحقّ بالاختيار ، وان المنقول اذا ما تناقض مع المعقول ، ضحينا بالمعقول ليسلم المنقول .

تلك هي وقفة العربي في صميمها ؛ لك أن تقول انها وقفة أفلاطونية أكثر منها أرسطيّة ، اذ هي وقفة من يجعل الثبات للسماء والفناء للأرض . ففي السماء الأصول وعلى الأرض الأشباح والظلال . انها ثنائية حادة بين الغيب والشهادة ، بين الروح والجسد ، بين الانسان والله . العلاقة بين الطرفين ليست هي التبادل بالأخذ والعطاء ، بل هي علاقة الحاكم بالمحكوم ، والحاكم هنا مطلق السلطان ، والمحكوم معدوم الحول والحيلة . ولا يغير من الصورة أن يكون الحاكم المطلق عادلاً ، وأن يكون المحكوم ملاقياً جزاءه وفاقاً . اذ ما يزال طريق السير في اتجاه واحد : يهبط الأمر من أعلى ، فيصدع به الأسفل ، مهما تكن ظروف الواقع وتفصيلاته التي تحيط بهذا الأسفل اذ هو يؤدي الفعل على الأرض بكل خشونة سطحها وحزونته سهلاً ووعراً .

تلك هي الحلقة الأولى من السلسلة ، تلزم عنها حلقة ثانية ، وهي أن قوانين الأشياء والظواهر في الطبيعة ، قد تطرد أو لا تطرد ، بحسب ما يشاء لها الحكم السماوي المطلق . فليقل العلم ما اراد . ليقل ان قوانين المطر هي كذا وكذا ، وان قوانين هبوب الرياح هي كيت وكيت . ليقل ان الجرثومة الفلانية قاتلة ، وان العلة الفلانية تستلزم معلولها . نعم ، ليقل العلم ما أراد أن يقوله في أشياء الطبيعة وظواهرها — بما في ذلك الانسان — وسيظل الحكم الحاسم للمشيئة الإلهية آخر الأمر ، فتتوافر الظروف التي يقول العلم عنها انها تقتضي نزول المطر ، ومع ذلك لا ينزل ، أو لا تتوافر تلك الظروف الضرورية ولكن يشاء الله فتتفجر السماء بمدرار من الماء . انه — في ظل ثقافة كهذه — تبتر الروابط بين الأسباب ومسبباتها ، بين الوسائل وغاياتها . فقد تسلك الوسيلة المؤدية لكنها برغم ذلك لا تؤدي ، وقد توفر الأسباب المنتجة ، ثم تفاجأ بأنها عقيم لا تلد ؛ والعكس صحيح كذلك ، أي أن الغاية المنشودة قد تفجؤك وانت قابع في عقر دارك لم تتخذ لها وسيلتها ، وأن النتائج المرجوة قد تمثل بين يديك صاغرة برغم أنك لم تحرك من أجلها ساكناً ولم تسكّن متحركاً . العلاقة مبتورة بين الغرس والثمر .

واذا كانت هذه هي الصورة الكونية ، فلا بد أن تكون كذلك هي الصورة لحياة الانسان في مجتمعه . فلصاحب السلطان أن يريد ، وعلى الناس أن يطيعوا . الكلمة عندنا لصاحب القوة . القول النافذ لصاحب الجاه . الحق مع صاحب النفوذ . واننا لنخدع انفسنا عبثاً اذا ظننا ان النظم الديمقراطية التي قد نصطنعها جادين مخلصين ، تكفل لنا الديمقراطية محتوىً ومضموناً . فالوعاء وحده لا يكفل لك نوع الشراب ، وقد تكون صحافٌ ولا يكون ثريد . القانون عندنا يُسَنُّ لمن لا يستطيع عصيانه ، والنظام بيننا يقام لمن لا يقوى على هدمه . نعم ، ان المواطنين جميعاً سواء أمام القضاء ، لكنهم ليسوا متساوين في أن تصل أصواتهم الى مسامع القضاة ؛ انك صاحب رأي بيننا اذا كنت صاحب منصب ، فعندئذ يتكلم الكرسي الذي تتربع عليه قبل أن يجري لسانك في فمك . عندئذ توزن كلماتك بموازين الذهب والجوهر . عندئذ يهرول اليك الصحفيون والإذاعيون لتنطق لهم بالدرر : الصحفي الى جانبك والورقة والقلم في يده حتى لا تفلت منه درة ، والاذاعي يدنو الى شفتيك بسماعته حتى لا تتبدد في الفضاء حكمة . ويذهب عنك المنصب كما جاء ، فتذهب عنك رجاحة العقل واصابة الرأي وبلاغة الكلام .

ان الحدث في حياتنا يحدث ، فنسأل : **« من »** أحدثه ؟ قبل ان نسأل **« كيف »** حدث ؟ وذلك لأن الفعل مرتبط بالارادة — ارادة من بيده ارادة نافذة — وليس مرتبطاً بالتسلسل السببي الذي يربط حادثة بحادثة أخرى سببت وقوعها أو اشتبكت معها في مركّب واحد بوجه من الوجوه . فالمدار عند العربي هو للارادة لا للفكر ، فليس المهم أن **« تعقل »** ولكن المهم هو أن **« تريد »** شريطة أن تملك القوة التي تنفذ ارادتك . كان ينبغي أن يكون الترتيب الطبيعي هو أن يعقل العاقل فكرة صحيحة ، فيسلمها الى صاحب الارادة ليخرجها بالتنفيذ الى عمل . لكن هذا الترتيب الطبيعي للأمور قد انعكس على يدينا ، فأصبح البدء للمريد ، والبقية على العاقلين . ولما كانت الارادة هي — بحكم طبيعتها — رغبة وهوى ، كانت السيادة عندنا للرغبة والهوى .

قوام الاخلاق عندنا هو **« الواجب »** لا **« السعادة »** ، ولطالما اختلف فلاسفة الاخلاق في أيها أحق بأن يكون المدار : أنفعل الفعل لان سلطة

عليا قد « **اوجبته** » علينا ، فلم يعد لنا محيص عن فعله ، سواء أأسعدنا في حياتنا الدنيا أم أشقانا ؟ أم نفعل الفعل لان **التجربة** قد دلت على أنه يعود علينا بالحياة الطيبة ؟ انها اذا كانت الأولى ، كان « **الواجب** » هو الواجب ، مهما تغيرت ظروف العيش ومهما تطور المجتمع وتبدلت أوضاعه . وأما اذا كانت الثانية ، كان من حقنا أن نغير من الفعل لنلائم بينه وبين ما يحقق لنا سعادة العيش ورخاءه. وأعود فأقول اننا من القائلين « **بالواجب** » المفروض علينا من صاحب السلطان — وكان المفروض أن يكون صاحب السلطان في عليائه من السماء ، ثم جاز أن يتمثل في المتربع على كرسي الحكم من افراد البشر — بل اننا لنفزع — او ندّعي الفزع -اذا قيل لنا انه لا بد في مجتمع متطوّر أن يتطور معيار الحكم الاخلاقي على الناس والأفعال . فنتج عن ذلك موقف مشحون بالمفارقات ، اذ انسلخت دنيا الحياة الواقعة التي يتعامل فيها الناس بالبيع والشراء والزواج والطلاق وتربية الابناء وما الى ذلك من صنوف التعامل ، انسلخت دنيا الحياة الواقعة هذه عن دنيا القيم الاخلاقية ، فالفعل في ناحية والقول في ناحية اخرى . وقد ألفنا هذا الازدواج إلفاً، توهمنا معه أنه هو طبيعة الامور ، ومن ثم كان النفاق الذي نقع فيه كل لحظة ، لا نكاد نحسه أو نعيه ؛ فلا يثير منا دهشاً أن تنفرج الزاوية بين المدرسة بقيمها والبيت بفعله ، وان تكون هذه الزاوية اشد انفراجاً بين المسجد والسوق .

وجاءت حياتنا الفنية انعكاساً لهذه النظرة الشاملة ، التي تعلي من شأن الخارج على حساب الداخل. فالمعيار يهبط عليك من علٍ ولا ينبثق من طويّتك، فكانت الاولوية في حياتنا الفنية كلها — بوجه عام — هي لسلامة الشكل لا لحيوية المضمون . فالرسوم اشكال هندسية ، والقصائد تفعيلات موزونة . وتسربت هذه « **الشكلية** » الى مناشط الحياة جميعاً ، فما دمت قد حافظت على « **الشكل** » المقبول — عند القانون او الشرع او العرف — فقد اديت واجبك ، بغض النظر عما ينطوي عليه هذا الشكل من لباب الفعل نفسه وما يؤدي اليه من نتائج ضارة او نافعة . المعوّل عندنا على « **المظهر** » لا على الحقيقة ، فاظهر للناس في اوضاع الغنى تكن غنياً ، وفي أوضاع الحرية تكن حراً ، وفي اوضاع العالم تكن عالماً . المهم هو ان يسلم « **الشكل** » من الشوائب ، وهذا -بالطبع- يحتاج الى مهارة وبراعة ، ولهذا كان السذّج منا ، الذين يتعالون على « **الشكل** »

بحثاً عن المضمون وحقيقته ، سراعاً الى السقوط فالموت .

٤

جذور يجب ان تقتلع من اصولها ، اذا اردنا للمواطن العربي أن يولد من جديد . فاذا ما خلت التربة من هذه الشوائب ، بذرنا بذوراً أخرى لتنبت لنا نبتاً آخر . وكما كانت سلسلة الصفات التي لم نعد نريدها مرتبطة بعضها ببعض ، بحيث كانت الحلقة منها تستتبع التي تليها ، فمن انفصام السماء عن الارض ، نشأ طغيان الحاكم بالمحكوم ، وانهدمت ضرورة القوانين في الطبيعة وفي المجتمع الانساني على السواء ، وعلت الارادة على الفكرة ، وسبقت قوة الجاه رجحان الحق ، واصبحت الفضيلة هي واجبات مفروضة ، وبات الفن شكلاً بغير مضمون . أقول انه كما كانت تلك السلسلة من الصفات المبعدة متّصلة الحلقات على النحو الذي رأينا ، فكذلك سلسلة الصفات التي نريد لها أن تضاف .

ففي مكان الثنائية التي شطرت سماءنا عن أرضنا ، وفصمت ارواحنا عن ابداننا ، وباعدت بين قيمنا وافعالنا ، وهي الثنائية التي استتبعت سائر لواحقها ، نضع ثنائية جديدة تكفل لنا النتائج المسايرة للعصر الجديد ، واعني بها ثنائية العلم والحرية – لكنه قول يحتاج الى شرح وتفصيل :

هذا العالم بيت والانسان ساكنه (ويساكنه في البيت نفسه كائنات اخرى لا شأن لنا بها الآن) ، ومن حق الساكن ان يستخدم اثاث البيت ، على الوجه الذي يراه نافعاً ومؤدّياً . لكنه لكي يستخدم هذا الاثاث ، لا بد له من أن يعرف ما هو ؟ وكيف ينتفع به ؟ وهذه المعرفة اذا ما أُحكمت كانت هي « **العلم** » – العلم بالطبيعة وما فيها من صنوف الكائنات . وانه لحديث طويل أن نفصل القول تفصيلاً ، في الخطوات التي ينبغي للباحث العلمي أن يخطوها في سبيل علمه بالطبيعة وكائناتها ، فحسبنا الآن أن نسوق كلمة « **العلم** » وكأنها واضحة المدلول .

لكن « **علم** » الانسان بالطبيعة وظواهرها وتفاعلاتها ، يستوجب أن يكون هذا الانسان نفسه « **ذاتا** » عارفة عالمة باحثة منقبة . هنالك ذات تَعلم وموضوع يُعلَمَ ، ومهما زعمنا الصلة الدامجة لهذين الطرفين في كائن واحد ، فما

يزال هناك هذان « **الطرفان** » : الذات العارفة والموضوع المعروف ، الانسان والعالم ، كطرفي العصا ، والعصا واحدة .

الى هنا والأمر أوضح من أن يذكر ، لكن النتيجة التي تلزم عن هذه القسمة ليست واضحة دائماً ، وأعني ضرورة أن يخضع الانسان لواقع العالم كما يثبته العلم ، مع ضرورة أن تظل للذات حريتها : فترغب وترهب ، وتحب وتكره ، وتختار وتدع ، وتقبل وتدبر ، وتجرؤ وتجبن ، وتستجمل وتستقبح ما شاءت لها أهواؤها وميولها .

فالعلم بالطبيعة الخارجية قيد ، وانطلاق الطبيعة الداخلية على سجيتها حرية ، والجمع بين ذلك القيد وهذه الحرية هو ما نريده للمواطن العصري . وبالتقيد بحقائق العلم يتشابه الناس على اختلاف قومياتهم وتباين أجناسهم ، وبالحرية في انطلاق الذات وراء طبيعتها يختلف الناس : فرداً عن فرد اولاً ، وأمة عن أمة ثانياً . حين أثبت حقائق الطبيعة الخارجية فذلك « علم » — والعلم واحد للجميع وأما حين أتعقب حقائق الطبيعة الداخلية ، فذلك « **فن** » — والفن منوّع بتنوّع الأفراد والأمم . العلم موضوعي والفن ذاتي ، والخلط كل الخلط في أن أفسد العلم بأهواء الذات ، أو أن أزيّف الفن بموضوع يُملى عليه من خارج . وبالعلم المقيد والفن الحر يتكون الانسان المعاصر .

فاذا كان العربي متخلفاً عن عصره ، فذلك لأنه لا علماً بالطبيعة اكتسب ولا فنّاً معبراً عن ذاته أنشأ . فالعلم — حتى اذا ألممنا بأطراف منه — هو من اكتساب غيرنا ثم حفظناه حفظ التلميذ لدرسه . والفنّ — اذا زعمناه — هو سلعة منقولة عن سوانا (ولا فرق بين نقل عن اسلافنا ونقل عن معاصرينا) فاذا كان في المنقول فن فالفن لغيرنا ، عبّر به عن ذاته هو ، وأما نحن فذواتنا ما زالت مطمورة تنتظر الفنان الأصيل .

فاذا اتخذنا من هذه النقطة منطلقاً : حقيقة علمية عن الواقع نتشابه جميعاً في الخضوع لها ، وعبارة فنية تصور الذات ، نتشابه جميعاً في الحرية عند صوغها ، أسلمتنا هذه النقطة الى نتيجة لازمة ، وهي أننا سواسية امام العلم وأمام الفن معاً ، لا يفاوت بيننا أن فلاناً أعلى منصباً او اقوى جاهاً أو أكثر ثراء من فلان ، بل يفاوت بيننا ان فلاناً اصاب الحق في العلم ، والصدق في الفن. بالعلم المشترك نعرف العالم ونغيره ، وبالفن الذاتي نعرف الانسان ونقوّمه. بالعلم

المشترك تنشأ الحضارة بنظمها وادواتها ومصانعها وتجارتها وزراعتها ،وبالتعبير الفنّي عن الذات تنشأ الثقافة بقيمها التي تفرق بين الحسن والقبيح ، والمقبول والمرذول . العلم ملك مشاع للانسانية جميعاً ، والفن يحمل ملامح مُنشئه ، وبهما معاً يتحقق الانسان متحضراً ومثقفاً .

ففي اليوم الذي تخرج لنا فيه البيوت والمعاهد مواطنين ، توافر لهم التزام بالحقائق العلمية الموضوعية ، التزاماً يديرون عليه خطط البناء الحضاري الجديد ، وتحرر من كل التزام في التعبير عن ذوات انفسهم ، تحرراً يسقط ذواتهم على عالم الأشياء ليفاضلوا في حياتهم بين شيء وشيء ؛ في ذلك اليوم الذي تخرج لنا فيه البيوت والمعاهد مواطنين يدركون اين يكون الفاصل بين القيد والحرية ، بين الصحو والحلم ، بين الواقع والخيال ، بين الموضوع والذات ، بين « هو » و« انت » و« انا » ، في مثل ذلك اليوم يمكن ان يقال انه قد تم للمواطن العربي ميلاد جديد .

جاك بيرك

التاريخ والحلم

كانت بين المدن ، مدينة تجابه الكارثة . بالعمل دون ريب وربما ، على نحو مماثل ، بالصلاة والحلم واللعب . بأشكال تنوعت فأذهلت شهودها : صحافيين ، علماء اجتماع ، فنانين ـ كانوا يشردون في متاهاتها .

إلى اين تؤدي متاهات الإنسان هذه ؟ فالانسان ليس كما هو الا بهذا الثمن . انه لا يهتدي الا بهذا الجاذب المزدوج من التأكّد والتردّد . ثم انه ينبغي ألا يضيع . ذلك أن وضعنا في هذه اللحظات من اعادات النظر هو ان ما يُوقِذُنا قد يُنقذنا . من التأرجح يتكوّن قدرنا الذي سيكون قدر العدالة في العالم او قدر الحق .

*

هذا البلد الذي يشابهنا هو **الشرق** ، اما **المدنية** فقد تكون **أصفهان أو دمشق** ، او بالاحرى **القاهرة** . بلى ، كنت اجوب **القاهرة** في تلك الليالي حيث يتحول **رمضان** ذهباً ليلياً ، مجداً من الغبار ، شبعاً وريّاً . كان الجمهور يهرول في الشوارع آناء الليل ، ممتلئاً بالحماسة لأنه ممتلىء بالكارثة . كان ذلك **في الجمالية** ، الحي الفاطمي القديم ، حيث تمتد طريقه المستقيمة من **مسجد الحسين** ، الى بابي السّور : **باب النصر** ، **وباب الفتوح** . في هذه الأمكنة العتيقة كثافة اساسية من امارات المدينة : هياكل للعبادة ، اسواق للتجارة ، مدارس بواجهات من الخشب المنحوت ، مناهل لعطش المارّة . وتخلط الاصلاحات المتوالية ، والتحسينات الهندسية لفن معماري عريق ، والحداثة

التي تستأصل **قصر البكري** لتقيم ابنية شاهقة من الاسمنت بين آثار الأمس ـ هذه كلها تخلط العصور والطبقات الأرضية لهذا الكائن الجماعي الواحد الذي يصطخب ، بوفاء دائم ، في فضائه الوراثي . يصلّون ، يحلمون ، يتحدثون ، يراقبون . يأكلون . وتدعوك للسلال الثمار الموسمية . وتتصاعد رائحة الشواء من المطاعم الصغيرة . ففي جميع العصور كان القاهريون يُولمون في الشوارع . ويحمل اسم زقاق مسدود ، **درب المُصْمَت** ، اسم وجبة : ارجل الخروف وكبده وكليتاه مطبوخة على الطريقة القديمة . وفي ساحة **الامام** ، القريبة الى **مبنى الأزهر** ، وهو اليوم بسيط جداً ، يعلّق لحام لافتة كتبت عليها آية قرآنية تحثّ على الاستمتاع بأطايب الطعام . ذلك ان شهوة الغذاء هي كذلك شهوة للحياة ، بالنسبة الى الذات والآخرين . انها اندفاع الجوع ، بأنواعه العديدة .

*

اذن ، كانت المدينة تستدفىء في شهر **رمضان** فيما يلاحق الكارثة ، تحت جبّته الكثيفة ، جبّة اللعب أو الصلاة أو الحلم . وتساءلت عما يجب أن أوليه مزيداً من الاعجاب : قابليتها على تجاهل الضربة ، أم طاقتها على مقاومتها . هكذا نهجت المجتمعات الاسلامية أو غير الغربية ، زمن الاحتلال . كانت هذه الشعوب اذ تُخضَع وتُنهك ، تنطوي على ذاتها ، أعني تعود الى صلواتها التي يسميها البعض أحلامها . ولا بد من التسليم بأن فاعلية نهجها كانت عظيمة ، لانها مكنتها من استعدادات لا يمكن انكارها ، على الرغم من أن موازين القوى كانت ، تقريباً وباستمرار ، في غير صالحها . الا أن هناك خطراً في هذه القدرة الغامضة : لم يكن ذلك الحلم هو الذي يمنح للتاريخ انطلاقه ، بل الذي يحيد عنه .

أقول باختصار : هنا وهناك ، **ذلك** أن ملاحظات كهذه تصحّ هنا كما تصح هناك ، يتململ أمام التجربة ، وعد النصر وخطر التظاهر بالنصر . والقضية التي أطرحها يجب ان تتحرر من تحيز تحليلنا فيما يتعلق بعديد من الظاهرات في العالم ، تبدو لنا خادعة . فنحن ، على الجملة ، ندين كل ما ليس عقلانية وسيلية يمكن ردّه الى **الغرب** قليلاً أو كثيراً ، ونزعم أنه مغاير للعقل . أو نقول عنه ، في أحسن حال ، انه « **نمط نتاج آسيوي** » . ونحشر في خرْج هذا المفهوم كلّ

عمل أو بحث يمان خارج جزرنا الضيقة . لكن ، ماذا نفعل بالباقي ، أعني بالكل تقريباً ؟ فهذا الباقي مستمر فينا . وكيف تنهض عقلانية تنحدّ في كونها أداة ، مستغنية عن اللعب والتخيل والاسطورة ، رافضة رموز النية والفعل ؟ بلى ، ما يكون عقلٌ كهذا بُتر عن أساساته وأهوائه ؟

تلك هي المسألة التي تطرحها علينا هذه المدينة فيا تجابه الكارثة .

أكيد أن هذه المجابهة لن تكون فعّالة الا اذا خلصت من البلبلة ،وقضت كذلك على ذهنية التقليل من خطورة الحدث . ان عليها ،بخاصة ، أن تبطل التساوي فيا بين هذه الطرائق ، بغية الوصول الى قلب نظامها أو المزاوجة بينها . حينذاك ، وحسب ، يمكن الوصول الى كمال مكتنز بوجوه الواقع جميعاً .

ان ضعف كثير من المجتمعات يكمن في الخلط بين نهج وآخر ، أو حذف واحد على حساب الآخر . هكذا قد يكون العالم الذي نسميه **ثالثاً** ، هذا العالم الذي يحاول ان يصنع تاريخه دون أن يتنكر لنفسه ، بالغ كثيراً فعمل في مقام اللعب ولعب في مقام العمل . ولعله منح للغته سيطرة على الإشياء لم تعد فيها ، ومنح بالمقابل للأشياء سيادة ليست لها على القيم أو على الرمز . من هنا كانت هذه المجتمعات معرضة للخسارة على الصعيدين . أدرك جيداً أنها تتقدم في المدى الطويل ، وانها تغلبت على صعوبات أكثر خطورة من صعوبات حزيران ١٩٦٧ . أنها لم تستطع ان تعيد بناء ذاتها وتوكيد شخصيتها الى هذا الحد الا بفضل ايمانها المدهش بنفسها . وأنها تقدم لنا ، من هذه الناحية ، أمثولات مفيدة في معرفة الذات . كان عليها كذلك في حالات كثيرة ، أن تصبح بكاملها أحلاماً أو أساطير لمجابهة القوى الساحقة وقوة الاشياء . ومع هذا كانت تستورد الآلات وطرق استخدامها لتوازنَ بينها وبين الحلم والأسطورة . من يستطيع أن يأخذ عليها ذلك ؟ لسنا نحن ، على الأخص ، الذين فرضنا عليهم هذه التقسيات المشوّهة ، أي هذا الفشل الذي يماثل فشلنا .

لعل نقصاً في تحليل الروابط فيا بين هذه القضايا هو الذي يوّلد ضعفها الخطر الذي يقابل ضعفنا. ذلك أن شقاءها يطرح علينا الأسئلة نحن كذلك . وانني لأرى فيها انطباقاً لمبادىء لا تختص بالمستعمرين القدامى وحسب ، وانما تختص بالغرب والعالم كله .

اذ هل يحق لي أن أسمي ثقافة بامتياز ، هذه السطوة الصناعية التي نتحدث بازدراء ، من على ذروتها ، الى درجة نجرؤ معها على انكار وجـود الآخرين أو مستقبلهم ؟ ان ثقافة صناعية لا تنشأ حقاً الا بعد أن تكون قد تمثلت قيماً كالعدالة ، واحترام التنوع ، وتحويل الاسبقية تحويلاً كاملاً من الانتـاج الى العمل ، ومعنى عالم **متعدد يتوحد** . بغير ذلك لن تكون ولا تصبح الا مرحلة تكنولوجية . أكيد انها هائلة ، تثير الاعجاب . وهي دعامة ضرورية لانسان المستقبل ولما يمكن أن تؤول اليه الاشتراكية . لكنها لم تصبح ثقافة بعـد . بيدَ ان ما يخفي نقصها هو أن اجزاء من الثقافات القديمة ، ثقافات البلدان التي تتجدد وتنمو ، تبقى في غير موضعها ، ضمن ابعادٍ تفقد معناها القديم دون ان تستجيب لمعنى جديد .

في مجتمعنا المزدهر ينحدر بالنسبـة الى البعض الاستمتاع بالامتيازات والخدمات بشتى اشكالها ،من غير أن نستثني الجنس، الى مستوى لم يعد مستوى الاستهلاك والتكيف Conformisme ، أعني انه يتطور نحو **درجـة الصفر** في الحياة الاجتماعية . اعرف جيداً ان الاستهلاك الوافر ما يزال صعب المنال الا لقلة صغيرة في العـالم . لكن المحاكاة والتظاهر Contrefaçon وعدوى التكيف تتجه الى ان تسلب المحرومين فضائل حرمانهم ذاتها . فحـين يلوّح بالرفاهية للمجتمعات الفقيرة ، تفرض عليها شروط الاقتداء بالمجتمعات الغنيـة ، اعني التنكر لذاتها ، في كثير من النواحي . فلن يكون لها نصيبها الصغـير الا بالاندماج . لكن مع من تندمج ، ومع اي شيء ؟ كل شيء يجري كما لو ان التقدم لا يرضى بالتسارع الا على ارض اختارها هو نفسه ، وانه يُخضع القبول بالآخر لنوع من الغزو المتماثل .

ذلـكم هو امر **العالم الثالث** الذي يقدم لنا مادة هذه التأملات وربما مقياسها . هذا العالم ، كعالم العطل ، والفكر ، والشباب ، وجميـع الانواع او الاصناف الأخرى ، او القضايا التي يجب تحريرها ، لا نقبله الا بشرط ان يتكيف .

ان كثيراً من الشعوب تسلك اليوم ازاء مخاطر التكيف والنية السيئة الـتي تعقبها دون ان تمحوها دائماً ، وازاء مخاطر الاستغلال ، كما سلكت وما تزال تسلك ازاء الهجوم التكنولوجي . لقد شعرت قبل ان تفكر ؛ كما قـال **روسو** عن نفسه . وهي الآن تحلم ، تلعب قبل ان تعمل ، فيما تظن انها تعمل ،

أو تقتل لعبها وحلمها لكي تتشبه بنا . ما اشدّ الابهام في هذه الكلمات ! لعل الحلم هو الموت ، ان كان الحلم يعني التراجع امام الصعوبات المنعشة في العمل والكفاح .ولكن ، ان كان الحلم يعني تحريك الممكنات في النفس ، واستخلاصها من حاضر متعفن بغية المصالحة بين الماضي والمستقبل ، فانني حينذاك اقول ان الحلم وحده يجعل العمل ممكناً .

المأساة هي ان الايجابي والسلبي يتأسسان في هذا الابهام ، فيخففان من حدة التناقضات ، ويعارضان عنف التجددات بليونة القبول والاستمرار . من هنا ينجم الوهن في تمردي . اعتبر العمل حلماً ، والحلم عملاً . اتظاهر بأنني اتمسك بالعالمية ، او أنبتر عن التخيل . هكذا اجرد عملي من انطلاقه ، وربما من جوهره . ما اكثر اوضاع الافراد والشعوب التي يمكن تحديدها بهذه المعضلات Dilemmes الزائفة ...

*

يميز **دوركهايم** Durkheim بين السويّ والمرضيّ. وما يعنينا اليوم ليس الخير او الشر الاجتماعيان وحسب ، بل كذلك الدقيق المحدد من جهة ، والمترجرج ، المبهم ، المزيف من جهة ثانية . ولئن كان ينبغي الكلام من جديد على **الوجود في الآلة** [1] Aliénation . فما اكثر المرادفات التي تعرض لنا ! وهي مرادفات لم يكشف لنا كلياً غناها الخيف ، الاستغلالُ وتشيّء الانسان Dépersonnalisation اللذان فضحهما كفاح العمال وتمرد المستعمرَين . هكذا ، إذ تنضاف هذه الوجودات الآلية ، المستحدثة ، الى القديمة وتكثرها ، فمن الممكن أن تُرد ، كما اظن ، الى ثلاثة اساسية :

١ — ها نحن سائرون نحو لاتمايزٍ كلي تقريباً ، في انسانية يزيدها تفككاً تقسيم العمل وانهيار النظم القديمة .هذه ، كما يبدو ، مفارقة.ثم انه لن يبقى اي حد يفصل فيما بين الأشياء ، والكائنات ، والمفاهيم . فثمة نوع من التمازج Fusion يسود الكل .

كان المشهد الحزين للمنجم ، فيما مضى ،بنفاياته والبخار الأحمر المتصاعد من

---

(١) اعتمدنا هذه الترجمة استناداً الى تعبير الفارابي « الوجود في الآلة » ، الذي يقابل عنده « الوجود في الذات » ، ونذكّر في هذا الصدد ، بكلمته: « كل موجود في ذاته فذاته له ، وكل موجود في آلة فذاته لغيره.»

مداخنه العالية ، يلهم الاشتراكيين بنقائض Antithèses مثيرة ، لان ذلك ربما كان يذكرهم بالجحيم . اما الإدانات اليوم فباسمة ومتحفظة . فان قوى التشويه والخلل ، اليوم ، لم تعد تبدو في مظهر يهين الانسان وبلده ، وانما أخذت تتموّه بسطوح براقة ، هي مثلاً ، سطوح الرفاهية التكيفية .

٢ – هذا العالم يصبح ثرثاراً . يهذر بلا تعب ، كل لحظة في الأجواء وحتى في عمق اعماقنا . مع ذلك يعذبه الصمت أو بالأحرى انعدام المعنى ، تجريد الكلام من المعنى . هذا الخلل عائد الى ان البارز يتسطح ، والزوايا تنفرج ، والاوصال تتقطع . فكل شيء يمحي .

اسوأ من ذلك في **العالم الثالث** ! فهذا التفجر وهذا التشوش اللذان يجتاحان المجتمعات الصناعية ينعكسان فيه بشكل مضاعف . ان التشتت والتكيف يدمرانه مثلنا ، لكن في مرتبة ثانية .

٣ – هكذا يعاني ، بالقياس الى المجتمعات الصناعية ، السقوط نفسه الذي تعانيه هي ذاتها في كل ما ليس تابعاً للانتاج . انها بذلك تكمل الحركة المورفولوجية التي توزع ، فيما تتمثل التقدم الصناعي ، المهات والكفاءات وفقاً للقيمة الرأسمالية الشاقة . ثم انها تتوصل دائماً ، بالتقسيم ، والتنظيم الطبقي والاسكان ، الى تنظيم ما لا يخضع للانتاج أو ، كما تقول ، للعقلانية الاقتصادية . انها **تخصص قسماً** للتكنولوجيا العالية ، السيبيرنيطيقا مثلاً ، وقسماً آخر للمخدرات ، هذا الحشيش الذي تقدمه الامم الكبرى شكلاً متدنياً مشوّهاً للهروب والحلم .

من طبيعة المعرفة أن تخضع لتشكلات تجعلها معرفة مبادِرة ، بحيث ينشأ ما يعارض اللعب والعبث ، اذ يتجزأ الكل في زمر وفرقاء واختصاصات . وما كان في القرن التاسع عشر تنظيماً طبقياً يتجه الى ان يصبح تجزيئاً طبقياً : نقيض الانسان الكلي ، في كل شيء .

*

كل شيء يسقط في التشوش والتجزؤ ، ويسقط فوق هذا في منفعية Utilitarisme تطارد عزاءها الباطل في نوع من الحلم المستيقظ .

النتيجة ؟ توزيع غير متساو للسلطة أو القوة الحقيقية هو من الخطر بحيث انه لا يعود محتاجاً الى ان يكون مالكاً لكي يستثمر ويدير . وينتشر التكيف على الارض ، من جهة ثانية . أي التعود الخادع الذي يسيطر على الكائن ، والعجزُ عن استعادة امتلاك ذاته فيما يتمايز . بدءاً من ذلك تتزيف في نفسه جميع الاشياء ومن بينها التمرد . ولو فرضنا انه يعود الى اصالته وينطوي عليها ، فان هذا يحدث بنوع من السفر العاطفي عبر الزمن . غير ان الماضي لا يستعاد الا بوفاء برفض التقليد . فمن يريد ان يتوارث نفسه ، يخدعها ويجمد في مستنقع المحاكاة والتقليد .

بيد اننا بالمقابل لا ننقذ انفسنا بالغوص في حداثة متطرفة ما دامت لا تلامس الا جزءاً من انفسنا ، فتقيّد Cantonner فينا جزءاً تزعم انه منطقي انتاجي ، وتفلت في الوقت ذاته القسم المرذول مما هو حيوي واصلي .

*

لنعد الى مشهد المدينة . لا المدينة الفاطمية التي تسجد للصلاة وتجابه الشقاء ، ولا مشهد العالم الصناعي الذي هو في آن متفجر وغير متمايز ، ثرثار ودون معنى . لكن لمشهدمدينة يونانية ، تلك التي نراها دائماً فينا منذ ان نبحث قليلاً عنها .

يصف **هولدرلن** Hölderlin في **هيبيريون** Hypérion اثينا Athènes بأنها « **الشجرة المثمرة المزهرة** » . لم تؤت ثمارها بعد ، لكن زهرها يعد . ويجد **هيبيريون** في حواره مع **ديوتيما** Diotima الجمال الذي اطلعته هذه المدينة ، وحدها بين المدن الاخرى . وهناك نص عربي معروف جداً ، سبق الرومنطيقية بثمانية قرون هو كتاب « **مروج الذهب** » **للمسعودي** ، ينظر الى الجمال اليوناني بتمجيد مماثل. فهو يرى ان الامبراطورية البابلية ،اي امبراطورية بغداد كانت افضل الامبراطوريات واعظمها . لكن المسعودي ، الجغرافي او الموسوعي او الطوباوي ، كان يعرف امبراطوريات اخرى . الصين ، الهند ، الاتراك ، اليونان . ويقول ، معترفاً بعظمة **امبراطور الروم** ،انه « ملك على اجمل الناس » . ان ثناءً كهذا يضع ، ازاء حكمة المثقفين الذين ينتمي اليهم المؤلف العربي وحكمة الفلاسفة او النساك الذين يعرف ان الهند تعج بهم ،

التفوقَ الاخلاقي للامبراطورية الاسلامية والجمال اليوناني الذي يجسّده **هيبيريون** .

يقول **هولديرلن** « **في اثينا يسكن فرح مكفّن** » . بهذا كان الاثيني رجلا او ، على الاقل ، يصير رجلا . كان يخرج جميلا من بين يدي الطبيعة . وهو كذلك يخلق الجمال ، اذ يتأمل او ينفصل عن نفسه . واذ يبدع الفن ، يضع جماله في موازاته . فقد كان الجمال حتى ذلك الوقت لاواعياً . كذلك يبدع الدين . ذلك ان الدين بالنسبة الى **هولديرلن** انما هو كذلك ، حب الجمال الاسمى. وقد خلق ، اخيراً ، الحرية وأخذ بها حتى انه لم يعد يقبل اي قانون الا كرهاً . كذلك ، ابدع الشعر والحكمة .

ان الانسان الذي ابدع هذا كله ، ابدعه جملة وعلى التوالي . لنقف عند هذه الكلمة للشاعر الالماني : « **ان قوى كيانه تلعب في أعماقه كألوان قوس قزح** » . كان شعب **أثينا** يجتمع بكامله في الساحة العامة ، او يصعد الى **الاكروبول** ، هذا الذي يصهره في كائن جماعي ، علماني وطقسي في آن ، ويشاهد بعد **ذلك** التراجيديا . لم يكن مسرحه غرفة مكعبة ، او خشبة على الطريقة الايطالية ، منفصلة ، باصطناع عن الجمهور ، وانما هو على العكس مكان **تام** Intégral في كنف الاكروبول : لم يكن في الحقيقة مسرحاً بقدر ما كان تمسرحاً Théâtralité لحضارة بكاملها . كان الشعب اذاك يمارس تنكره ولعبه ، بعد ان يكون قد تجسّد صلاة وديموقراطية . انه كذلك الحرب احياناً ، فقد كان يمارس حرب المواطنين . لم يكن هناك ما لا مكان له الا شيء واحد : المنتج بالمعنى الذي نعطيه لهذه الكلمة . ولعل هذا ما كان يبقي المجتمع اسير الجمود الاقتصادي . وكان على **الغرب** فيما بعد أن يعكس هذه العلاقة ...

لكن شعب الجمعيات والمواكب اذ يدفع الى اللعب جميع أشكال وجوده يكتمل استعراضه التشوشي الخاص ، فيوفق بين الاستعداد الكامل الذي يحركه من جهة والوضوح والنقد الجذريين من جهة ثانية .

*

ما هي العبرة التي نستخلصها من هذا العرض ؟

ان مجتمعات **العالم الثالث** التي تبحث عن الحرية يعرّضها هذا البحث ، شأننا

نحن ، الى التنكر والمحاكاة . انها بسبب ذلك تصل الى درجة من التشوش بحيث يصبح غضبها شأن رضاها مشوشاً . انها تخلط الكلمة بالتحليل والتاريخ بالحلم . او بالاحرى تطرد لغتها التحليل ، وتطرد العقلنةُ القصيدة . اذن ، وحده ، العرض المشابه لما يجده **هولدرلن** في كلامه على اليونان ، وكما كان من الممكن ان يوضحه فيلسوف عربي ، وحده يمكن ان يعيد خلقنا ، التوفيقُ بين اكثر الصيغ تنوعاً : بين الاسباب الفاعلة ، والحلم واللعب والاسطورة والكلمة وغيرها . شريطة ان ننظمها من جديد لمواجهة الانقسامات الاثانية والتجزؤات والتشوشات التي يقدم عنها المجتمع الصناعي المثل لغيره من المجتمعات . ولن يتم هذا الا بعد ممارسة منظمة لجميع الممكنات .

إن ممارسة كهذه تفترض تحديدات دقيقة بقدر ما تنفي التضييق الاناني . كان العلم ورجاء الاشتراكية في القرن التاسع عشر ، ولادة ثورية انبجست من كثافة السكان والطبقات القائمة على تنظيم الملك وتقسيم العمل . ولا بد لهما الآن من ان يواجها الاخطار ذاتها التي اخذت اخطار اخرى تنضاف اليها : اخطار التشوش والتكيف الارضيين . لا بد للفعل ذاته من ان يتسلح بسلاح جديد ، ما دامت المسألة لم تعد مسألة عدالة بين طبقات مدنية متجانسة وحسب ، وانما اصبحت كذلك مسألة العدالة بين ثقافات مختلفة واعادة الانساني الكامل الى تمامه من جديد .

ان على الاشتراكية ان تنهض بهذه الاعباء المتممة التي فرضها عليها التكثر وانتشار الوعي . فليبسط الانسان الفرد استعداداته الكاملة . وليكشف الانسان المجتمع عن كثير من الغنى الذي كانت اسبقية الوسيلة تغطيه حتى الآن. ولينهض العالم في تنوع ميراثاته واذواقه واساليبه ، فهذه الطرق ستقربه ، بلا شك ، الى « **الواحد المغاير ذاته** » (كما يقول **هولدرلن** كذلك نقلا عن **هيراقليطس**) ، اعني ستقربه الى تاريخه التام ، وعقله الكامل .

عبدالله القصيمي

لئلا يعود هارون الرشيد

١

لأني مريض بالقدرة الاليمة على التحديق في الأشياء وقراءتها قراءة مسائلة مراجعة مفسرة ، كان تحديقي في الكاتب العربي والانسان العربي ، وقراءتي لهاتحديقاً وقراءةفيها كل المساءلةوالاصرار والمراجعةوالتفسير والحساسيةالباهظة التعذيب . كان هذا يعني الرؤية بلا زمان ، ولا صورة ... كان يعني رؤية الماضي كرؤية الحاضر ، ورؤية المستقبل كرؤية الحاضر والماضي .

كان ذلك يعني رؤية الشيء مشهداً واحداً : رؤيته محتملا ومتخيلا كرؤيته مرئياً ، رؤيته منطقاً كرؤيته مشاهدة ، رؤيته في يومه مثل رؤيته في امسه ، في غده ، في ابده . رؤيته بلا ازمان ، بلا ابعاد ، بلا صور ، بلا مواقف مختلفة ، بلا مفاجآت .

ولاني مريض بالتحديق في الاشياء وقراءتها بالاحساس الاليم والديمومة والتفسير والمراجعة والمعاناة ، اصبحت ارى الانسان العربي بلا قبل وبعد ، اراه قبلا كبعد ، اراه بعداً كقبل ، اراه في ابنائه واحفاده كما اراه في نفسه ، كما اراه في آبائه واجداده . أراه في احتمالاته التي سوف تصبح واقعاً كما أراه في واقعه الذي لا يراه هو واقعاً . اراه واقعاً واقعاً ، وأراه غير واقع واقعاً — اراه في كل امتداداته امتداداً واحداً ، وفي كل صيغه صيغة واحدة ، وفي كل صوره صورة واحدة . اراه وأراه ودائماً اراه ، لاني مريض بالرؤية .

٢

انك احياناً لمحتاج الى ان تكون وحشاً في قسوتك ، الى ان تصبح عيناك حجراً ، وحواسك افتراساً وذنوباً ، لكي تستطيع ان ترى انساناً او مجتمعاً كما هو بكل تشوهاته وآلامه وعاهاته وذنوبه وفضائحه وهمومه .

وانك لمحتاج الى ان تخرج من كل حدود الانسان ، من كل ماضي الانسان ، من احتمالات الاحتشام والاغضاء والاستحياء والاشمئزاز والعطف والبكاء والرثاء ، لكي تستطيع ان ترى الانسان العربي يمارس فضائح ايامه الستة ، او ان تقتنع بانه قد مارسها . ايوجد انسان بكل هذا الضعف ؟ أيوجد قوم بكل هذا الضعف ؟ لهم كل هذه الامكانات والظروف والثروات والدعاوى ؟ لهم كل هذه المحاباة والدلال العالميين ؟ أيوجد من يستطيع ان يحدق فيهم ، في وجوههم ؟

واننا احياناً لنجبن او نرتجف او نعاني أو نرفض ان نرى بابصارنا او نقتنع بعقولنا ، بقدر ما نجبن او نرتجف او نعاني او نرفض ان نجرح او نقتل بادوات قتالنا المختلفة .

ان القدرة على الرؤية والاقتناع قد تكون تعبيراً من تعبيرات القدرة على الهجاء والتحقير والتشويه والقتال والتعذيب . قد تكون جريئاً على ان ترى وتقتنع لانك جريء على ان تهجو وتحقر وتشوه وتضرب . وقد تعجز عن هذا لانك عاجز عن ذلك . قد تعجز عن الرؤية والاقتناع لانك رحيم او مؤدب او مجامل او صديق او محب او مريض بالاستحياء والاشمئزاز .

٣

ان الحكم المستبد الطاغي لا يقتل الموهبة ولا يضعفها . انه لا يستطيع ذلك ولا يريده . انه يحشد الموهبة ويسخرها ويمتلكها ويسيرها لحساباته التي لا بد ان تكون طاغية مستبدة . ان الحاكم الطاغية يحتاج الى القوة والى الانتصارات والى الطوابير والمهرجانات والاعلانات الباذخة ، والى الدوي ، والى القاء كل السحر والقهر والبهر والذعر في كل العيون والمشاعر . ولا يوجد من يصنع له كل ذلك سوى الموهبة ، موهبة المجتمع الذي يقف فوقه — سوى المواهب الضخمة المتنوعة المشحوذة المستنفرة .

ان الطاغية بلا مجتمع موهوب فارس بلا جواد ولا سلاح . انه ملابس فارس بلا فارس . انه عرس بلا طبول ولا مدعوين ولا زفاف ولا فتاة . انه حرب بلا جنود ولا سلاح ولا انتصارات . انه طغيان بلا طاغية . وطاغية بلا قدرة ولا ارهاب .

والموهبة لا ترفض ان تنمو وتتألق وتتعاظم تحت حكم الطغاة . انها لا تملك ان تكون شريفة او نظيفة او عفيفة . انها لا تستطيع ان تغضب لنفسها او ان تحترم نفسها . ان الموهبة لا تملك رفضاً ولا اباء . انها لا تتغذى بالفضيلة دائماً . انها تتغذى بكل طعام ، بكل ما يعرض عليها . انها ليست قديسة .

والموهبة لا تتحول الى زواج . انها ابداً اباحة ، انها ابداً فسوق . ولعل افتتانها بالطغاة أعظم من افتتانها بالصالحين . لعلها لا تهب نفسها بحماسة وافتضاح مثلما تهبها للطغاة . انهم يهبونها من النشوة والجنون الممتع اكثر مما يهبها الصالحون . ان الطغيان افضل البيئات لافتضاح الموهبة ، لاعطائها كل نفسها بلا شروط ، بل وقار بلا تقتير ، بلا تأثم ، بلا تقوى . ان الطغيان يتحول الى افضل معشوق للموهبة ، انه خدينها المفضل .

الطاغية الذي يحكم مجتمعاً موهوباً يصبح طاغية موهوباً . او يبدو كذلك ، او يفرض عليه ان يكون كذلك ، او هو خليق بان يكون كذلك . والطاغية الموهوب فوق المجتمع الموهوب هو أفضل الشروط لبناء اعظم قوة متفوقة تستطيع ان تحقق اسرع الانتصارات واكثرها بريقاً ودوياً وتخويفاً للاعداء والخصوم .

ان طريق التاريخ مملوء بالطغاة الذين بهروا العالم وقهروه وارهبوه بالقوة السريعة الرهيبة التي بنوها وحشدوها ثم اطلقوها على العالم ، كأنما سرقوها من الجحيم لسرعتها وضخامتها ووحشيتها . كأنما صنعتها لهم الابالسة او الآلهة بكلمة « كن » التي كانت لغة الآلهة القديمة .

واذا وجد مجتمع عاجز وفوقه احد الطغاة ، فالتفسير أن ذلك المجتمع لا يملك الموهبة . ولا يمكن ان يكون التفسير ان ذلك الطاغية قد سحب من المجتمع موهبته او قتلها او اضعفها او اعتقلها او نفاها ، او انه رفضها ، أو انها رفضته عشيقاً لها أو صديقاً او سيداً او مولى .

الموهبة لا ترفض الطاغية . الطاغية لا يرفض الموهبة . حوافز الرفض بينهما غير موجودة . القضية كلها – أي في حسابه هو لا في حسابها – هي كيف تكون العلاقات بينهما . يريدها جداً ، ويريدها اكثر مما يريدها سواه . لكن يريدها امتلاكاً وسخرة ، وعرضاً لجنونه وكبريائه . الطاغية لا يستطيع ان يكون مجنوناً مثالياً . لا يستطيع ان يكون مجنوناً يرضى عن جنونه ما لم يكن فوق مجتمع يملك مواهب عظيمة ، متنوعة ، على عديد من الاتجاهات والاساليب . المواهب القوية المتنوعة هي الثمن ، هي الجزاء ، هي التفسير ، هي الشروط لعظمة الطاغية ، لقوته ، لدوّيه .

٤

ضعف الانسان العربي اذن ، ذلك الضعف الرهيب الذي كانت المواجهة العربية اليهودية أقسى فاضح له ، لا يمكن ان يعني ان العرب محكومون بالطغاة المستبدين ، وان هؤلاء الطغاة المستبدين شربوا موهبتهم ، وضعوها في احد المعتقلات النائية الكثيرة المحروسة بشراسة بكل الكلاب البوليسية ، بكل ادوات واجهزة الافتراس والقمع والقهر .

لو أن العرب يملكون موهبة ، لصنع طغاتهم من موهبتهم قوة وانتصارات وابداعاً ، كما صنع طغاة آخرون من مواهب شعوبهم .

لماذا اعطت شعوب اخرى يحكمها طغاة آخرون المع الابداعات والانتصارات واضخم الاقتدار في مواجهة القوة بالقوة ؟ ألأنها تملك موهبة ، ام لأن طغاتها يملكون موهبة ، ام لأنها وطغاتها يملكون موهبة ؟ ان كان الأمر هذا او هذا او هذا فلماذا لم يكن العرب هذا او هذا او هذا ؟ واذا كان الطغيان العربي هو الذي قتل الموهبة العربية ، أو منع ان تولد في العرب موهبة ، فلماذا لم يقتل طغيان الآخرين موهبتهم او يمنع ان تخلق فيهم موهبة ؟ واذا كان الطغيان في الآخرين لم يمنع ان تكون لهم موهبة او أن تتحول موهبتهم الى اروع الاساليب في تعبيرها عن نفسها فلماذا منع الطغيان في العرب ان تكون لهم موهبة او ان تعبر عن نفسها ؟ كيف يكون الشيء مانعاً عند العرب ولا يكون مانعاً عند غيرهم ؟ كيف يكون الشيء سبباً من أسباب الابداع والتفوق عند غير العرب ثم يكون عند العرب سبباً من أسباب العجز والهوان والخمول ؟

العبقرية تصنع ذاتها تحت الشيء ونقيضه . تهب نفسها للحرية كما تهبها للدكتاتورية . لهذا توجد تحت هذه وهذه ، كما تفقد تحت هذه وهذه .

لقد عجز الانسان العربي عن اعطاء العبقرية محكوماً بالدكتاتورية ومحكوماً بصيغة الحرية . لقد تساوى في عجزه تحت هذه وهذه ، ولم يكن تحت احداهما اكثر من نفسه تحت الاخرى . كان عادلاً في توزيع نفسه واعطاء نفسه وفي عجزه كيفما كانت اساليب الحكم حوله ، وكيفما كانت صيغة النظام الذي يحكمه ، ومذهب الحاكم الذي يهتف له وأخلاقه وأفكاره . لقد جاء الانسان العربي تحت كل حكامه ومذاهبه ونظمه وبلدانه وشعاراته صيغة واحدة ، في انهياره وغبائه حين المواجهة العربية اليهودية . بل ان المراحل التاريخية المختلفة لهذه المواجهة لم تصنع منه انساناً مختلفاً ولا مواقف مختلفة او متفاوتة . كأنه عاجز أن يتخطى طوره الواحد . كأنه غير قابل ان تكون له اكثر من صيغة ضعف واحدة . كأن ضعفه لا يقبل التغيير أو التعدد . ولعله ضعف لا يقبل التغير والتعدد لانه لا يقبل الحركة . ولعله لا يقبل الحركة لشدة ضعفه . لعل الحركة نوع من القوة التي لا يستطيعها ضعف الانسان العربي .

لقد جاء الانسان العربي في كل أزيائه وتحت كل شعاراته صيغة واحدة ومستوى واحداً حين وقعت المواجهة العربية اليهودية . جاء كأنه شيء لا يتغير ، لا يتفاوت ، لا يتعدد . جاء كذلك لانه جاء نموذج ذاته ، نموذج موهبته ، نموذج عبقريته . انه لم يجيء نموذج مذاهبه او نظمه او شعاراته او ظروفه او الظروف التي حوله . لم يجيء نموذج الازمان المختلفة او المتباعدة او المتغيرة التي تقتحمه . لم يجيء نموذج السلاح الذي يحمله او الامكانات التي يعيشها او العدو الذي يواجهه .

لم يجيء نموذج أي شيء آخر . لقد جاء نموذج ذاته وحسب . نموذج الانسان العربي .

حتى رؤيته لنفسه ، لخصمه ، للعالم ، للاشياء حوله ، للاشياء بعيدة عنه ، بعيداً عنها ، لم تتغير . لم تختلف . لم تتفاوت .

الانسان العربي لا يتغير . عار ان يتغير . ذنب ان يتغير . عقوق للأرباب والآباء والأوطان أن يتغير . لهذا لم يتغير .

٥

هل يستطيع شيء ، هل يستطيع أي شيء ، مهما عظم ، أن يكون كفارة او اعتذاراً عنك ايتها المواجهة العربية الاسرائيلية ، ايتها الوحش المبتلع لكبرياء الانسان العربي ، المذل لقبور آبائه ؟

ليت القدر كان رحيماً ، ليته كان نبيلاً ، ليته كان مجاملاً أو حيياً . ليت صفة طيبة فيه قد منعته من ان يصنعك ايتها المواجهة العربية الاسرائيلية ، من ان يهيئك لتفضحي الانسان العربي هذا الفضح الذي لم يفضحه احد في التاريخ ، في كل التاريخ .

ليت القدر أخذ منا كل تاريخنا ، كل آبائنا ، كل زعمائنا وقادتنا ومعلمينا وقديسينا ، كل شعرائنا ، كل تعاليمنا ومنابرنا ، كل فصاحتنا وفصحائنا ..

ليته اخذ منا كل شمسنا ، كل ما تحابينا به من سخاء في الضياء والحرارة .

ليته أخذ منا كل نفطنا ، ليته اخذ منا هذا الشيطان الملاك ، هذا النبيّ الساحر ، هذا الفاضح لضعفنا ، هذا الساتر لضعفنا ، هذه المعاقب لنا ، هذا الغافر لنا ، هذا الموهبة الأرضية ، هذا التعبير لموهبتنا الانسانية ، هذا المجد لارضنا ، العار لانساننا – هذا النفط ، هذا النفط الذي جاء اكبر من انساننا .

ليته اخذ منا كل نفطنا ، هذا الذكي الغبي ، هذا القوة الضعف ، هذا المديح الهجاء ، هذا الفقر الرخاء ، هذا الاسراف في الطبيعة ، التقتير في الانسان ، هذا النقد لمنطق الآلهة ، الثناء على منطق العبث ، هذا المحاباة لحياتنا ، التحدي لذكائنا ، هذا الذي تحول الى خطيئة من أكبر خطايا الأرباب والطبيعة والقدر لبلادة كينونته وسفاهة انحيازه وانحطاطه في اختياره لوطنه ، لقوميته ، لأهله ، لأصدقائه .

ليت القدر اخذ منا كل نفطنا ، هذا العدو الصديق ، هذا المهذب الوقح ، هذا الذي القى بالانسان العربي تحت اقوى الاضواء ثم لم يجامله بشيء من الموهبة ، هذا الذي وضع الانسان العربي تحت كل العيون ثم لم يهبه شيئاً من روعة المنظر ، شيئاً من احترام العيون ، شيئاً من انبهار العيون .

ليت القدر أخذ منا كل ذلك ، ليته أخذ منا كل شيء لكي يرفق بنا ، لكي يكون كل رفقه بنا الا يهيء لهذه المواجهات بيننا وبين هذا العدو الذي وضع كل امجاد تاريخنا ، وكل عبقرية قبورنا ، وكل تعاليم اربابنا ، وكل احتمالات مستقبلنا ، وكل امكانات قدرتنا ، في محنة ، في ريب ، في خطر .

٦

يريد الإله ان يكون واحداً . يريد ان تكون له وحده الوحدانية . لهذا يريد التعدد في كل شيء ، ليكون وحده المتفرد . حرم كل ما خلق ومن خلق من الوحدانية ليخص ذاته بها . وهل كان بهذا التخصيص يحابي نفسه ام يحمل عليها ؟

هل الوحدانية محاباة ام عقاب ، هل هي تحمل للواجب الصعب ، ام تفرد بالمجد السهل ؟ لو كان لي ان اختار للإله لاخترت ان يجرب نفسه باسلوب آخر — باسلوب اكثر محاباة للنفس .

الإله لا يمارس الجنس . لا ينام ولا يأكل . واحد متفرد . متفرد بالمسؤولية الكونية ، وهذه احدى تفرداته الصعبة . هذه الكينونة — أي كونه لا يمارس الجنس ولا النوم ولا التغذي ، وكونه متفرداً — لا بد ، فيما أفترض ، ان تصوغ مزاجه النفسي صياغة حادة اليمة .

هذه الكينونة لا بد — فيما أقدر — ان تصوغ نفسه واخلاقه ورؤيته وعزاءه ونشوته صياغة تتغذى بالآلام والتشوهات ، بالدموع والاحزان ، بالمشكلات والتناقضات والحروب . بكل الشرور والأخطاء والعاهات التي تعانىَ وتمارَس امامه ، في عينيه ، داخل اعصابه بضجيج ، بأهوال . لا بد — فيما ارى — ان يجد في كل ذلك عزاء وراحة وتعويضاً عن معاناته الخاصة ، عن همومه ، عن توتراته ، عن حرمانه الأبدي .

لماذا كل هذه الآلام والأحزان والشرور في الكون ؟ لماذا يريدها ، لماذا يصوغها ؟ كيف يطيق رؤيتها ، كيف يطيق الإحساس بها ؟ هل هي كمال ام عزاء ؟ هل يفعلها او يسمح بها بحثاً عن العزاء ام عن الكمال ؟ اذا لم تكن كمالا ،

بحثاً عن الكمال ، فلا بد ان تكون عزاء ، بحثاً عن العزاء . لا بد ان تكون عزاء او كمالا ، او ان تكون هذا وهذا .

هل يحتمل ان تكون – أي هذه الشرور والآلام في الكون والعالم – كمالاً أو بحثاً عن الكمال اذن لا بد ان تكون عزاء ، وحسب ، للإله .

الإله يتعزى بالآلام والدموع والاحزان لأنه يمارس ذاته ، يمارس وجوده ، يمارس ضروراته بممارسة هي العذاب ، هي الجحيم الذي لا يطاق عذابه ، هي الجحيم الذي لا شبيه لعذابه . انه متفرد ، في اشياء كثيرة صعبة . بالخلق ، بالمسؤولية الكونية . انه لا يمارس الجنس ولا النوم ولا الطعام . يعاني كل المعاناة ، يتعذب كل العذاب . ما من احد يتغذّى ويتعزّى بالالام والشرور مثلما يتعزى ويتغذى بها الاله .

لو كنت اختار للإله او اختار عليه لاخترت ان يشفى من هذه المعاناة ، من هذا الاسلوب . سأختار له حينئذ لكي يتغير مزاجه ان يمارس الجنس والطعام والنوم ويتخلى عن الوحدانية . وسوف انتظر له ان يتغير مزاجه النفسي ، ان تتغير اخلاقه ورؤيته ومنطقه وحكمته وارادته . سوف انتظر منه حينئذ ألا يجد في تشويه الطفل والشيخ وتعذيبهما غذاء وعزاء وحكمة ومنطقاً واحساناً اليهما ، ورحمة بالغة بهما تستحق منهما طلب المزيد والدوام ، تستحق منهما كل الشكر والايمان بالمحسن الأعظم .

سأنتظر حينئذ أن تكون له عينان اكثر ضعفاً وحياء ومجاملة للمعذبين والمحزونين واعجز عن رؤية الدموع والأحزان والعاهات ، وان يكون له سمع أقل انتشاء لسماع الآهات والضراعات المرفوضة ، وان يكون له ضمير أقل فسوقاً من ضمير الزلزال والوباء والموت والشيخوخة والحرب .

انتظر منه حينئذ ان تكون له حواس ومشاعر انسان تقتله لو رأته يتعامل بمشاعر وحواس الإله فيه .

انتظر له حينئذ صياغة إله جديد ليعطي صياغة كون جديد .

لا شيء يحتاج الى صياغة جديدة مثل الإله . لا شيء متروك دون اية محاولات لتجديد صياغته مثل الإله ، ولا شيء مثل الإله يحتاج الى صياغة جديدة ، الى تغيير صياغته ، الى تغيير صياغة الإله فيه بابة صياغة اخرى .

ان تصوراتك لن تصطدم بشيء مثلما تصطدم حينما تتصور كائناً كبيراً رهيباً بلا شبيه . كائناً وحداني الذات ، وحداني الصفات ، وحداني المكان، وحداني السلوك والقدرة والمسؤولية والشذوذ . كائناً بعيداً ، بعيداً عن هذا العالم ، وعنك ، متفرداً في مكانه وفي أخلاقه وممارساته ، متجهماً عابساً ابداً . لا يضحك ولا يغني ولا يمزح . لا يحب ولا يصادق ولا يعشق . لا يتزوج ولا ينام ولا يأكل ولا يشرب . ليس له أولاد ولا جلساء ولا مستشارون . لا يقبل النقد ولا الخلاف . لا يقول الشعر ولا يسر بسماعه . لا يراه احد ولا يسمعه احد . لا يزور ولا يزار . لا يسافر ، ولا يموت ولا يشيخ . لا يكبر ولا يصغر ولا يتغير . لا يزيدولا ينقص . لا يضعف ولا يقوى . ازلي ، ابدي ، بصيغة واحدة . لا يفارق ولا يستطيع ان يفارق ، لا يعرف ان يفارق ، ولا كيف يفارق .

يسمع ويرى ويمارس كل الهموم والدموع والآهات والعاهات والتضرعات والصلوات دون ان يحزن او يبكي او يستجيب او ينتحر حياء او رحمة او حباً او شهامة او عدلاً . تسقط في عينيه كل الالام والتشوهات دون ان تطرف عيناه ، دون ان يكره او يلعن عينيه او ما يسقط في عينيه .

لا يسأم ولا يبغض ذاته او ممارساته او حياته او ما حوله . لا يغير من اسلوبه ، ولا يجدد في اسلوبه . لا يمل من التكرار . لا ينكر ثقة الناس به وتأميلهم فيه ، لا ينكر غباءهم وضعفهم في معاملاتهم له ، في صبرهم عليه ، في فهمهم اياه . لا يحاول ان يحامل اية ثقة به ،أي امل فيه .يريد الثناء كل الثناء وهو لا يفعل شيئاً يستحق الثناء ، أقل الثناء . يحرم النقد وهو يفعل ما يوجب النقد ، كل ما يوجب كل النقد .

ان تصوراتك لن تصدم بشي مثلما تصدم بتصورك لمثل هذا الكائن الرهيب. ما اقوى تصورات البشر . كيف استطاعت ان تتصور مثل هذا . ما اقوى البشر ، ما اضعفهم . ما اذكاهم ، ما اغباهم . ما اقدرهم على التنازل عن الكرامة .

هذا الكائن هل تقبل ان تكونه ، ان تراه ، ان تغفر له ؟ هل تحسده ام ترثي له ؟ هل تلعنه ام ترق له ؟ ايكما الظالم : انت حينما تصورته هكذا ، ام هو حينما جعلك تتصوره هكذا ؟

٧

اذا اصبحت الدول العربية دولة واحدة اصبحت دولة كبرى . نعم كبرى تملك امكانيات ومزايا كبرى .

اذن لقد وقع العالم العربي في المصيدة . وقع في الغواية الباهظة . أصبح دولة كبرى . لها كل طموح الدولة الكبرى وكل احاسيسها وكل منافساتها وتحدياتها ومغامراتها وكبريائها واستعراضاتها ، وعليها كل تبعاتها والتزاماتها وهمومها . نعم لقد اصبح العرب دولة واحدة ، دولة واحدة كبرى . اذن لا بد ان يكون لدولتهم الكبرى قيصرها العظيم . لا بد ان يكون لها وحشها الهائل . وهل يكون قيصر عظيم بلا غرور وكبرياء ، بلا اظفار وانياب ، بلا طموح ومنافسات وتحديات واستعراضات ومغامرات ؟ القيصر العظيم ، دون هذه الشرور ، كالمرأة الجميلة المغرورة بلا مرآة ، بلا نظارة ، بلا عيون متطلعة متلهفة ، بلا زينة . كالمرأة الخاطئة بلا وجه ، بلا اعضاء داخلية ، بلا خاطئين ، بلا خطيئة ، بلا مكان للخطيئة .

القيصر الكبير الفادح هو العبقرية المحتومة التي لا بد ان تفرزها موهبة الدولة العربية الواحدة . الدولة العربية الكبرى الواحدة دون قيصر كبير فادح – لو كان ممكنا حدوث مثل هذا لا تعني في حساب العرب وحساب زعمائهم معنى الدولة الواحدة الكبرى . انهم لن يقتنعوا حينئذ بانها قد وحدت . لن يقتنعوا بانه قد وجدت دولة عربية كبرى واحدة ما لم يكن فوقها قيصر واحد فادح . وجود هذا القيصر فوق الدولة العربية الواحدة هو الذي يستطيع ان يقنع العرب بان دولتهم الكبرى الواحدة قد وجدت وبان لوجودها معنى ورسالة ، وهو الذي يجعل لبقائها معنى ورسالة ، بل هو الذي يجعل بقاءها ممكناً .

العرب لا يتطلعون الى الدولة العربية الواحدة الا لانهم يتطلعون الى القيصر الواحد . ان وحدانية الدولة في حسابهم من اجل وحدانية القيصر . ان وحدانية الحاكم او الزعيم او الخليفة او الأمام او النبي أو الإله هي التي تعني كل المعنى ، وكل القيمة في المنطق العربي . كانت القضية عند العرب دائماً هي الاصرار على وحدانية الإله ووحدانية النبي والامام والخليفة ، وفهم هذه الوحدانية والقتال في سبيلها . ولم تكن القضية عندهم وحدة الكون او وحدة

الناس أو وحدة الأديان والشرائع والنصوص ،او وحدة العالم او وحدة الأوطان او وحدة المواطنين . بل لم تكن القضية عندهم وحدة النبوة الا اذا كان المعنى وحدة النبي . فوحدة النبي هي القضية عندهم لا وحدة النبوة او النبوات .

كان الخروج على وحدانية الخليفة أو الإمام هو الزندقة التي لا غفران لها في دين العرب ، ووطنيتهم وتفكيرهم وتعاليمهم . انه كالخروج على وحدانية الإله ، بل انهم ليعاملون ذلك الخروج بقسوة لا يعاملون بمثلها الخروج على وحدانية الإله . ان الخروج على وحدانية الإله قد يغفر ، اما الخروج على وحدانية الإمام والخليفة فغفرانه ذنب لا يمكن غفرانه . انك لو اعطيت العرب وحدانية الشعوب العربية ولم تعطهم وحدانية الحاكم او الزعيم لكنت كمن اعطى المؤمنين وحدانية الناس او وحدانية الأديان او وحدانية العالم والكون ولم يعطهم وحدانية الإله .

٨

يا دولة العرب الواحدة الكبرى ، إني اخاف مجيئك لاني أخاف مجيء هارون الرشيد الجديد .

اني اخاف مجيء هارون الرشيد الجديد لاني قرأت عن هارون الرشيد القديم .كان يقاتل بآبائي ويقاتلهم بالسيوف والرماح والسهام والنبال . كان ينفق قوت آبائي على الجواري والشعراء والمغنين . كان يعرض ذاته وهيبته ووحشيته وكبرياءه فوق المنبر وفي المسجد وفي مواكبه البدوية المنطلقة من القصر الى المصلّى ، ومن المصلّى الى القصر ، ومن هذا القصر الى ذلك القصر ، ومن مخدع هذه الجارية الى مخدع الجارية المنافسة الأخرى . كان يحارب ذكاء آبائي وحرياتهم بالمشايخ وبالآيات والأحاديث ، وبالأنبياء ، وبالسلف ، وبالقبور .

قرأت عن هارون الرشيد القديم هذا ، فامتلأت غضباً على التاريخ وخوفاً منه ، واحتقاراً له . تعذبت حزناً على آبائي ورثاء لهم . صرت ارتجف من التفكير في الالتفات اليهم او القراءة والتحدث عنهم او الإنتساب اليهم لأني قرأت عن هارون الرشيد القديم هذا .

اصبحت اخاف بلا حدود ان يجيء هارون الرشيد الجديد بمجيء الدولة

العربية الواحدة الكبرى. ان يجيء هارون الرشيد الذي سوف يجيء – اذا جاء – زاحفاً موكبه البدوي، زاحفة خصائصه واخلاقه البدوية فوق كرامة أبنائي وحريتهم وشرفهم وذكاهم ورضاهم وصدقهم وامنهم ورفضهم وشجاعتهم وكل حياتهم – تذلهم وتقهرهم وتسرقهم وترهبهم وتضللهم وتسوقهم، وتكذب عليهم وتكذب بهم، وتقامر بهم وتقامر عليهم – بكل ما في الحضارة من قوة وخداع واغراء وبريق وبراعات وضجيج وعطاء ومحاباة للسخفاء والسفهاء ولكل الطغاة والمقامرين ولكل الفاسقين بالمنابر والكلمات وبالشعارات والمذاهب.

اصبحت أخاف بلا حدود ان يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يقاتل بابنائي، لن يقاتل ابنائي بالسيوف والرماح والسهام والنبال كما كان هارون الرشيد القديم يقاتل آبائي ويقاتل بهم، بل بكل اسلحة الحضارة – والذي لن ينفق خبز ابنائي ورضاهم على الجواري والمغنين والشعراء كما كان هارون الرشيد القديم يفعل بآبائي، بل على المغامرات والمؤامرات وعلى الجيوش التي لن تقاتل عدواً، واذا قاتلته او قاتلها فلن تنتصر. وعلى اجهزة المخابرات والمباحث والتجسس، وعلى الرشوة لشراء الحكام، لشراء المذاهب والمواقف، لبيع المواقف والمذاهب. انها الرشوة التي لن تستطيع كل كبرياء دولة هارون الرشيد القديم ان تملكها او ان ترشو بها.

اصبحت أخاف أن يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يشبع جوعه الى العرض ان يعرض كبرياءه وارهابه لذكاء وشجاعة ابنائي – ان يعرض ذلك في المسجد وفوق المنبر، وفي المسيرة من القصر الى القصر، ومن الجارية الى الجارية الأخرى، ومن الشراب الى المصلى، ومن المصلى الى الشراب كما كان هارون الرشيد القديم يفعل، بل ان يرقص فوق كل الأخطار والحماقات والآلام والمخاوف، ان يرقص لها، ان ترقص له، ان يحدو لها، ان تحدو له، ان يخطب عنها، ان يأمر بأن يخطب عنها؛ ان يعابث اظفارها وأنيابها، ان يضع يده في اشداقها، دون ان يكون قادراً ودون ان يكون صادقاً ودون ان يكون مريداً لما يفعل، لمعنى ما يفعل. انه الكائن الأحمق الذي لا يستطيع ان يكفّ عن التحرش بالخطر ثم لا يستطيع مقاومته او يريد مقاومته حينما يثيره تحرشه به.

أصبحت أخاف ان يجيء هارون الرشيد الجديد الذي لن يحارب ذكاء

ابنائي وحرياتهم بالمشايخ وبالآيات والأحاديث ، ولا بالأنبياء والسلف الصالح ، ولا بالقبور كما كان هارون الرشيد القديم يفعل بآبائي ، بل بكل موهبة الحضارة وفنونها وذكائها واغراءاتها ومذاهبها وغواياتها الهائلة.

٩

ليس الناس هم الذين اقاموا الدول والامبراطوريات الكبرى ، الذين فكروا فيها أو ارادوها ، الذين ساقوا انفسهم الى السجون والمعتقلات والحروب ، ليموتوا قتلاً وتشويهاً ، الذين فكروا في تشييد السجون والمعتقلات والمعابد، الذين ارادوا تشييدها او اقتنعوا بمزاياها الوطنية او الدينية او الاخلاقية ، الذين ارادوها او ابتكروها ليقهروا بها حياتهم وذكاءهم وحرياتهم .

ليس الناس هم الذين اقاموا الدول والامبراطوريات الكبرى ، الذين ارادوها واقتنعوا بمزاياها .

ان القياصرة والاباطرة ، وكل الطاحنين والحاشدين للبشر هم الذين اغتالوا باقامة الدول والامبراطوريات الكبرى ، ثم ذهبوا يسوقون الناس بكل اساليب الموت والتعذيب لكي يقيموها ، لكي يتعذبوا بها اذا قامت . الناس يتعذبون بتسخيرهم لاقامة الدول والامبراطوريات الكبرى ، ثم يتعذبون بها بعد ان يقيموها ، كما انهم يشقون باقامة السجون والمعتقلات وفي صناعة الاسلحة وكل وسائل التعذيب والقهر ، ثم يشقون بها بعد ان يقيموها ويضعوها بان يحكم عليهم بدخولهم اليها او بان يقتلوا بها في الحروب وفي غيرها من اساليب القتل المختلفة .

الطغاة يجدون شهوة في ان يكونوا فوق امبراطوريات ودول كبرى كما يجد صاحب المال شهوة في ان يكون ماله كثيراً ، وصاحب القطعان شهوة في ان تكون قطعانه كثيرة ، وصاحب العبيد والجواري والمحظيات شهوة في ان يتعاظم عدد عبيده وجواريه ومحظياته . وكما يجد الطفل المدلل شهوة في ان يكون له اكبر العدد من اللعب وان يتفوق على كل انداده واصحابه في عدد لعبه .

كان الطغاة يجدون دائماً ضخامتهم وضخامة مجدهم من ضخامة الدولة التي يحكمون . انهم يشعرون انهم كبار بقدر ما تكون الدولة التي يقفون فوق

كرامتها كبيرة . يقيسون حدود مجدهم بحدود دولتهم . يشعرون بالضآلة وبالصغر اذا كانت دولتهم صغيرة مهما كانوا مغرورين متكبرين . لا يرون انفسهم خارج دولتهم . لا يرون دولتهم خارج ذواتهم .

ان قصة الدولة الكبيرة او الامبراطورية الكبيرة لم تكن قصة الناس او فكرتهم أو أملهم . كانت دائماً قصة رجال يريدون ان يكونوا كباراً او طغاة على حساب الناس او بتصاغر الناس ، لا من اجل الناس .

الناس لم يفهموا في أي وقت ان ضخامة الدولة تعني ضخامتهم . لم يفهموا هذا ولم يفكروا فيه في أي وقت من الأوقات وجدوا دائماً انهم يتحولون الى حطب يشعله الطغاة لكي يصنعوا من رمادهم دولاً وامبراطوريات كبرى ، لكي يتعذبوا بدفع اثمانها وتكاليفها ثم بدفع اثمان وتكاليف المحافظة عليها ، ثم بدفع اثمان وتكاليف طموحها وطموح طغاتها .

ان تشييد الامبراطوريات والدول الكبرى هو التعبير البذيء الباهظ عن طموح الطغاة والغزاة . انه اسلوب عدواني ، انه اسلوب من أساليب القنص . انك ستشعر بنشوة الانتصار والتفوق كلما كان صيدك اكثر .

ان الأعداد الكبيرة في الدولة او الامبراطورية تتحول الى اعداد مساوية في حسابات الثورة والقوة والمجد في مشاعر الغزاة والطغاة . انهم يشعرون ان تعداد الدولة أو الامبراطورية ليس تعداداً لها ولكنه تعداد لذواتهم ، وان ضخامتها ليست ضخامة لها ولكنها ضخامة لكبريائهم ، وان اتساعها ليس اتساعاً لها ، ولكنه اتساع لمغامراتهم وتحدياتهم ومنافساتهم وطموحهم ، وان دويها ليس محسوباً لها ولكنه محسوب لطاغيتها ، وان اسمها ليس اسمها ، بل اسم طاغيتها .

ان الدولة او الامبراطورية الكبيرة معنى من معاني الامتلاك ، من معاني الاسترقاق ، من معاني البحث عن القطيع الكبير .

١٠

كان النفط أحد اساليب عطف الطبيعة علينا ، رثاء لضعفنا . انه دموع واحزان الطبيعة تذرفها علينا باسلوب هو افضل الأساليب في ذرف الدموع

والأحزان . لقد حابت الطبيعة ضعفنا جداً ، جداً ، فـذرفت علينا أغزر الدموع والأحزان . ثم حابتنا مرة اخرى لعنف ضعفنا فحولت دموعهـا واحزانها علينا الى مادة اخرى ، الى مادة اعظم جداً من الدموع والاحزان . لقد حولت دموعها واحزانها علينا الى نفط — فالنفط ليس الا احزان ودموع الطبيعة عطفاً علينا .

كان اذن عطف الطبيعة علينا عظيماً جداً ، وذكياً جداً ، ونبيلاً جداً .

مبارك انت اذن انت يا ضعفنا .. مبارك انت . كانت احدى عطاياك هذا النفط . هذا الجنون الطبيعي الضخم .. هـذا الجنون الطيب المبارك . جُنت الطبيعة من اجلنا . جُنت من شدة عطفها علينا . كذلك جنت دول كبرى كثيرة وافتضحت في عطفها علينا مثلما جن النفط ، مثلما جنت الطبيعة .

مبارك انت اذن يا ضعفنا .

لكن يا ضعفنا ، كن ذكياً ، كن شهماً . حذار ان تفارقنا . حـذار ان تضعف يا ضعفنا . حذار ان تخفي ضعفك ، ان تخفي شيئاً من افتضاحك .

حذار يا ضعفنا ان تفارق او تضعف او تستتر . حذار ، فانت واهبنا كل هذا . حذار فانت خير لنا من كل قوة وعبقرية تجمعان علينا كل الحسد والحقد والبغضاء والخوف منا . حتى حسد وحقد وبغضاء وخوف الطبيعة . حـذار يا ضعف ، حذار .

انظر الى هذا النفط الواهب نفسه لنا بجنون . انظر ، انـه لم يهب نفسه لأحد بمثل هذا الجنون الذي وهبنا به نفسه . لماذا فعل ذلك ؟ لماذا خصنـا وحدنا بجنونه الأعظم ، باعلى مستويات جنونه ؟ لماذا ؟

لعله بذلك انما يعبر عن عطفه وعطف الطبيعة علينا رحمة بنا ، رحمـة بضعفنـا .

اذن حذار يا ضعف . حذار ان تفارق او تضعف او تستتر .

بل مزيداً ، مزيداً . زدنا ، زدنا يا ضعف لـكي نتوقع مزيداً من بركاتك ، مزيداً من العطف عليك ، من العطف علينا . مزيداً ، مزيداً منك يا ضعفنـا . يا افضل من كل انبيائنا ومعلمينا . يا أقوى من كل قادتنا وزعمائنـا وثوارنا . يا ضعفنا ، يا نفطنا ، يا ضعفنا الذي تحول نفطاً يا أنبل واقوى ما لدينـا ،

يا انبل واقوى ما فينا ، يا انبل واقوى ما في تاريخنا ، يا انبل وأقوى ما كان عند آبائنا ، يا انبل واقوى ما ورثنا عن آبائنا .

يا نفطنا ، يا أتقى من كل انبيائنا ، يا أفجر من كل أبالستنا ، يا أقوى من كل آلهتنا ، يا اكرم من كل تاريخنا ، يا أمجد من كل آبائنا .

يا نفطنا !

يا أبلغ قصيدة كتبتها أرضنا . يا أشهر كتاب عالمي عنا . يا اقسى اعلان قرأه كل الناس عن ضعفنا .

يا أقوى قصة عن عشوائية الطبيعة . يا نفطنا .

يا نفطنا ، يا نفطهم – يا نفط بعضنا ، يا نفط بعض بعضنا .

يا نفطنا الذي لم يبق نفطنا . يا نفطنا الذي لم يعن يوماً نفطنا .

ان لك يا نفطنا ذنباً ، ان لك ذنوباً . ان من ذنوبك يا نفطنا انك جئت حضاري المجيء ، حضاري الولادة والتوليد . كان مجيئك حضارياً . كانت كل اساليب واسباب مجيئك حضارية . حتى مولودوك ؛ كانوا جميعاً حضاريين .

لكنك عشت فينا يا نفطنا غير حضاري . عشت فينا عربي الأخلاق والسلوك والمنطق . اصبحت بين العرب عربياً . انك تعيش اخلاقك ومنطقك بين العرب كما يعيش العرب اخلاقهم ومنطقهم . توزع نفسك وتستهلكها وتحسها وتراها وتفهمها وتعلنها كأنك عربي الحاضر والتاريخ ، عربي المولد والعرق ، كأنك عربي ابداً . كأنك قرأت كل شعر العرب وكل تاريخهم وكل مفاخرهم وكل كتبهم المقدسة ، وحفظتها وفسرتها ، ثم فرضتها بكل معانيها على حياتك . حتى انك لتعيش اخلاق ومنطق آلهة العرب وأنبيائهم . انك لتعيش اخلاقك ومنطقك بالأسلوب الذي يفسر به العرب اخلاق ومنطق آلهتهم وانبيائهم – بالاسلوب الذي تمناه العرب اسلوباً لأخلاق ومنطق آلهتهم وانبيائهم .

لو لبست زي عربي وجسمَ عربي وتكلمت اللسان العربي ، ثم عشت حياتك كما تعيشها اليوم بين قومك العرب ، ثم عشت منطقك واخلاقك ، ثم عشت كل اساليب العدالة والنظافة والذكاء التي تعيشها اليوم في قومك العرب ، او التي يعيشها بك قومك العرب – لما شك انسان في اصالتك العربية ، في

عبقريتك العربية ، في ديانتك العربية ، في تقواك ونظافتك ونزاهتك وكرامتك العربية .

انك لو فعلت ذلك لما شك انسان في انك حاكم عربي او زعيم عربي او معلم عربي او مفكر عربي ، بل لما شك في انك نبي عربي ، في انك إله عربي ، بكل صفاته ومواهبه العربية النفطية .

لقد ولدت يا نفطنا العظيم ، يا نفطنا التافه — بقوة الحضارة ومنطقها ، ولكنك عشت وتعيش بضعف البداوة ومنطقها ، بضعف العرب ومنطقهم .

ولدت حضارياً ، ولكنك تعيش عربياً . تعيش بدوياً ، بدوياً .

ان لك يا نفطنا ذنباً ، ان لك لذنوباً . انك عربي الاخلاق ، عربي التفكير ، عربي العدالة ، عربي التوزيع ، عربي الدين ، عربي التديّن ، عربي الكرم ، عربي الحب والبغض والصداقات ، عربي الزواج والتقاليد والعلاقات .

ان لك لذنباً ، ان لك لذنوباً — يا نفطنا العظيم ، يا نفطنا التافه ، يا نفطنا الذي لا يمكن ان يكون معقولاً ولا مغفوراً في مجيئه ولا في اسلوب مجيئه ولا في اسلوب توزيعه لنفسه ولا في ممارساته لحياته او لصداقاته .

نزار قباني



الاستجواب

١

مَنْ قتَلَ الإمامْ ؟
أَلمُخْبرونَ يملأون غرفتي
مَنْ قتَلَ الإمامْ ؟
أحذيةُ الجنود فوق رقبتي
مَنْ قتَلَ الإمامْ ؟
مَنْ طعنَ الدرويشَ صاحبَ الطريقَهْ ؟
ومزّق الجُبَّةَ .. والكشكُولَ .. والمسْبَحةَ الأنيقهْ ؟
يا سادتي !
لا تقلعوا أظافري بحثاً عن الحقيقهْ
في جُثّةِ القتيل دوماً تسكنُ الحقيقهْ .

٢

مَنْ قتلَ الإمامْ ؟
عساكرٌ بكامل السلاح يدخلونْ
عساكرٌ بكامل السلاح يخرجونْ
محاضرٌ ..
آلاتُ تسجيلٍ .. مُصوّرونْ

يا ســـادتي !
ما النفعُ من إفادتي ؟
ما دمتُمُ – إنْ قلتُ أو ما قلتُ – سوفَ تكتبونْ
ما تنفـــعُ استغاثتي ؟
ما دمتُمُ – إنْ قلتُ أو ما قلتُ – سوف تضربونْ
ما دمتُمُ منذ حكمتمْ بَلَدي
عنّي تفكّرونْ ..

٣

لستُ شيوعيّاً – كما قيلَ لكُمْ – يا سادتي الكرامْ
ولا يمينيّاً – كما قيلَ لكُمْ – يا سادتي الكرامْ
مسقطُ رأسي في دمشقَ الشامْ
هل واحدٌ من بينكمْ يعرفُ أين الشامْ ؟
هل واحدٌ مِنْ بينكم
أدمَنَ سُكْنى الشـــامْ ؟
رواهُ ماءُ الشـــامْ ؟
كواهُ عِشْقُ الشـــامْ ؟
تأكّدوا يا ســـادتي !
لن تجدوا في كلّ أسواقِ الورود وردةً كالشامْ
وفي دكاكـــين الحُلَى جميعِها
لؤلؤةً كالشـــامْ
لن تجدوا مدينةً حزينةَ العينين مثل الشـــامْ .

٤

لستُ عميـــلاً قذراً
– كما يقولُ مخبروكمْ – سادتي الكرامْ
ولا سرقتُ قمْحـــةً
ولا قتلتُ نمـــلةً

ولا دخلتُ مركزَ البوليس يوماً .. سادتي الكرامْ
يعرفني في حارتي الصغيرُ والكبيرْ
يعرفني الأطفالُ والأشجارُ والحمامْ
وأنبياءُ الله يعرفونني
عليهمُ الصلاةُ والسلامْ
ألصلواتُ الخمسُ لا أقطعها ، يا سادتي الكرامْ
وخطبة الجُمْعة لا تفوتني ، يا سادتي الكرام
مِنْ رُبْــعِ قرنٍ وأنا
أمارسُ الركوعَ والسجودْ
أمارسُ القيــامَ والقعودْ
أمارسُ التشخيصَ خلفَ حضرةِ الإمامْ
يقولُ : (اللهمَّ إمحقْ دولةَ اليهودْ)
أقولُ : (اللهمَّ إمحقْ دولةَ اليهودْ)
يقولُ : (اللهمَّ شتِّتْ شملَهُمْ)
أقولُ : (اللهمَّ شتِّتْ شملَهُمْ)
يقولُ : (اللهمَّ إقطعْ نسلَهُمْ)
أقولُ : (اللهمَّ إقطعْ نسلَهُمْ)
يقولُ : (أغرقْ حرثَهُمْ وزرعَهُمْ)
أقولُ : (أغرقْ حرثَهُمْ وزرعَهُمْ)
وهكذا يا سادتي الكرامْ !
قضيتُ عشرينَ سَنَهْ
أعيشُ في حظيرة الأغنــامْ
أعلفُ كالأغنامْ
أنامُ كالأغنامْ
أبولُ كالأغنامْ
أدور كالحبَّة في مَسْبَحة الإمامْ
أعيدُ كالببغاء كلَّ ما يقولُ حضرةُ الإمامْ
لا عقلَ لي ، لا رأسَ ، لا أقدامْ

أستنشقُ الزُكامَ من لحيتــه
والسُلَّ في العظــامْ
قضيتُ عشرينَ سنَهْ
مُكوَّماً كرزمة القشّ على السجَّادة الحمراءْ
أبتلعُ البيانَ والبديــعَ والقصائدَ العصماءْ
أبتلعُ الهراءْ
عشرينَ عاماً .. وأنا يا ســـادتي
أسكُنُ في طاحونـــةٍ
ما طحنتْ قطُّ .. سوى الهواءْ .

٥

يا ســـادتي !
بخنجري هذا الذي ترَوْنَهُ
طعنتُهُ في صـــدره والرقَبَهْ
طعنتُهُ في عقله المنخور مثل الخشَبَهْ
طعنتُهُ باسمي أنا
واسمِ الملايين من الأغنامْ
يا سادتي !
أعرفُ أن تُهمَتي عِقابُها الإعدامْ
لكنَّني قتلتُ إذْ قتلتُهُ
كلَّ الصراصير التي تنشدُ في الظلامْ
والمستريحينَ على أرصفة الأحلامْ
قتلتُ إذْ قتلتُــــهُ
كلَّ الطُفَيليَّاتِ في حديقة الإسلامْ
كلَّ الذينَ يطلبونَ الرزْقَ من دُكَّانةِ الإسلامْ
قتلتُ إذْ قتلتُــــهُ
يا سادتي الكرامْ
كلَّ الذينَ منذُ ألفِ عـــامْ
يَزْنُونَ بالكلامْ .

الممثلون

١

حينَ يصيرُ الفِكْرُ في مدينةٍ
مُسَطَّحاً كحدوة الحصانْ
مُدوَّراً كحدوة الحصانْ
وتستطيعُ أيُّ بندقيةٍ
يرفعها جَبانْ
أن تسحقَ الإنسانْ
حينَ تصيرُ بلدةٌ بأسرِها
مصيدةً ، والناسُ كالفئرانْ
وتصبحُ الجرائدُ الموجّهةْ
أوراقَ نَعْيٍ تملأُ الحيطانْ
يموتُ كلُّ شيءْ
يموتُ كلُّ شيءْ
الماءُ ، والنباتُ ، والأصواتُ ، والألوانْ
تهاجرُ الأشجارُ من جذورها
يهربُ من مكانه المكانْ
وينتهي الإنسانْ

٢

حينَ يصيرُ الحرفُ في مدينةٍ
حشيشةً .. يمنعها القانونْ
ويصبحُ التفكيرُ كالبَغاءِ .. واللّواطِ .. والأفيونْ ..
جريمةً يطالها القانونْ
حينَ يصيرُ الناسُ في مدينةٍ

ضفادعاً مفقوءةَ العيونْ
فلا يثورونَ ولا يشكونْ
ولا يغنّونَ ولا يبكونْ
ولا يموتونَ ولا يحيونْ
تحترقُ الغاباتُ ، والأطفالُ ، والأزهارْ
تحترقُ الثمارْ
ويصبحُ الإنسانُ في موطنه
أذلَّ من صرصارْ ..

٣

حينَ يصيرُ العدلُ في مدينةٍ
سفينةً يركبها قرصانْ
ويصبحُ الإنسانُ في سريرِهِ
محاصراً بالخوف والأحزانْ
حينَ يصيرُ الدمعُ في مدينةٍ
أكبرَ من مساحةِ الأجفانْ
يسقُطُ كلُّ شيءْ
يسقُطُ كلُّ شيءْ
ألشمسُ ، والنجومُ ، والجبالُ ، والوديانْ
والليلُ ، والنهارُ ، والبحارُ ، والشطآنْ
واللهُ ، والإنسانْ .

٤

حينَ تصيرُ خوذةٌ ..
كالربّ في السماءْ
تصنع بالعباد ما تشاءْ
تَمْعَسُهُمْ ..
تهرُسُهُمْ ..

تميتهمْ ..
تبعثهُمْ ..
تصنع بالعباد ما تشـــاءْ
حين يصيرُ الحـكمُ في مدينةٍ
نوعاً من البغـــاءْ
ويصبحُ التاريخُ في مدينةٍ
ممسحةً .. والفكرُ كالحذاءْ
حين تصيرُ نسمةُ الهواءْ
تأتي بمرسوم من السلطانْ
وحبّةُ القمح التي نأكلهـــا
تأتي بمرسومٍ من السلطانْ
وقطرةُ الماء التي نشربُها
تأتي بمرسومٍ من السلطانْ
حـــين تصير أُمّةٌ بأسْرها
ماشيةً تعلفُ في زريبة السلطانْ
يختنقُ الأطفالُ في أرحامهمْ
وتُجهِض النساءْ
وتسقطُ الشمسُ على ساحاتنـــا
مشنقةً سوداءْ.

٥

متى سترحلونْ ؟
ألمسرحُ انهارَ على رؤوسكمْ
متى سترحلونْ ؟
والناسُ في القاعة يشتُمُون .. يبصُقُون
كانتْ فلسطينُ لـكمْ
دجاجةً من بيضها الثمين تأكلونْ
كانت فلسطينُ لـكمْ
قميصَ عـــثمانَ الذي به تتاجرونْ

طُوبى لكُمْ ..
على يديكُمْ أصبحتْ حدودُنا
من ورقٍ .. فألفُ تشكرونْ
على يديكُمْ أصبحتْ بلادُنا
إمرأةً مباحةً ..
فألفُ تشكرونْ .

٦

حربُ حزيرانَ انتهتْ ..
فكلُّ حربٍ بعدها ، ونحنُ طيِّبونْ
أخبارنا جيّدةٌ
وحالُنا – والحمدُ لله – على أحسنِ ما يكونْ
جمر النراجيل على أحسن ما يكون
وطاولاتُ الزهر .. ما زالتْ على أحسن ما يكونْ
والقهوةُ المُرَّةُ بالهال على أحسن ما يكونْ
والقمرُ المزروعُ في سمائنا
مدوَّرُ الوجه .. على أحسن ما يكونْ
وصوتُ فيروزَ من الفردوس يأتي .. (نحنُ راجعونْ)
تغلغل اليهودُ في ثيابنا ..
و(نحنُ راجعونْ)
صاروا على مترين من أبوابنا
و(نحنُ راجعونْ)
ناموا على فراشنا
و(نحنُ راجعونْ)
وكلُّ ما نملك أن نقولَهُ
« إنّا إلى اللهِ لراجعونْ »

٧

حربُ حزيرانَ انتهتْ ..
وحالُنا – والحمدُ لله – على أحسنِ ما يكونْ

كُتّابُنا على رصيف الفكر عاطلونْ
من مطبـــخ السلطان يأكلونْ
بسيفه الطويل يَضْرِبونْ
كُتّابُنا .. ما مارسوا التفكيرَ من قرونْ
لم يُقتَلوا ..
لم يُصلَبُوا ..
لم يقفوا على حدود المَوْت والجُنُونْ
كُتّابُنا . يحيونَ في إجازةٍ
وخارجَ التاريخ يسكُنُونْ ..
حربُ حزيرانَ انتهتْ ..
جرائدُ الصباح ما تغيَّرتْ
الأحرفُ الكبيرةُ الحمراءُ .. ما تغيَّرتْ
الصُوَرُ العاريةُ النكراءُ ما تغيَّرتْ
والناسُ يلهثونْ ..
تحت سياط الجنس يلهثونْ ..
تحت سياط الأحرف الكبيرة الحمراء .. يسقطونْ
ألنـــاسُ ، كالثيران ، في بلادنا
بالأحمرِ الفاقع يُؤخذونْ .

٨

حربُ حزيرانَ انتهتْ ..
وضاع كلُّ شيءْ
الشرفُ الرفيـعُ .. والقلاعُ .. والحصونْ
والمالُ والبنونْ
لكننّا .. باقونَ في محطة الإذاعهْ
« فاطمةٌ تهدي إلى والدها سلامَها »
« وخالدٌ يسأل عن أعمامه في غزّة .. وأين يقطنونْ »
« نفيسةٌ قد وضعتْ مولودها »

« وسامرُ حازَ على شهادة الكفاءهْ »
« فطمئنونا عنكُمُ »
« عنوانُنا المخيَّمُ التسعونْ » .

٩

حربُ حزيرانَ انتهتْ ..
كأنَّ شيئاً لم يكنْ
لم تختلف أمامنا الوجوهُ والعيونْ
محاكمُ التفتيش عادتْ والمفتّشونْ
والدنكشوتيّون ما زالوا يشخّصونْ
والناسُ من صعوبة البكاء .. يضحكونْ
ونحنُ قانعونْ
بالحرب قانعونْ
والسِلْم قانعونْ
بالحَرّ قانعونْ
والبَرْد قانعونْ
بالعُقْم قانعونْ
والنَسْل قانعونْ
بكلّ ما في لوحنا المحفوظ في السماء قانعونْ
وكلُّ ما نملك أن نقولهُ
« إنّا إلى اللهِ لراجعونْ »

١٠

إحتَرقَ المسرحُ من أركانه
ولم يمتْ – بَعْدُ – الممثّلونْ .

محمد طالب محمد

عن الاسفار والحزن

١ – تاريخ

منزرعاً في الأوجه ، أغشى الطرقـــات
جئنـــا من بلدٍ مملوءٍ ناساً ،
لأبي وجهٌ حجريٌّ ، وله صوتٌ جائعْ
يتحدّثُ عن أشياء لم يرَها ؛ كالنسر وبابـــلْ
او يلهجُ بالأورادِ ، ويطلبُ ماءً
شارك في صدّ الهجمات عن الأنحاء القصوى في البـــلدِ
وتمنى أن يلحق من فرَّ لبيتـــهْ .

يعملُ – مثلَ عباد الله –
حطاباً يقتنصُ الأغصان ، ولا يفتأُ يمتدحُ الإثـل ،
وعلى عينيـــه كلالُ سنينٍ ، أمضاها في بلدٍ مملوءٍ ناســـا
وكما تنمو الأعشابُ ، رأوني ألعبُ في البابِ
وعصفنا في الأرضِ أكلنا التفاح المجدورْ
ورأينـــا بعض ينابيـــع الكبريتِ ...
جلبنا أزهاراً شوكيَّهْ ،
تشبهُ رأسَ غزالٍ ، بعناها في التّجوالْ .
– للغرباء عيونٌ ضائعةٌ – بتنا في الغاباتْ

عَرَّدْنا في المنعطفات ، وجئنا ،
ـ معنا رجلٌ ذو مِنْسَأةٍ ضيَّعناه بسوقٍ
كاد يجفُّ على طرف الصحراء ـ
.. وبنينا بيتاً ومَراحاً سيَّجناه بأغصان الإثــــلِ .
هي ذي أمي تملأ ثوباً فضفاضـــاً وتدبُّ مع الدِّيكهْ
وتُريني بعضَ الحصباء .

لم أحزنْ ، إلا أني كنتُ وحيـــداً ،
قضَّيا في بعض الأعوام ، فلا وجهاً حجرياً تُلفيــــهِ
او ما يمـــلأ ثوباً .

٢ – اغنية

يروحون تحت السماء الفسيحــــهْ ،
باشباحهم والظلال العميقة صامتةٌ .. صامتهْ
عبرتُ الشوارعَ ، غنيتُ للرائحينْ ..
وكنتُ حزيناً ، فلم أتقصَّ النهارْ ..
رحيباً يمرُّ .. (لقد جئتُ بالأمس محتفلاً بالغيــومْ ،
بلادي شتاءُ العواصفِ ، صمتُ النهار القصيرِ
وبوحُ الأغاني ..)

رأيتُكَ أمسِ ، رأيتُ انبثاق الحنينِ ،
بوجهكَ ، ما ان يبوح الشتاء ،
باسراره للوجـــوه النديّهْ ،
وينبضُ صمتُ البراعمِ ، يعبر حرشٌ صغير
وعوسجةٌ خلف بيتك ، حيث يمرُّ الرجال
وتمرح بعض الأرانب .. (أُرخي غنائي ،
اناجي انتهاءَ البحار الفسيحةِ ، في غمرات الظلام ،
وأهزمُ بعض الحقول ، وبعضَ الشوارعِ ، في غمرات الظلام ،

أطلُّ على الشارعِ الموحشِ
لعلي أراكَ ..) .. وتعوي الذئابُ الجياع ،
تنوحُ السَّمومُ ببيتي .. وأطرقُ مغترباً في الظهيره
فلا وجهكَ المتنائي اراه ،
ولا انا اسمع صوتك .

وتنفضني حانةٌ ، في أقاصي الظلامِ ،
يغنّي بها السامرون ، أغاني الحنينْ ،
لمجد التراب الذي (يتيمّم فيه المصلّون) تنبتُ فيه الكروم ،
لريح البحارِ العتيّة تفسحُ دربَ المدينه
وتنفضني ، لأثرثرَ للآسِ والشَّجَراتِ المقيمه
على ضفةِ النهر ، عن شوقي المستفيض ..
لوجهك يورق في مدنِ الموت طيباً ولقيا
وعن داركَ المستباحــــة تحت العواصفِ ،
.. عن صوتِكَ الواهنِ .

أتاني مع الفجر ، يطرقُ بابي رويـــداً ،
غريب تغافى على منكبيه الغبــــارُ ،
وأزهرَ في وجهه الضــوءُ والفرحُ الغامرُ
ونبْضُ المسافاتِ .. لكنه لم يكن أنتَ
.. أعطيتُهُ زهرةً ورغيفاً ..
.. وراح !

٣ – حزن في الطريق

ألغيتُ حضوري في الزّحمة .. في الساحات اليقظى
حيث العابرُ لا يعرفه الناسْ ،
والأضواءُ تفيضُ على الطرقِ الغبراء .
وأنا .. في غمرة اشواقي أقضي ،
في ضِعَةِ الصوتِ اللاغبِ يجتازُ الليلْ

ويناجي أرجاء الحُلُم ِ الميّت .
وأنا .. لم تعرفْني حين تلاقينا سَحَرا
والقرية ُ غنّتْ لبهائكَ .. طاف النور
في داري .. طاف على المعبرِ والاشجارْ ،
ونأيتَ ولم تعرفْني .. يا للمجـدْ !

٢

يوجدُ في قارعة الدربِ بناءٌ فارهْ
وشجيراتٌ تنمو وتموتُ مع الصيف بقربـهْ .
يستوقفني ما أن أذهبَ ليلاً للمقهى ،
شبّاكانِ وبابٌ أخضر .
وأناسٌ يمضون بعيداً في أعماقِ المُدُنِ .
قيلَ : وليٌ أعيتْهُ «عصا التسيار» فألقاها ، وهموم الناسْ ،
واستُشهدمن وجدٍ وحنينٍ لله ؛ تصلي ريحُ البحرِ عليه كلَّ مساءٍ ،
وحصا الأرضِ .
لكني .. داهمتُ رحيلَ الناسِ وضعتُ
في أوجههم .. في انحاء الأرض .

لستُ أنا اولَ من يبست عيناهُ من الأسفار ، ولم يأتِ ،
أو أضناه البحرُ ، وساقتْه صوى الصحراء الغُبْرُ .
ضيَّعتُ حقيبتي السوداءَ بخانٍ في بلدٍ ما في الشّرقْ
ونسيتُ بـ « صحنِ الغوثِ الأعظمِ » مسبحتي
وتمايلتُ قليلا في روضته .. ورقصت أمام الناسْ ،
في حُلُمٍ .. في جَذلٍ عارمْ
ورحلتُ ، أكلتُ الكمأة ، لم ألقِ «عصا التسيار» وأمجادُكَ في رأسي :
« الناس سكارى يومَ الظمأ الأعظمْ
يُوحى في جبلٍ أوغارٍ لنبي ،
وجهنمُ نارٌ سوداءُ وأحجار
والأرضُ أُعِدّتْ لي ، كي يضربَ فيها وجهي .»

٣

هل أحزنكَ الإعياءُ النابعُ في وجهي ؟
لا يمكنُ أن أبقى أبداً ،
أستوقفُ حلمَ اللقيا .
(مَن باتَ ببابي إبّانَ رحيلي ؟
ليُخلِّفَ ما يتركه النازحُ من جوفِ الصحراء .)
لم أطلبْ منكَ سوى أني أبكي ،
في ضِعتي !

٤ — سيرة

كان يسير على هيئة غابــهْ
محتفلاً بالشمس وبالميلاد وبالعقمِ
لم توهنْهُ سفارٌ .. كان على هيئة غابهْ
يستوقد في الاشتاء كثيراً من أعوامهْ
ويطلُّ على النهر يصيد السمكَ صغاراً في سلّتهْ
أبصرني في ليلة صيف أتنزّهُ في بابي
وتقاطعنا يوماً في دربٍ ، حيّاني .. ومضى ..

ذو وجهٍ أصحرَ ، يقبعُ في حُلمٍ داكنْ ،
عن أرضٍ تولد في الشفق الغربيّ ، بظاهر بيتهْ
وتغصُّ باعشابٍ وحشيّهْ
ذو وجهٍ ، لا يمكن ان يبصرَ يوماً ،
الا في سوقٍ مظلمةٍ ، يبتاعُ الخبزْ ،
او خلف وجوه الناس ، يصلي في المسجدْ ،
ويرود غمار الحزن ، بعيداً في أرجاء رؤاهْ .
عيناه عبورٌ في يومٍ موحشْ
لموانىءَ تعتو فيها ريحٌ نكبـــاءْ
تتفجر من جوف الظلماتْ !

أبصرَني .. وتحدثنا عن موت الأعشابْ ،
أعطاني فلساً مثقوباً .. وكتاباً ،
عن حُرَفِ الناس ، وعن غَرَبٍ ينمو ،
حول ينابيع الماء ، بأرضٍ لا أعرفها .

حين رأى أمتعتي تخترقُ الشارعْ
أطلق عينيه الجامحتين ، فأمسكني .
قال اذهبْ في هذا الدربْ .
وأسرَّ ليَ الاسرار الكبرى ،
لكنّي لم أرَ وادي الغَرَبِ المغبرّ ..
ولم أرَهُ بَعْدُ .

٥ – هرب في يوم ما

مخموراً في إحدى مدنِ الشرقِ أطوفْ
هزمتني أوبئةٌ ومخاوفُ شتّى
في ليلٍ يصطادُ العابرَ من أطرافــهْ
في الاسبوعِ الفائتِ أوشكتُ بأن اسقـطَ في بئرٍ ،
حين عبرتُ حقول القنّب والخشخــاشْ
ورتعتُ بعيداً في الصّمتِ ،
إيذانــاً بمهادنة الغابات وبوّابات المدُنِ .
أخشى ان أوجد ملقى تحت الأشجــارِ ،
– في فجر خروجِ الحكمةِ من شَفتَيْ رجلٍ أصلَعْ
يتسكّــع في الابراج ويبحث عن موتِ الأرضِ –
ثملاً يركلني السّارُون الى مجد الفجرِ .

ألفــاني أقطنُ في بيتٍ هرمٍ ، تحتَ سماء اللهِ ،
تحيا فيه امرأةٌ وأصيصٌ
أجلسُ في عتبته أنظرُ للرائحِ كل صباحٍ
محتدماً في الأوجهِ . قال : متى جئتَ ،

فتشت مواخير البلدةِ والحاناتْ
بحثاً عن وجهكَ بين ألوف الأبوابِ .
وبكينا حين تذكرنا أعوام الهجرهْ ،
كان حزيناً يرســمُ في التربة عينــاً ،
وخطوطاً تمكثُ في أسفلها .

أبحرتُ مــع الأغرابْ ،
في صفَرٍ من عام الاحزانْ
ومررنا بموانئ مهجــورهْ ،
وكثيرٍ من جُزر المرجانِ ، وبعنا للبحرِ أغانينــا
وتراءينـــا في الآفاق .. رسونا قرب الأسوار الحجريّــهْ ،
لحدود الدنيا ، وتلـّفحنا بالريح .. وكانَ السفَرُ .

تقطنُ فيه امرأة وأصيص يَنْأدُ فيه الزهرُ صباحــاً ،
منحدراً ، لمسالكَ شقـّتْها أقدام النائـــينَ أُغادرُ ..
.. في كفــي صرّةُ أثوابي
وبــذورٌ كنتُ سأزرعها في حــوش الدّارْ .

٦ — غزاة

قــال الغرباءُ : رتاجُ البوّابةِ مخلوعٌ
حين غزتْــكم أحزانُ الآتين ، وبعضُ سرايا تعبى
كانتْ تجتاحُ الغربةَ والأوحـــالْ
تأكلُ خيلاً وبغالاً .. عبرتْ « جيحونَ » شتـــاءً
أفنتْ قططَ الوديانْ .
قال الغرباء : طريقُ العالمِ مقطوعٌ ..
هدموا الآبارَ .. غزوا « نيسابور » تراموا في البلدانْ ..
قتــلوا بعض الشحّاذينَ ببابِ اللهْ .

هـــذا رجلٌ آتٍ من يومٍ ما

شاهدَ عظمـاً مطروحاً في دربٍ محروثْ ،
وزروعاً دِيستْ بسنابكِ خيلٍ ،
وامرأةً تبـكي .

نزلوا في الساحةِ .. كانَ صهيـلٌ
وغناءٌ عن وطنٍ أهلكه المَحْلُ ، وماتت أزهارُهْ .
كانَ لهم أطفالٌ ونسـاءُ ،
ووجوهٌ متعبة تبحث عن نهرٍ .
في الصبحِ نأوا .. تركوا بضعَ مواقـدْ
وبقايا سَفَرٍ مجنونٍ ..

٧ – لي

خائباً أتخطّى شوارعكِ المغلقـهْ
عصر يومِ الوصـولْ ،
حيثُ يترُكُ العابرون مواقـدهم للرياحْ
ويناجون بَدْرَكِ بالأغنيـاتِ الصغيرهْ ،
ويروحونَ ،
دوني تعيش الحقـولُ التي لا تفيءُ ،
والقرى ، ومناسكُ جوعِكِ ، والأمسياتُ الوضيعـهْ ،
وجميـع كوى الدار .. مبغى ، ووجهٌ سجين ،
في أزقّتكِ الصاخبـهْ .

جـاءني من أقاصي حبوري وغنّى ،
عن شتـاء الجنوبِ الكئيبْ ،
وعن الحزنِ في ظلمـاتِ المقاهي
والأقاحي .. ورؤيا نهـارٍ قصيرْ ..
مات خلف المدينـهْ .

هذه غربةُ الريح في واجهات الخليـجْ

وأنينُ الضُّبَاحِ المهــاجرِ تحت القمرْ
وانطارُ الطريق الذي لم يعــدْ تحت خطوي ..
لا تُغَنِّ لنـــا ،
عن جنونِ البحـــارْ ،
والدروب التي أتواجــدُ فيها مع الراحلـــينْ ،
والنهارات تُغربُ في الأرضْ ..

٨ – ترف العقم

أرني الريحَ ، وبعضَ الــبررَهْ
وأنا أرفو ثوبي .. وأقيـــلُ لأحلمَ بالأسفارْ
أو أركنُ في الظلّ أداعبُ أوراقَ السّـــدرِ
ما عدتُ أُطيقُ مشاهدة الغبرهْ .
علّقتُ على الحائط صورة ذئبٍ يشربُ ماءً ،
أعطانيها رجلٌ عادَ من الحجّ ووزّعَ ما في بيتـــهْ
من أمتعةٍ مشؤومهْ .
لم آبهْ لغسيلٍ ماتَ ، وديكٍ دهستْهُ المـــاره
ومُغَنٍّ مشنوقٍ في غرفتِهِ كانَ يُحبُّ السّمَـــكا .

يحلو لي أن أكتبَ بعض الأشعـــارْ ،
في الحبّ وفي الموعظةِ ،
او أرثي بعض « الفقراء ».
يحلو لي أن أُسهبَ في إغراء الناسْ ،
للنزهـــهْ .

٩ – على قارعة الصمت

حين انصرف النـــاسُ ، أتيت
لم أسمعْ وقع خطاهم في الدرب
شِسْعي وحـــلٌ

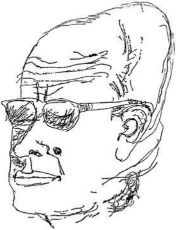
ورِدائي أحقادُ الليـــل
أهديتُ لوجهكَ أشـــواقي
ورتعتُ بأحزاني .

لم يأتِ غريبٌ .
.. خلف قرى الصمت،
تنســـلُّ قوافلُ لا تعبأُ بالنجـــوى
ويسيلُ النهرُ ؛ سلاحفُه تستقبلُ شمسَ صبـــاحْ ،
وصباحٍ .. مرَّ شتاءٌ . لم يأتِ غريب .
والنهرُ ؛ سلاحفُهُ ماتتْ .. جفَّتْ في الشمس .
لم تبقَ لنا أحقاد .
لم يأتِ غريب .
في داري يكتظُّ القانتُ بالأحزان
يتمنّى ان تأتي قططُ الغابِ ،
تمـــوءْ
في الوحشـــةِ .. تحتَ الشبّاكِ السابحِ في الظـــلْ

من أين يمرُّ الشحاذُ الأعمى ؟
لم أتصدّقْ ، منـــذُ شتاءينِ بشيءٍ
سأغنيه أغـــانيَّ التّعبى ، وأروح ؛
لا نعرُفــــه .
مُذْ موتِ سلاحفِنا ألفيناه ببابِ القريةِ يستجـــدي
ويغنّي للموتى في الليل
أشعاراً لم تنبضْ بخيالْ
وأنا ، في الدار ، أسامرُ صوتَـــهْ
لا أعرُفـــهُ .

هـــلْ أنتَ غريبْ ؟
أعيتْني الرّغبَةُ للبثّ .. تعـــالْ .

نجيب محفوظ



الادب ، الحرية ، الثورة

الشوارع في القاهرة مزدحمة بالناس . الجباه سمراء بلون الأرض . الخطوات تتصادم ، تلتقي ، تفترق . وعلى الجباه يستريح سؤال قلق ، وعلى الشفاه سؤال قلق . اسئـلة صغيرة وكبيرة تقرؤها بوضوح مرة ، ومراراً تغيب عنك .

كنت ، أنا كذلك ، أبحث عن الأسئلة . كان السؤال يهرب مني الى العيون (العيون سؤال واسع) ويحترق هناك .

في الصباح أو في منتصف الليل ، ستجد بين أجفانك أو تحت شفتيك هدية صغيرة من النهار ، هي سؤال جديد. منذ بدء التاريخ والانسان يتلقى الهدايا. احياناً كثيرة تشعر ان الزمن كله سؤال والتاريخ سؤال والله سؤال والانسان سؤال . احياناً اخرى تجد ان الاجوبة أسئلة ثانية . اصبح السؤال مسافـــة يتدحرج عليها هذا الانسان ، والمسافة بعد لا حد له .

اتصلت **بعائدة الشريف** . سألتها ان تتفق مع **نجيب محفوظ** على موعـد . **عائدة** تعرفه جيداً . عملت معه سبـع سنوات في **المؤسسة المصرية** العامـــة للسيـــنما .

في المساء التقيت بها . حدثتني عنه قالت : انه رجل منظم ، دقيق جـداً ليس في العمل وحسب ، بل كذلك في البيت والطريق ، في لباسه ومشيته ، في طعامه . وضحكت قليلاً . قالت لي : احياناً كنت اغـير له وضع الاقلام على مكتبه او الاشياء التي يستعملها للكتابة . كان ينزعج كثـــيراً ويغضب . وان

لعبت بأي شيء (قلم ، ورقة مثلا) فيما هو يكتب كنت الاحظ انه لم يعد يقدر على الكتابة واشعر أنه استاء . إنه دقيق أكثر من اللازم ... سألتها ان كانت سعيدة بمعرفته . قالت : أحياناً لا أصدق اني أعرفه . كنت في صغري معجبة بأدبه وأحلم ان اقابله أو أراه . اليوم عندما احدثه اتعجب من نفسي .

قرأت لها بعض الاسئلة التي كنت قد هيأتها ، قالت : هذه الاسئلة أجاب عنها مراراً .. لا يجب ان يُسأل السؤال نفسه مرتين . مزقت أسئلتي وقررت أن أتحدث معه حديثاً عادياً عن كل شيء .

فجأة انتقل الحديث الى موضوع آخر . تحدثنا عن ثورات الطلبة والسينما والشعر . سألتني عن **أدونيس** أسئلة كثيرة ، ولا اعرف ان كنت قد أجبتها إجابة صحيحة . تحدثنا عن الحب والجنس ، وعندما بدأ التعب يتسرب الينا ، بدأنا الحديث عن فلسطين . لم أعد أتذكر ما دار بيننا ، كنت احياناً اشعر اني بحاجة الى البكاء ، واحياناً اخرى الى الصمت .

في اليوم الثاني قابلنا **نجيب محفوظ** .

* في حديث ماض تقول: ان الثورة في مصر ١٩٥٢ جعلتك تعيد النظر فيما تكتب مضموناً وشكلاً ، فهل يصح هذا بالنسبة الى عام ١٩٦٧ بعد الخامس من حزيران ؟ هل الخامس من حزيران دعوة لادب جديد ؟

نجيب محفوظ : إجابتي ستكون تخميناً . الاجابة الصحيحة عن هذا السؤال هي في متابعة الادب الذي انتج بعد الخامس من حزيران . والجواب القاطع هو في الادب الذي سيكتب . لكني أعتقد ان اية حادثة كبيرة لا بد من ان تترك اثرها في الاعصاب وفي الإحساس عند الناس جميعاً ، وبالتالي في الفن . هذا امر لا شك فيه .

انا شخصياً كتبت بعض الاقاصيص في جريدة « **الاهرام** » . قيل ان فيها شيئاً جديداً لم يكن موجوداً من قبل ، لكني لا استطيع ان احكم على نفسي . الذي اعرفه هو انني كتبت .

اعتقد ان الادب يجب ان يتغير ، ومن الطبيعي ان يتغير بعد هزة عنيفة كهذه الهزة . لكن بماذا يبدأ ؟ وكيف ؟ هذا عائد بالطبع الى موقف الفنانين . هناك شخص تضربه على رأسه فيضربك على رأسك . شخص آخر يقول هذا

غير مهم . شخص آخر يغرق في الحزن ، وآخر ينطوي على نفسه . هذه المواقف كلها ردود فعل لشيء واحد . السؤال الآن ماذا سيغلب على أدبنا ؟ طبعاً انا أتمنّى ولا أؤرخ : ان على الادب ان يعكس أثر الخامس من حزيران بشكل ثوري ايجابي كشفي . يفحص بعمق عيوبنا التي ادت الى هذه النكسة ، وفي الوقت نفسه ، يثير الهمم ويدفع الانسان العربي الى الخروج من هذه الدوائر .

* هذا يعني انك لا تعتبر الحرب حدثاً خارجياً وقع صدفة ، انما كانت تجسيداً لما كان يعتمل في الداخل ؟

محفوظ : لا مكان للصدفة هنا . سواء في الحرب او غيرها .

* كانت الحرب ، بمعنى آخر ، نتيجة ؟

محفوظ : نتيجة لعوامل كثيرة جداً .

* والهزيمة ؟ كانت نتيجة كذلك ؟

محفوظ : بعضها نفسي . بعضها اجتماعي . بعضها سياسي . تفاعل العوامل كلها مجتمعة ، فيما بينها ، انتهى في تكثيف العمل الاخير واعطائه مكانته في التاريخ . الهزيمة لم تكن صدفة . . أنا لا أتذكر أن هزيمة حصلت في التاريخ كان يمكن ان يحل محلها نصر .

* هل تعتقد ان الادب الروائي العربي كان يحدس بالخامس من حزيران ؟

محفوظ : انا اعتقد ان بعض الأدب على الاقل كان عنده هذا الحدس .

* وبالنسبة اليك ؟

محفوظ : لست اريد ان اتحدث عن نفسي . دعنا نقل ان بعض الأدب كان فيه احساس ملموس بهذا المصير . واذا كان الأدب قبل النكسة لم يحصل له مثل هذا الحدس ، فهذا يعني انه بحاجة الى نكسة ليستيقظ . واذا كانت النكسة أتت مفاجئة له ، فهذه شهادة على الأدباء ، لن يغفرها لهم التاريخ ، وهي دليل على انهم كانوا من ضمن الخونة .

* تقول : ان الادب بعد الخامس من حزيران يجب ان يكون ادباً ثورياً . اود ان اسألك عن ثورة الاديب كيف تبدأ ومن أين ؟

محفوظ : ليست ثورة الأديب منفصلة عن المصنع ولا عن الحقل ولا عن المكتب السياسي . انها متصلة مع الثورات كلها (ثورة العامل والفلاح والسياسي)

وهي تبدأ في قلبه أولاً ، وفي تفاعله مع الناس ثانياً . تبدأ في احساسه التنبؤي الطبيعي الذي لا أعتقد أن فناناً يستحق هذا الاسم خال منه ، لان الفنان الاصيل كالحيوان : كالعصافير والفيلة والنسور التي عندما تحس بخطر محدق تصدر بالغريزة اصواتاً خاصة معلنة للملأ أن خطراً ما آت . والفنان اذا لم يكن عنده هذا القدر من الإحساس العام الذي يجعله ويجعل أدبه في مستوى النبوءة ، متضمناً دعوة الى يمين او يسار او امام ، تكون أجهزته كلها مختلة .

من هنا تنطلق ثورة الأديب . إنها النبوءة والنداء .

* اذن انت تفترض النبوءة في العمل الادبي ؟

محفوظ : نحن نسمي هذا الشيء تنبؤاً . قد يكون هناك شيء من المغالاة . الفنان في الواقع لا يتنبأ ، وانما يحسن الرؤيا ، رؤيا الواقع . ولا شك ان الواقع الذي يؤدي الى الخامس من حزيران هو واقع انهزامي فيه من عوامل الانهزام ما يجعل الكاشف عنها في موقف المتنبىء . لكنه في الحقيقة ليس هنا ، نبياً . انه يرى الواقع وحسب . يراه بوضوح تام .

* لكن ألا يصطدم الذي يود ان يكوّن رؤيا واضحة وأن يكون جريئاً وثورياً ، مع السياسة الحالية في العالم العربي ؟

محفوظ : تقصد هل يجد صعوبة في التعبير عن ذاته ؟

* مثلاً ...

محفوظ : طبعاً .. لاننا لا نستطيع أن نفصل عمل الاديب عن الدولة إطلاقاً . حتى العلم الذي كان في وقت من الاوقات يبدو انه منعزل ولا يفهمه أحد اصبح في هذا الوقت من حيث آثاره مرتبطاً بالدولة والدولة تحتضنه ، فكيف الادب ؟

وصوت الاديب صوت لا بد من أن يهز الدولة بالرضى او بالسخط . وبالنسبة الى موقفها من حرية الرأي تكون معاناته .

* لكن ألا ترى ان خسارة كبيرة تقع بين معارضة الدولة للأديب وخوف الاديب من الدولة ؟

محفوظ : هي خسارة بالنسبة الى الدولة أولاً وليست بالنسبة الى الاديب . لان صوت الاديب صوت كاشف عن الحقيقة . واذا كانت الدولة تريد ان تعرف واقعها وتعرف مستقبلها ، فالاديب يعرف ويعطي ما لا تستطيع ان تعرفه او

تعطيه جميع اجهزة المخابرات . بينما اذا كتمت الدولة هذا الصوت ، فلن يعود عليها الا بالخسارة ، وهي هنا كالذي يضع عصابة على عينيه برضاه كي لا يرى . إنه حر لكنه هو الخسران اولاً واخيراً.

حتى اذا أراد الاديب ان يعيش كفرد في مستوى معين ربما يفيده فيه الكذب اكثر من الصراحة ، تكون الخسارة هنا كذلك واقعة على الدولة لا على الاديب .

* أقصد بخسارة الاديب ، خسارة معنوية ، خسارة من ناحية الخلق والابداع . اذ تصبح حرية الرأي في هذه الحالة غاية وليست وسيلة . وهنا تقع خسارة الاديب اذ يخسر الزمن وفعل الخلق .

محفوظ : فعلاً .. فعلاً .. انما على كل حال نحن نخرج من هذا الحوار في هذه النقطة بأن حرية الرأي شيء ضروري جداً للاديب وللادب وللدولة وللصديق وللعدو ، ولكل عاقل وحكيم .. وانه لا يخشى هذه الحرية الا واحد هو غير الحكيم . وبعده عن الحكمة يقاس ببعده عن حب حرية الرأي .

* لنرجع الى الثورة . ألست توافقني ان الثورة الحقيقية تبدأ في الانسان أولاً قبل الانظمة ؟ لقد عرف العالم العربي انظمة عديدة فهل عرف إنساناً ثورياً ؟

محفوظ : نعم عرف انساناً ثورياً . لا شك في ذلك . وأكاد أقول ان تاريخ العرب كله كان تاريخاً ثورياً . فانسان البداوة لا تستطيع ان تقول عنه انه ليس ثورياً . انه انسان موجود ، بقدر وجود كرامته وحريته وتحرره من كل سلطة تستبد به .

ثم ان تاريخ العرب كان سلسلة من الحروب المستمرة بين الحاكم وبعض المحكومين لاسباب نقدر ان نقول انها تنطلق من حرية العقيدة وحرية النظرة . طبعاً كان العصر عصر دين ، وكان الاختلاف في الرأي يؤدي الى الحروب . هذا يعني ان الانسان العربي ليس انساناً ساكناً متجمداً ، اطلاقاً . ثم ان آخر ثورة عرفها العرب كانت على الترك . وجاءت بعدها سلسلة من الثورات على الاستعمار وعلى أنظمة الحكم الفردي . لا تستطيع ان تقول ان الانسان هو هو . كان يتغير ويثور حسب الظروف والاحوال . ولا نستطيع ان نحرم تاريخه من الثورة دفعة واحدة .

* لنأخذ الفكر العربي دينياً وأدبياً وفلسفياً . هل تظن اننا اليوم نتمتع بحرية دينية اكثر من السابق ؟

محفوظ : انت تشير الى عصور قديمة نحن نسلم انها كانت تتمتع بصحة اكثر من عصورنا اليوم . لكننا يجب ان لا ننسى العصـــور الوسطى التي كانت عبارة عن تدهور ديني شنيـــع وقف فيه كل اجتهاد بحيث أصبح اي اجتهـــاد يعتبر خروجاً على الدين وبالتالي كفراً .

نحن الآن لا نـكاد نتخلص من هذا في الناحية الدينية .

* حتى من الناحية الفكرية الفلسفية ، الا توافقني ان الثوري ليس الانسان المحارب وحسب ، انما تنطلق ثورته من موقفه ازاء الحياة والقيم والانسان . كيف يمكن ان يتغير الانسان العربي ما لم تتغير نظرته الى العالم والحياة ؟ نحن نتحدث عن الثورة وقيمنا ومبادئنا ما تزال هي هي . حتى ان البعض يعتبرها مثالاً ومقياساً انسانيين . فهل تكون الثورة وهناك خط جامد ؟

محفوظ : انا اوافقك على هذا الرأي كل الموافقة . يجب ان تكـــون الخطوط كلها متوازية في الثورة . ان خطاً واحداً هابطاً ، يؤثر فيها جميعاً . انا معك في هذا الرأي .

(سمعت صوت **عائدة** : في النتاج الاخير للاستاذ محفوظ تغـــير ملموس . انه ادب صريح للغاية . من خلال بعض قصصه نرى انه ، وهو الذي عرفنـــاه دائماً مع الانسان المتعقل ، يتجه الآن نحـــو الانسان المدفوع بشحنة من الجنون ليعبر عن رأيه ويصرخ في وجه هذا العالم وينطلـــق ، حتى اني ارى ان تصرف الاستاذ محفوظ الشخصي قد تغير . فانت تراه الآن يجلس في المقهى ، وتراه ، كذلك ، خارج البيت) .

واسأله عن ذلك :

محفوظ : تفسير **عائدة** اعجبني وانا اوافق عليه . في الحقيقـــة انا كتبت ولم أفسر ، وبكل امانة وصدق لم أكن ادرك ان شيئاً ما قد تغير بالنسبة الى اعمالي الاخيرة . ربما يكون هناك رابط بين هذه الاعمال . وعلى النقاد والقراء لا عليّ ، اكتشافه .

* هل توافقها كذلك على قولها إن تصرفك الخاص قد تغيّر ؟

محفوظ : كلا ، هذا ليس صحيحاً . عندما كنا نعمل سوية في المؤسسة لم تكن تسمح لي الظروف ان أخرج . فأنا اعمل داخل المؤسسة واعمـــل في البيت للمؤسسة كذلك . انا انطلق ، عادة ، في الصيف .

لكني اعتقد اني في هذا الوقت لا استطيع ان اكتب عملا يجعلني انعزل عن الناس مدة طويلة حتى أنهيه . في الماضي كنت انعزل ثلاث سنوات واخرج برواية طويلة . اظن انني الآن لا أملك الصبر . لا استطيع ان ابتعد عن الأحداث اليومية وعن سماعها والاشتراك فيها ، فترة كبيرة لأنجز عملاً ما .

* هل هذا عائد الى تزاحم الأحداث ؟

محفوظ : ربما . أنا لا استطيع الآن أن اتركك اسبوعاً لانصرف الى عمل ادبي .

* يقال أن يومك منظم فهل هذا صحيح ؟

محفوظ : نعم انا رجل منظم . والسبب في ذلك بسيط . انا موظف وأديب ، ولو لم أكن موظفاً ، لما كنت اتخذت النظام بعين الاعتبار . كنت فعلت ما أشاء وفي اي ساعة اشاء . لكنني في هذه الحالة ، علي ان استيقظ في ساعة معينة ، وأكون في الوظيفة في ساعة معينة . ويبقى لي من اليوم ساعات معينة . فان لم انظم هذا اليوم سأفقد السيطرة عليه .

* هل من الممكن ان تنظم للكتابة أوقاتاً ؟

محفوظ : من الممكن . بالطبع ، قد تستجيب روحك احياناً ، واحياناً لا . لكن عندما تعودها ستستجيب .

* وفي اي وقت تكتب ؟

محفوظ : اكتب عادة عند المغرب .

* كم ساعة تقريباً ؟

محفوظ : لا أذكر انني كتبت اكثر من ثلاث ساعات . وفي المتوسط اكتب مدة ساعتين .

* يومياً ؟

محفوظ : نعم ... لأني اكون قد امضيت يوماً ليس سهلاً ، استريح قليلا ثم أعود لابدأ عملا جديداً .

* حين يأتيك دفق من الكتابة ، هل تستطيع ان تقف عندما يحين الموعد ؟

محفوظ : افضل ان اقف ، آسفاً ، خوفاً على صحتي لان عليّ ان انام ولو استسلمت للكتابة سأفقد اتزاني .

• هذا النظام أصبح عادة .

محفوظ : نعم .

* هل تشرب القهوة ؟

محفوظ : اشرب ما لا يقل عن خمسة فناجين يومياً .

* هل تسهر كثيراً ؟

محفوظ : حتى الثانية عشرة ليلاً . أكتفي بخمس ساعات من النوم .

* وحين لا تكتب ماذا تفعل ؟ هل تطالع ؟

محفوظ : عـــادة أخصص ساعة للقراءة ، بعد أن أكون قد كتبت ساعتين . انا اختم بالقراءة . ثم أشاهد التلفزيون ، فهو يساعدني على النوم.

* هل تسمع الاخبار ؟

محفوظ : كلا ، أقرؤها . لكن لا أمانع ، اذا أتت عفواً .

* طبعاً تحب السينما ؟

محفوظ : كنت من عشاق السينما .

* كنت ؟ والآن ؟

محفوظ : اشاهد فيلماً واحداً في الشهر . هذا لا يعني انني لم اعد احب السينما . لكن عندما يكبر الإنسان يأخذ بأسلوب الانتقاء .

* كتبت حواراً للسينما . وأخـذت السينما بعضاً من رواياتك ، فهـل كانت هذه المحاولات ناجحـة ؟

محفوظ : ناجحة على المستوى الجماهيري .

* وهل هذا نجاح ؟

محفوظ : انه نجـــاح .. لان الناس اعجبوا بشيء ما . فلماذا تحتقر الناس كثيراً ؟

* أقصد أن الاكثرية ليست مقياساً للجمال .

محفوظ : انما هناك قدر من القيمة. هناك شيء ما استجاب له النـــاس. ربما أولى مبادىء الفن .. لا بد من ان يكون هناك شيء ما .

* هل تشاهد أفلاماً أجنبية ؟

محفوظ : نعم .

* ما هو الفيلم الذي اثار اهتمامك ؟

محفوظ : فيلم « رجل وامرأة ».

(وتسأله **عائدة** ان كان شاهد فيلم « **الحياة للحياة** » فيجيبها بالنفي ، ويأسف لذلك مع انه انتظر إعادة عرضه)

* ما هي عناصر القوة في هذا الفيلم ؟

محفوظ : الجو هو الذي اعجبني فيه . كنت فيما اشاهد واسمع وارى من ألوان وكلمات واشخاص وغير ذلك ، اشعر بالذي يراد ان يقال .

* حديثنا عن السينما يجعلني أسألك عن الجنس . العالم اليوم يهتم كثيراً بالجنس ... ألا ترى أن الجنس في كل مكان ؟

محفوظ : اذا كنت تعتبر ان العلاقة بين الرجل والمرأة هي أساس الحديث عن الجنس ، فهذا الحديث ليس جديداً في القرن العشرين . ان قرأت الادب الجاهلي وما قبل الجاهلي ، ان قرأت ادب اليونان وادب مصر ، ستجد الجنس . الجنس يملأ التاريخ . انما يختلف من بيئة الى بيئة ، ومن زمن الى زمن من حيث التعبير ومن حيث الحرية .

السؤال الملح هو : هل ان جوهر الحياة ونضارتها وعمقها ، تأتي عن طريق الاستسلام بجميع انواعه ، ام بقدر من التقشف المعقول ؟ (لا اقصد التقشف الصوفي) يخيل الي ان الانسان المتكامل انسان يحمل قدراً من الرفض وقدراً من التقشف . وهذا مما يجعله يوازن بين مطالبه الروحية ، ومطالبه الجسدية .

* وهل تربط بين الحب والجنس ؟ هل الجنس ذروة الحب ؟

محفوظ : انا لا اكاد افرق بينهما . الحب جنس . الابتذال في الجنس ، ابتذال للحب .

(تسأله عائدة عن الحب العذري)

محفوظ : ليس هناك حب عذري . هذا شيء مضحك . الحب العذري كالاستسلام للشهوات تماماً ، كلاهما سخف . كلاهما تعطيل للقوى الحقيقية للانسان . انا شخصياً لا احترم الانسان المتطرف في الرفض ، او المتطرف في الاستسلام .

* انت إذن ضد الانسان الشاذ .

محفوظ : لا اقدر ان اسميه شاذاً . هناك انسان مستسلم او رافض وانا اعتقد ان الحياة تطالبنا بشيء غير الاستسلام للشهوات ، او الاستسلام للرفض .

* وهل أحببت كثيراً ؟

محفوظ : مثل اي شخص .

* هل تصلي ؟

محفوظ : ...

* هل تؤمن بالله ؟

محفوظ : اعتقد ذلك .

* كيف توفق بين إيمانك بالله والدين ؟

محفوظ : الايمان بالله يقتدي بتطور الدين . فالدين ليس شيئاً جامداً محدوداً . الجيل الذي لا يعرف عن الحقائق العظمى اكثر من الجيل الذي سبقه ، يكون قد طعن في دينه . والجمود في الدين ، معناه منع الناس عن التفكير في هذه الحقائق الكبرى على اعتبار انها شيء مسلم به ومنته . هنا ينتهي الدين الى نوع من الطقوس لا قيمة لها . ومع استمرار هذا الجمود يصبح الدين دافعاً للشر اكثر مما يدفع للخير . لان الطقوس عندما تحاط بقدسية كبيرة تشجع على ارتكاب المعاصي . فالانسان بعملية تجارية قادر على محوها اخيراً بالصلاة والصوم والحج وما الى ذلك . الدين هنا يصبح اعتذاراً للضمير الحي عن ارتكاب المعاصي .

* تشجعني إجابتك لاسألك عن ظهور العذراء في مصر ؟ فما كان موقفك وشعورك عندما قرأت هذا الخبر ؟

محفوظ : بالحقيقة لم اصدق اي حرف .. ولم اهتم .. لي صديق غامر ليتحقق من الامر فلم يستطع العودة الى البيت الا في الصباح من شدة الزحام .. انها ظاهرة مؤسفة . ومؤسفة جداً .

(تعلق عائدة : ان الشعب يشعر انه بحاجة الى معجزة تأتيه من السماء لذلك صدق ، ظاناً انها الخلاص) .

محفوظ : انت تفسرين الحادثة من الناحية النفسية . لكننا نحن في عصر

لا يصح ان نفكر بهذه الأمور ، صحيح ان الحاجة هي معجزة والايمان معجزة، لكن هذا يعني اننا لم ندخل بعد عصر الانسان الحقيقي .

* سألت السؤال نفسه لسائق سيارة قال : والله يا استاذ ظهرت ، انا بنفسي رأيت الرجال والنساء والاطفال يبكون. لقد ذهبت ولم اشاهد اي شيء لانني وصلت متأخراً ... لقد ظهرت يا استاذ .رفيقي رآها .... ثم صمت . واوقف سيارته ، نظر إلي وقال لي بصوت خافت : يا أستاذ ، لكن حدثت أمور شنيعة ومؤسفة جداً لم يكن من الجائز أن تحدث .كان هناك زحام شديد واختلاط الرجال بالنساء وارتكبوا اعمالاً جنسية فظيعة.. طبعاً هذا لا يجوز ... ثم عاد واكمل سيره).

* احياناً تسمع ان فدائياً مات . أي احساس تشعر وما هو موقفك من العمل الفدائي ؟

محفوظ : العاطفة تكون متناقضة . حزن وفرح . اشعر بحزن عميق لأن بطلا مات ، وافرح بوجود بطل . هناك حزن لا شك فيه وفرح لا اخفيه. ان يوجد انسان يضحي بنفسه في ظروف قلت فيها التضحية . الفدائيون هم كفّارة الموقف العام .

* وتسمع عن فيتنام ...

محفوظ : الفيتنام بالنسبة الي كظهور العذراء تماماً . اشعر ازاء هذه البطولة انني اسمع خرافة . انا شخصياً لا استطيع ان افسرها . اتساءل دائماً : هذا البلد الصغير كيف ؟ ثم كيف ؟ انها غيبيات العصر الحديث . ربما تركز كل عنف الأرادة البشرية الآتية من العصور القديمة ، في هذا البلد . انا لا استطيع ان اتصور ذلك او اتخيله او حتى ان اكتبه في رواية ،لانني اشعر انني اكتب خرافات لا حقائق .

* وقضية الزنوج ؟

محفوظ : تقصد العنصرية . انها امراض في البشرية حتى الآن لم تستطع ان تتطهر منها لتكون بشرية حقة . كل انسان يخضع لعواطف العنصر عاجز عن الارتفاع عن الحيوانية . التفريق العنصري معناه جهل ، وحيوانية . لماذا يلاحق الهر الفأر ؟ طبعاً الغرائز هنا تتحكم لا العقل او المنطق . الارض واسعة ويستطيع ان يعيش فيها الاثنان معاً .

الجانب الحيواني وجانب الجهل في الانسان يدفعانه الى ان يقف هذا الموقف من المختلفين معه في العقيدة او العنصر او الرأي . والغريب في الامر ان

البعض يتهمهم بصفات خاصة . والواقع ان الاغلبيات هي المسؤولة عن اخلاق الاقليات وصفاتها . ان اخلاق الاقلية هي اخلاق الاكثرية .

انا شخصياً اعتبر ان التفريق العنصري قائم على الجهل . والجهل هنا ليس شتيمة . انه جهل في علم الانسان . فالذي يدرس علم الانسان يعرف انه ليس هناك فرق بين جنس وجنس . إنما الانسان يتميز بالارادة وبظروف البيئة وبتلاحم الاثنين . ان اي زنجي في ظروف جيدة يقود العالم .

* من حين الى آخر نسمع بثورات الطلبة ، في باريس ، في القاهرة في لندن وفي تشيكوسلوفاكيا . هل ترى في هذه الثورات نافذة مفتوحة للخلاص ام ترى العكس ؟

محفوظ : ان الطلبة او الشبان دائماً كانوا يقومون بالثورات . لكن هذه الثورات كانت ثورات محدودة . الشبان هم الذين ثاروا على الاستبداد . لكن هذه كانت ثورة طبقة . والثورة على الاستعمار كانت ثورة قومية ، قام بها الشبان القوميون .

لكن ثورات الطلبة اليوم وثورات الشبان ليست ثورة طبقة او ثورة قومية . انها ثورة جيل . وهذا يعني ان هذا الزمان قد ضاق بالزمان الذي سبقه ، إما لانه لم يؤد له الرسالة او انه عجز عن تطبيقها .

والذي يدفع هذا الجيل الى الثورة هو الرغبة في التغيير . وقيمة التغيّر الآتي من شاب هي انها تنطلق من البراءة . انه اذن تغيير بريء متطهر من كل الأغراض الشخصية الأنانية .

تبدأ بالنظر الى العالم نظرة خاصة مغرضة يوم تصير موظفاً فيه ،ويوم تصبح صاحب عمل . لكن عندما تكون طالب علم ، تنظر إليه نظرة انسانية بحتة غير مختلطة بالاستغلال او الفائدة الخاصة . لذلك تكون بريئاً وصادقاً . لذلك نأمل من وراء هذه الثورات كل الخير . ومن الممكن اذا انتشرت وتوسعت ان تخلص العالم من رواسب انسانية كثيرة وتكون بالتالي نذيراً أخيراً ضد خداع الكبار للصغار .

كان يسهل في الزمان الماضي ان تذهب الى الريف البريطاني وتبعث بالفلاح الانكليزي ليحارب في الهند وتقنعه بالحفاظ على مجد الأمبراطورية ، بهذا يكون في الواقع خادماً لأصحاب رؤوس الأموال.لكن اليوم نرى ان هذه الشعارات اصبحت سخيفة ، وقبل ان ينطق بها الانسان تنتحر على لسانه .

الرئيس **جونسون** يبعث الشــاب الامريكي الى **فيتنام** . الشاب يثور على الرئيس في قلبه . وغداً ينفجر ويرفض . البعض فعل ذلك . هناك أمثلة عديدة تدل على ان هذه الحيل التي تشبه تراتيل الكهان القدامى قد فقدت قدسيتها ، وانقلبت الى شيء مضحك سخيف . معنى ذلك ان شيئاً ما في هذا العــالم بدأ يتغير .

هناك امم كثيرة تحصنت وتسلحت بأسلحة لا تتخيلها المخيلة ظناً منهـــا ان السلاح هو الحصن المنيــع في وجه أي خطر في هذا القرن . وعلى قدر قوة السلاح تكون قوة الأمة . واذا بهذه الثورات تظهر فجأة معلنة ان الســلاح يعني شيئاً لأن الانسان وما يحمله في اعماقه ، وما يدفعه ليحيا وليوسع مسافات الحياة حوله ، طاقة تعجز اسلحة العالم كلها عن خذلها . وهذا دليل قاطع على ان جميــع فلسفات الانسان منذ العصور القديمة حتى هذا العصر رغم تفاوتهـــا في القيمة ورغم صعودها وهبوطها ، لم تعط رسالة حقيقية لهذا الجيل القلق .

* كيف تفسر هذا القلق ؟ ما هو هنا الحاجز الواقف امام خطواتنا ؟

محفوظ : حتى الآن ينقسم هذا العالم الى قسمين . قسم يعطي الانسان الحرية ويتركه في غابة ، وقسم يعطيـــه العدالة ويسلبه الحرية . وفي الحالتين يدفع الانسان الثمن غالياً . اظن لو ان العدالة اجتمعت مع الحرية في نظـــام واحد تكون المنقذ . الاشتراكية بمعنى آخر شيء مهم جداً انما ينقصها شيء خطير هو الحرية . الليبرالية او الديمقراطية القديمة اتت بقيمة حقيقية كبيرة ، هي احترام الانسان والحرية ، لكنها قصرتها على طبقة معينة . المطلوب ان تكون الحرية ملكاً مشاعاً كقوى الانتاج في البلدان الشيوعية .

وما دام الانسان يفتقد احدى الحالتين فلن يرتاح له بال . سيبقى تعساً في بلد شيوعي ، واكثر تعاسة في بلد رأسمالي .

انا رجل اقول عن نفسي إنني اشتراكي ، انما ارى ان الاشتراكية تفقد قيمة كبيرة لأنها تستهتر بالحرية .

* لنرجع الى الادب . عندما يطلب منك رأي في مسرحية او رواية وانت موظف في الدولة ، ما هو المقياس الذي تعتمده ؟ هل هو مقياس شخصي خالص ، ام ان سلطة ما تفرض عليك نوعاً من الشروط ؟

محفوظ : ان كل عمل فني لا بد من ان تتذوقه بذوق شخصي . والمقياس هو الانفعال الذي نسميه الانفعال الكامل في الاستمتاع . هذا راجع لأسبـــاب

كثيرة مجتمعة ومنصهرة في بوتقة واحدة .ثم يأتي المضمون او الموضوع . هنا أحاول ان لا اكون ذاتياً . فانا اعطيك الحرية لكي تعبر عما تريد انت ، وليس عما اريد انا . هنا احاول ان انفصل عن الذات .

بالطبع انا كموظف لي اعتبارات اخرى . بمعنى آخر عملي ليس مستقلا مئه بالمئة . انا لست موظفاً في دار نشر ، بل في الدولة .

أعطي مثلا . اذا كانت مسرحية ما تسيء الى علاقة الدولة مع العراق ، فلا يصح ان تنشر . انت تقول وما علاقة ذلك بالفن ؟ صحيح . لكن الدولة التي أنا موظف فيها ، لا تريد ان تحصل لها مشكلة مع العراق .

* اليس في ذلك مساومة على الفن ؟

محفوظ : لنفرض انها مسرحية جيدة . انا اقرؤها كموظف في الحكومة والحكومة هي التي ستنشرها ، وهي التي ستتبناها .

لو كان مؤلف ما يتهجم ويسخر من الاشتراكية ومن الدولة ، فأنا كمواطن واديب اقول لك ، انه حر فليكتب ما يشاء انما لا أستطيع ان اقول للدولة ان تنشر له الكتاب .

* لكنني لا استطيع ان اراك موظفاً مرة واديباً مرة اخرى .

محفوظ : انا مطمئن لأنني مؤمن برسالة الدولة .

* لكن الإيمان بالإشتراكية لا يعني عدم السماح بتداول وجهات النظر .

محفوظ : انا معك . فلينشر على حسابه الخاص .

* وهل يسمح له بالنشر ؟

محفوظ : احياناً . وان لم يسمح فهذا غلط . انه موقف خاطىء . لكن اذا كانت الدولة تربي شعبها على رسالة معينة ، فلا يصح ان نشتم هذه الرسالة .

* ليس الشتم هو ما ادافع عنه ، انما ادافع عن ضرورة الحوار .

محفوظ : نحن نعود هنا لمشكلة حرية الرأي . انا مؤمن بحرية الرأي ، لكني كموظف اراعي بعض النقاط . لو كان الأمر عائداً إلي ، فأنا اسمح بنشر كل شيء ، لو كان ضدي او معي . وهذا ما اتمناه ولا أجد فيه أي ضرر .

* خلال اقامتي في القاهرة سمعت ان كتابك « أولاد حارتنا » صودر من السوق فهل هذا صحيح ؟

محفوظ : نعم صودر .

* وما هي الأسباب ؟

محفوظ : البعض احتج على ادخاله مصر .

* وما هي الملاحظات التي وضعت حول منع الكتاب ؟

محفوظ : اعتبروه كفراً دينياً و..و.. لست اعرف ..

* وما هو شعورك تجاه هذا العمل ؟

محفوظ : طبعاً ، الأسف الشديد لأن يصادر الفكر بهذه الطريقة . انا كتبت والذي يود ان يناقش الكتاب فليناقشه . لماذا الخوف . وما الداعي اليه؟

* وما هو موقف الادباء والصحافيين ... انا اعتبر صمتهم تشجيعاً للرقابة .

محفوظ : والله ... عندما حصلت النكسة ، اخذ الناس يتساءلون : من هو المسؤول . من ؟ ومن ؟ انا مؤمن ان كل انسان بلغ سن الرشد مسؤول عن النكسة . لأنه من السهل عليك ان تعتذر عن قيامك بالواجب بأي عذر وفي اي وقت لكننا نحن نعيش في عصر لن يتقدم فيه الانسان الاعن طريق التضحية والا فليحصل لنا ما يحصل . وكما تكونون يُولّى عليكم .

* عندما تعيد قراءة رواياتك وقصصك مرة ثانية ، هل يحدث انك ترغب في خلق شخصياتها مرة جديدة ؛ او ترغب في اضافة شيء جديد عليها ؟

محفوظ : المسألة هنا ليست عائدة الى الشخصيات بقدر ما هي عائدة الى العمل الفني بحد ذاته . استطيع ان اقول باستمرار ان اي فنان لم يطمئن اطمئناناً كاملا وهو يعيد قراءة انتاجه . على الاقل سيشعر بهبوط في نفسه لدى قراءته الأولى . هذا الهبوط راجع الى اصطدام حلم الفنان بواقع الحلم عندما يتجسد في الكتابة . هناك دائماً فجوة .

شخصياً اشعر عندما اقرأ كتاباً قديماً ، أنني لو أعدت كتابته الآن لأتى أفضل مما هو .

* هل هذا عائد الى نقص في الوسيلة ؟ اللغة مثلاً ؟

محفوظ : ربما في الوسيلة ، ربما في الموهبة .. ربما في الجهد .. لست أدري .

* اليس هذا ما يدفع الأديب الى البدء في عمل أدبي آخر ؟

محفوظ : لا .. العمل الثاني تدفع اليه حاجات اخرى . بالنسبة الي ،

انا لا أجهد نفسي لكي اعمل عملاً كاملاً ولو اني اتمنى ذلك . لكن الدافع للكتابة غير الرغبة فيها . فخلال سير الأديب مع الأيام ، فجأة يصدم بفكرة ، بموضوع ، بهزة عنيفة ، لست ادري بماذا ، بشيء ما يطالبه بإلحاح . اخيراً تستجيب روحه واذا به يكتب من جديد .

* اذن أنت لا تخطط للمستقبل بالنسبة الى الاعمال الادبية ؟

محفوظ : في الوقت الحاضر ليس هناك مشاريع للمستقبل . سأبدأ بالقراءة . منذ وقت طويل لم افعل ذلك . وبالطبع ما يخطر ببالي سأكتبه . قصة قصيرة . مسرحية ذات فصل واحد . اشياء مثل هذه . اي انه ليس هناك مشروع ضخم . فالأشياء الكبيرة أشعر بها مسبقاً ، لأنها تكون راسية في الأعماق .

* ما هي الأسماء العالمية والعربية التي أثارت اهتمامك خلال مطالعتك للأدب الروائي ؟

محفوظ : اسماء كثيرة .. سأتناولها كما تأتي على ذاكرتي . شكسبير تولستوي ، دوستويفسكي ، مارسيل بروست ، كافكا ، همنغواي ، فوكنر ، توماس مان . في العالم العربي توفيق الحكيم ، نحن تربينا في مدرسته وهو من جيل الأساتذة . ومن الشبان حنا مينه ، غسان كنفاني . بالنسبة الى مصر ، هناك اسماء عديدة ؟

* هل تقرأ الشعر ؟

محفوظ : اقرأ مختارات من الشعر القديم .

* والحديث ؟

محفوظ : عبد الصبور . الحجازي بصفة خاصة . واول ما قرأت قرأت للسياب والبياتي (انا معجب بالبياتي) ونزار قباني .

* أتخاف من شيء ؟

محفوظ : من المرض .

* ما هي السعادة بالنسبة إليك ؟

محفوظ : أكون سعيداً اذا كنت في تمام الصحة والتوازن ، لكني أود ان اضيف شيئاً مهماً هو ان اكون في وسط سعيد .

(هيأ هذا الحوار وكتبه : **سمير الصائغ**)

ناصيف نصار

عودة الى القرون الوسطى

(ملاحظات حول آراء كمال الحاج في الطائفية)

« أقول بالخروج من الفكرة الطائفية الى الفكرة القومية »
أمين الريحاني

١

الغرض من هذه المقالة تحليل آراء الدكتور كمال الحاج في كتابه : **الطائفية البناءة أو فلسفة الميثاق الوطني** — ونرمز اليه بحرف ط — وفي الرسالة التوضيحية التي نشرتها الندوة اللبنانية بعنوان : **في غمرة الحقيقة** — ونرمز اليها بحرف ف — .هذا التحليل لا نريده عرضاً وحسب لمضمون الكتابين ،بل نريده نقدياً بحيث يفهم القارىء قيمة آراء الحاج في مشكلة الطائفية والقومية ، ويخرج بنتيجة معينة . والواقع أن هذه القيمة قد لاقت بعض الرواج في أوساط مختلفة . وأغلب الظن انها اكتسبت من المشكلة نفسها اكثر مما اكسبتها . ومع ذلك فمن الواجب أن نقدم تحليلا لاراء أبرز مدافع عن الطائفية في لبنان ، حتى يتسنى للقارىء تكوين حكم صحيح ، بعيد عن الجهل والهوى .

٢

يعتبر كمال الحاج نفسه انه فيلسوف ، ويردد ذلك في كتاباته بكل اعتزاز وافتخار . لكن بين اعتباره نفسه فيلسوفاً وكونه فيلسوفاً بالفعل فارق ، قد يكون بسيطاً ولكنه مهم . ونحن لا نرى اي حرج في أن يعتبر المفكر نفسه

فيلسوفاً . اننا نتمنى بالعكس أن يكثر عدد الذين يطلقون على انفسهم هـذا الاسم لان الفلسفة عامل ثقافي عزيز الفائدة ، روحياً وعملياً . الا ان من يعتبر نفسه فيلسوفاً ، ومن يكتب كفيلسوف ، يطالَب باشياء لا يطالب بها الأديب مثلاً . منها الإحكام المنطقي في العرض والبرهان واستخراج النتائج ، والدقة في استعمال الألفاظ ، والموضوعية في تحليل الواقع ، والالتزام بالتعريفات المصطلحة او المقترحة .

ولا شك في ان **كمال الحاج** يعرف ذلك تماماً . غير انه لا يقدم كل الادلة التي من شأنها أن تجعل القارىء يشعر بالارتياح الكافي عندما يطالع صفحات فلسفية ناصعة الاسلوب والمنطق . والحق أن اسلوب كمال الحاج ، الاخاذ برشاقته وشفافيته ، أقرب الى لغة الادب منه الى لغة الفلسفة . لا بمعنى أن الاسلوب الفلسفي لا يتفق مع الوضوح والرشاقة ، بل بمعنى أنه يعتمد على الاساليب والوسائل البيانية بنسبة ما يخدم الفكرة والتعبير الجميل عنها . من هذه الناحية ، يبدو أسلوبه وليد نزعة أدبية اكثر مما هو وليد نزعة فلسفية . ولا غرابة في ذلك . فهو يقول صراحة : « **لم أدر اني فيلسوف الا بعد ان تفلسفت . بادىء بدء سحرني طلسم الكلمة . فتأدبت ، ورغبت في جودة اللفظ وبهائه ونزاهتـه وكثرة طلاوته ومائيته ، متأنقاً كارها الترهل في الكلام المضطرب . ثم انقشعت دروبي فعلمت اني فيلسوف** » . (ف ٢١) .

هذا الاعتراف يساعدنا على فهم كتاباته ، من جهة الاسلوب . ولكنه يلقي على نشأته الفلسفية مسحة من التساؤل والشك . ما الذي كشف له عن دعوته الفلسفية ؟ اية مشكلة أو اي اختبار ؟ انها كما يقول مشكلة اللغة التي عالجها في كتابه **فلسفة اللغة** والتي استخلص منها مبدأ الجوهر والوجود لتفسير الموجودات . ولكن هذه المشكلة لم تصل به الى مفهوم موحد للفلسفة . فمن جهة يقول بأن مهمة الفلسفة « **التوفيق بين الجوهر والوجود ، بين العام والخاص** » (ف ٣١) ، ومن جهة اخرى يقول بأن « **الفلسفة اقتناع باطني يستند الى حدس ومنطق** » . (ف ٥٧) . ومن جهة ثالثة يؤكد : « **الفلسفة الحقة هي استقراء او استنتاج مستقرَأ** » . (ف ٣٧) . فهل تتفق هـذه التعريفات بعضهـا مع البعض الآخر ؟ الاستقراء يعني الموضوعية والبحث المستقل عن الرغبات الذاتية ، المعتمد على طرق ووسائل معينة . فهل فيه مجال للاقتنـاع الباطني ؟ وما هو الدور الذي يبقى للحدس والمنطق ؟ اذا كانت

الفلسفة استقراء ، فما الفرق بينها وبين العلم ؟ واذا كانت اقتناعاً باطنياً ، فما الفرق بينها وبين الايمان ؟ هذه الاسئلة يطرحها القارىء على نفسه ويبحث عن الجواب ، فلا يجد جواباً شافياً . بل انه يقع في حيرة مما يعني المؤلف بمفهوم الفلسفة . ويزيد ارتباكه عندما يجد تعريفاً آخر في كتاب **الطائفية البناءة** ، يختلف عن التعريفين السابقين . يقول المؤلف في ذلك الكتاب : **الفلسفة ليست باعجوزة ، وانما اقتباس بما تشرّعه الحياة ذاتها للانسان فرداً ومجتمعاً . لا اصدق ، ولا أحكم ، ولا أصمد مما ترسم الحياة لنا عفواً** » (ط ١٥). فما هو هذا الاقتباس ، وكيف نقوم به ؟ هل يعني انه التعبير عن الحياة العفوية ؟ ومتى كانت الفلسفة تعني التسليم بأن عفوية الحياة اصدق واحكم وأصمد شيء في الوجود ؟ وبعد ، ما معنى العفوية ، واين تتحقق ؟

هذا الترجرج في تعريف مفهوم الفلسفة ومنهجها مرده الى مجيء كمال الحاج الى الفلسفة من باب الادب . لذلك رأى الفلسفة ترتكز على « **قلبانية المعاضل وعقلانية الاداء** » (ف ٢٠) . وبما ان المعاضل قلبانية ، فهي دون شك وجدانية ذاتية ، اي انها « **تتمرد على منطق التسلسل او تسلسل المنطق** » (ف ٢٠) بهذا المعنى لا تعود الفلسفة استقراء موضوعياً ، بل تصبح تأملاً ، وتعبيراً ذاتياً ، يتميز عن التعبير الادبي بالاداء . « **اما الاداء فهو التحليل الذي يترسم فيه لزّ الافكار بعضها لبعض كما يوجبه الربط المحكم . والفلسفة اداء في معظمها** » (ف ٢٠) . وهكذا يكتشف القارىء منطلق تفكير كال الحاج . انه منطلق وجداني ذاتي ، يحاول أن يستعمل التحليل العقلي كأسلوب لتسويغ الاقتناع الباطني والدفاع عنه .

وافصح دليل على ارتباط الفلسفة عنده برغباته واعتباراته الخاصة ، قوله : « **اعتبر الفلسفة مشروعاً سياسياً كما اعتبر السياسة تحقيقاً فلسفياً** » (ف ٢٣) . هذا التصريح في غاية الاهمية والخطورة ، لانه يزيل عن الفلسفة طابع البحث المستقل ويخضعها لغايات غير غاية البحث عن الحق والخير . ومن ناحية اخرى اذا كانت الفلسفة والسياسة في النهاية شيئاً واحداً ، فمعنى ذلك ان كال الحاج يفكر فلسفياً في خدمة اغراض سياسية ويفهم الحق تابعاً لايمانه السياسي . وهذا تنكر لاسبقية البحث على الحقيقة المجردة ، وتنكر لاستقلال الفلسفة ، وفي النهاية نسف لقيمتها السامية . نحن لا ننكر أن يكون للفلسفة علاقة بالسياسة . لكنها علاقة ارتباط خارجي ، يجب الا تؤثر

على منهج البحث والاخلاص للحق . اما اذا كانت الفلسفة مشروعاً سياسياً ، فصاحبها ليس فيلسوفاً بالمعنى الصحيح . انما هو مفكر سياسي ، يستعين بالفلسفة حتى ينصر مواقفه واختباراته . قد ينجح وقد لا ينجح .

٣

يتبين اذن من التحليل السابق ان منطلق كمال الحاج مزدوج الابعاد والغايات. انه منطلق وجداني وسياسي . فمن حيث هو وجداني ، يقرب من منطلق بعض الفلسفات الذاتية . ومن حيث هو سياسي ، له اقران عند عدد كبير من الكتاب السياسيين . والمنطلق او الغاية شيء مهم لفهم منهج الفيلسوف ، لان هذا المنهج يكون اما استنباطياً واما استقرائياً ، تبعاً للمنطلق او القاعدة . فاذا سلم المفكر بصحة مبدأ معين ، أو مُعطى معين كالمعطى الديني ، بات عليه أن يستخرج النتائج المترتبة على ذلك المبدأ او المعطى ، او أن يبحث عن القرائن والدلائل التي تؤكد صحته . وكمال الحاج ، اذ يصرح بأن المعاضل قلبانية وبأن الفلسفة مشروع سياسي ، يقدم الاقتناع الباطني والاختيار السياسي كمسلمات أولى ، ويبحث في ضوء هذه المسلمات عن الأسانيد الصالحة والقرائن المؤيدة . ولكنه لا يهتم كثيراً بتحديد المنهج الذي يتبعه في الدفاع عن مسلماته . انه في الواقع يخلط بين الاستنباط والاستقراء خلطاً يقوده الى الوقوع في عدد من المغالطات يتهافت معها ما يسميه بمذهبه او نظامه الفلسفي .

وقبل أن نصل الى تحليل تلك المغالطات ، يحسن بنا ان نقف قليلاً عند العنوان الثاني لكتاب **فلسفة الميثاق الوطني** : « **مبحث فلسفي لاهوتي سياسي حول الطائفية في لبنان على ضوء الميثاق الوطني** » . هذا العنوان الطويل يتضمن معظم الافكار والمراجع التي يعول عليها المؤلف في فلسفته . لذا ينبغي لنا أن نحلله بكل انتباه وتأن ، خاصة واننا حتى الآن لم نتعرض للاختيارات التي يتبناها المؤلف ، وللاسباب الكامنة وراءها . واول ما يثير السؤال والشك هذا الجمع الغريب بين الفلسفة واللاهوت والسياسة . فهل المؤلف فيلسوف ولاهوتي وسياسي في الوقت الواحد؟ ام انه سياسي يستعمل الفلسفة واللاهوت في سبيل القضية السياسية ؟ باختصار ، ما هي العلاقات بين الفلسفة واللاهوت والسياسة في كتاب كمال الحاج ؟

الذين يعرفون تاريخ الفلسفة يدركون بسهولة ان الفلسفة لم تكن يوماً مستقلة تمام الاستقلال عن العلم أو عن الدين . ويظهر من العنوان المذكور أن كمال الحاج لا يربط فلسفته بأي علم من العلوم الوضعية . فهو يستبعد بحث الطائفيـــة على ضوء التاريخ او علم المجتمع او علم الاقتصاد . وليس في لبنـــان اليوم ، انسان مثقف لا يدرك علاقة الطائفية بتطور المجتمع اللبناني عبر العصور القديمـــة والحديثة . فلماذا يستبعد كمال الحاج مثل هذا البحث ؟ ألأن التراكيب المادية والتاريخية التي تتعلق بها الطائفية غير مهمة ؟ ام لأنه لم يدرك اهميتها ؟ الجواب لا يتعلق ، طبعاً ، بهذين السؤالين . فالاسس المادية والتاريخية والمجتمعيـــة للطائفية في لبنان مهمة ،وكمال الحاج يعلم ذلك.الا أنه استبعد الكشف عنها ، لانه لا يخدم اغراضه واختياراته المسبقة . فهو يريد القومية اللبنانية ، ويريدها قائمة على الطائفية . لماذا ؟ هل الاسباب لاهوتية بالدرجة الاولى ، ام سياسيــة؟ ام هناك مخطط يرمي الى ابعد من النتائج المباشرة لوجود القومية الطائفية ؟ انه لمن الصعب جداً أن نجيب عن هذه الاسئلة ، لان المؤلف يربط الفلسفة باللاهوت والسياسة بشكل يتعذر معه تبيّن المنطلق والغاية ، على وجه الدقة والتعيين . والأرجح على ما يبدو من سياق الكتاب أن الغاية سياسيـــة بالدرجة الاولى ، وأن الفلسفة واللاهوت ليسا سوى ثوبين لتغطية جوانب القضيـــة السياسيـــة .

الواقع لو أن كمال الحاج ركز بحثه على الطائفية كظاهرة اجتماعية ودرسهـا من حيث اسبابها وابعادها ونتائجها درساً موضوعياً لـكان تخلى عن اللجوء الى التأويلات اللاهوتية والاساليب الخطابية التي تملأ صفحات كتابه . وعلى افتراض ان نتائج البحث الموضوعي جاءت مؤيدة للطائفية وقيمتهـــا كتنظيم ديني سياسي ، فعند ذاك يكون مجال الاقناع اوسع واعمق . الا ان كمال الحـاج فضل طريقاً آخر ، تاركاً التحليل الموضوعي الدقيق ، مستعملا اسلوب التقرير والخطابة والارشاد ،وهو اسلوب يتفق مع الغاية المرسومة سلفاً ، اعني ايجاد صيغة فلسفية لتسويغ الميثاق الوطني والنظام الطائفي في لبنان.**«ان الميثاق الوطني يحتضن عقيدة او شبه عقيدة ، لم نعثر عليها نحن ، لاننا لم ننعم النظر فيه . لذا تتحرك الفلسفة كي تقوم بهذه المهمة »** (ط ١٦) .

معنى ذلك ان موقف كمال الحاج دفاعي تبريري ، يرتكز على واقـــع لبنان الراهن ، ويهدف الى البرهنة على انه الواقع المثالي . هذا الخلط بـــين

الواقع والمثال ميزة اخرى في منهج المؤلف . وهي ميزة تحتاج الى عبقرية كبيرة كعبقرية هيجل حتى تلقى مسوغاتها على الصعيد النظري . والحق ان هذه المسوغات قد تكون عملية ، شخصية او جماعية . وليس موقف كال الحاج بغريب عن هذا النوع من المسوغات . الا ان ما يهمنا هنا ليس البحث عن المصلحة التي يرتبط بها موقفه بقدر ما هو البحث عن القيمة المنطقية لمحاولته الدفاعية . فهل نجح في الدفاع عن القومية اللبنانية في قوامها الطائفي ؟ هل توصل الى عقيدة منطقية واقعية تصلح لتبرير الطائفية السياسية والادارية ؟

٤

يبني كال الحاج تفكيره على هذا الأساس : الطائفية ليست التعصب ، بل هي وجود ظاهر لجوهر باطن هو الدين . وبما أن الانسان كائن ديني اساساً ، وبما ان الدين لا يزاول في الدين ، فالطائفية واجبة الوجود . ومن ناحية اخرى ، الدين ليس قضية فردية . اذن لا فاصل بين الدين والدولة . وعليه فالدولة لا يمكن ان تكون حيادية حيال الدين . فاما أن تكون مؤيدة خاضعة واما ان تكون معارضة مكابرة .

يبدو هذا الأساس لأول وهلة متيناً ، لا غبار عليه . ولكن تحليل حلقاته كفيل بأن يظهر الخلل الذي يكمن وراء التماسك الظاهر . اما ان تكون الطائفية غير التعصب فذلك امر مقبول على صعيد التمييز بين المعاني . وان تكون الطائفية « **بجموع الطقوس والشعائر التي يمارسها الانسان تعبيراً منه عن الجوهر الديني** » (ف ٤١) ، فذلك ايضاً امر مقبول على صعيد ربط الباطن بالظاهر . لكن القول بأن التعصب قضية تربوية اخلاقية ليست الطائفية سببها ، فأمر يحتاج الى تدقيق وتثبيت . كذلك تحتاج القضية : الانسان كائن ديني ، الى توضيح وتدقيق . فكمال الحاج ، اذ يتكلم على الايمان الديني ، لا يتكلم باسمه الشخصي ، ويبدو انه لا يعبر عن اختباره الذاتي في هذا المجال . بالعكس ، انه يتكلم على الانسان عموماً ، من حيث كيانه العام . فهل هذا المنهج يتفق مع ما قرر من « **قلبانية المعاضل وعقلانية الاداء ؟** » ولو عبر عن هذه القلبانية بشكل شخصي لكتب لنا دفاعاً عن الايمان على غرار ما فعل

كيركيجارد مثلا . لكنه اذ يتكلم على الانسان عموماً ، يحق لنا ان نطالبه بالاثبات والدليل .

والدليل عنده يعود الى مشكلة الموت . « **لولا الموت ما كان التدين** » (ط ٢٤) . فالانسان يخاف الموت . وخوفه هو سبب تمسكه بالبقاء ولجوئه الى فرض وجود عالم آخر غير العالم الارضي . اذن « **الدين مُعطى وجداني** » (ف ٥٢) . هكذا يشرح لنا كمال الحاج رأيه في سبب الدين والتدين . لكنه لا يقول لنا ما اذا كان هذا السبب كافياً حتى نقتنع بصحة الايمان الديني ، اي بوجود ذلك العالم الآخر . ولكي لا يواجه المعضلة صراحة ، يلجأ الى مداورة ، فيقول ان الانسان « **يذهب الى ابعد من فرض عالم ثان . يقول يجب ان يكون ثمة خالق** » (ط ٢٥) . هذا الانتقال من فرض الوجود الى وجوب الوجود ، لا يحل المشكلة اطلاقاً . فبدلاً من ان يصب المؤلف اهتمامه على هذه النقطة حتى يكشف عن ابعادها ونواحيها وحتى يحملنا على الاعتقاد بصحتها ، يتخذها ذريعة حتى يقرر بسهولة غريبة أن الالحاد غير ممكن و « **أن احداً من الفلاسفة لم يقل ولن يقول ان الانسان ينتهي عند القبر . كل ما في الوجدان الانساني ينفر من قول كهذا . انه مدعاة لتخريب المجتمع ذاته وتدمير حاضر دنيانا** » . (ط ٢٥).مثل هذا الكلام لا يصدر عن فيلسوف حقيقي ،يعرف تاريخ الفلسفة ، أو يعرف ان الحكم على ما في الوجدان والضمير لا يمكن تعميمه بهذه السهولة والسرعة .

ومهما يكن من امر هذه النقطة ، فما الذي نستنتجه من كون الموت باعثاً على التدين ؟ ان افضل جواب يقدمه تطور الوعي الديني هو ان التدين في جوهره علاقة ايمانية بين الخالق والمخلوق ، وليست علاقة بين دائن ومدين . هذه العلاقة شخصية ، ذاتية ، وجدانية ، ضميرية — سمها كما تشاء — ولكنها لا تسوغ التعميم بأن الانسان كائن ديني على غرار ما نقول الانسان كائن عاقل . العقل جزء كياني في الانسان . اما الخوف من الموت فظاهرة نفسانية ، قد لا تكون هي نفسها بين شخص وآخر ، وقد لا تستتبع النتائج نفسها عند اشخاص مختلفين في الزمان والمكان . فلو بيّن لنا كمال الحاج كيف يستتبع الخوف من الموت ، جبراً ، اللجوء الى فرض عالم ثان ، لأدركنا الأساس الثابت للدين. وبما انه لم يبرهن على دعواه ، لا بالبراهين العقلية ولا بالبراهين الوجودية ،

فانه لم يتفلسف ، وانما قام بتركيز استدلاله على اساس ظاهرة نفسانيـــة ،وهو أساس لا يمكن الركون اليه والبناء عليه .

وانه لمن المفهوم والمقبول ان يجتمع اصحـــاب ايمان واحد في طائفة او طوائف حتى يوحدوا كيفية حياتهم الدينية . ولكنه ليس من المفهوم ابـــداً أن يمتنع وجود فارق بين الدين والدولة . ان الخلط او الدمج بين الدين والدولة لا يصح الا حيث يعتبر الدين نفسه المرجــع الأول والوحيد في كل الشؤون البشرية . فعندما يقول كمال الحاج بانه لا فاصل بين الدين والدولة ، يعتبر الدين بهذا المعنى . غير ان اعتباره ينسى أن للدولة وظيفة تختلف عن وظيفة الدين . فالدولة هي التنظيم السياسي والحقوقي للمجتمع . فوظيفتها تتعلق بالزمنيـــات. وعندما تعتبر نفسها المرجع الأول والوحيد في كل الشؤون ، تميل الى أن تصبح دولة كلية لـكي تأخذ محل الدين الكلي . ولكن تطوّر البشرية يظهر أن الدين الكلي والدولة الـكلية حلان متطرفان ، لا يعيشان الا بفضل الديكتاتوريـــة المطلقة . والانسان كائن حر كما انه عاقل ومتدين .

« **الدين والدولة جوهران يعايشها الانسان في انسانه. والانسان غـــير قابل للتجزئة من الباطن** » (ط ٤٢) . ماذا يعني هذا الكلام ؟ في الظاهر ، يعني انه اذا فصلنا الدين عن الدولة جزأنا الانسان من الباطن . ولكـــن وجود الدولة كجوهر خاص يفرض علينا أن نميز بين الدين والدولة . القضية قضيـــة تمييز ، وليست قضية فصل . لقد بلغت الحماسة الدينية بكمال الحاج مبلغـــاً حمله على نسيان معنى التمييز الذي لا يرادف الفصل ولا يعني التجزئـة . ولنقرأ إحدى نتائج هذه الحماسة : « **الانسان الذي يدين بالاسلام او المسيحية هـــو عينه الانسان الذي يرئس الوزارة أو الجمهورية . فكيف نفصـــل اذن في الانسان ذاته بين الذي هو للدين والذي هو للدولة ؟** » (ط ٦٧) . اذا كان هذا التفكير صحيحاً ، فاننا بالقياس عليه نقول : كمال الحاج هو عينه استاذ فلسفـة وصاحب املاك متنوعة وعضو في الطائفة المارونية . فكيف نفصل في الشخص عينه بين هذه الصفات المختلفة ؟ ولكن الانســان العادي يعرف ان المطلوب في حالة كهذه ليس الفصل ، بل التمييز بين الصفات او الوظائف التي يقوم بها كائن معين في حالات مختلفة من حياته ونشاطـــه . والتمييز ضروري في كل مجالات النشاط الانساني . وهو يقودنا بالنسبة الى الطائفية الى اعتبار الفرق بين الطائفية الدينية والطائفية السياسية والادارية .

ان كمال الحاج ، بمناداته ان لا فاصل بين الدين والدولة ، انكر واقع الحرية الدينية ومعنى التمييز المغاير لمعنى الفصل ، وحكم على محاولته بالعقم. ولكن قلمه قدير على التكييف واجتراح المفاجآت . فبدلاً من أن يتمسك منطقياً بعدم الحياد في الدولة ، نتيجة لمبدأ الربط بين الدين والدولة ،يتراجع قليلا ليقول : «**لا شك في ان الدولة لا تكون مسلمة او مسيحية او درزية . هنا يقع الحياد . وانما الدولة لا تستطيع ان لا تكون احد الأمرين ... اما مؤمنة واما ملحدة** » (ط ٤٥) . لماذا يقع الحياد هنا ؟ وما يعني الايمان الذي ليس مسلماً او مسيحياً او درزياً ؟ وهل هناك ايمان لا يتمظهر في دين وطائفة معينة ؟ الجواب بحسب ما قدمنا : لا. فلماذا الحياد ، وهل هو ممكن ؟ والجواب الصحيح ان كمال الحاج لا يفكر بحسب مقتضيات فلسفية خالصة . انه يفكر بالنسبة الى الواقع اللبناني . وقد شاء أن يركزه على الطائفية . فكيف يقيم الدولة حيال الاديان المختلفة ؟ هذا هو السؤال. للجواب عنه ، لم يكتف كمال الحاج بانكار الحرية الدينية وما تستتبعه من حقوق المواطنية في الدولة ، بل لجأ الى تأويل الدين وتفسيره حتى يتلاءم مع غايته .

٥

لعل اغرب ما يطالعه القارىء في دفاع كمال الحاج عن الدين والطائفية هو تفسيره للدين المسيحي . فهذا الدين في نظره ليس ، كما يظن عادة ، ديناً وحسب ، بل هو دين ودولة . لنرَ اذن ما الذي حمله على هذا « التجديد » في فهم المسيحية .

قلنا سابقاً ان كمال الحاج ينطلق من واقع لبنان الراهن ، ويعتبره احسن مثال لوحدة الواقع والمثال . ولكي يدافع عن النظام الراهن قام اولا برد الافكار القائلة بوجوب التفريق بين الدين والدولة . فبقي عليه ان يواجه المشكلة الواقعية وهي ان لبنان يقوم لا على دين واحد بل على دينين مختلفين : الاسلام والمسيحية . « **كيف اذن يجب التوفيق بين الاسلام والمسيحية ؟ بطريقة واحدة : اظهار المسيحية كدين ودولة ايضاً** » . (ط ٧٣). ولماذا هذه الطريقة الواحدة ؟ لأن الإسلام ، في رأي كمال الحاج ، لا يمكن ان يقبل بالتفريق بين الدين والدولة . « **نحن نعلم أن الاسلام دين ودولة . يبقى أن مبدأ**

فصل الدين عن الدولة في المسيحية ليس واضحاً كوضوح مبدأ دمج الدين بالدولة في الاسلام . مما يعني أن المسيحية قد تكون هي ايضاً ديناً ودولة . انما يجب علينا ان نستخلص ذلك بالاجتهاد . وقد استخلصناه » . (ط ١٣) .

ذاك هو المنطق الذي يتذرع به كمال الحاج لكي يركز الطائفية في لبنان . فان قبلت المسيحية ام لم تقبل ، يجب أن تظهر ديناً ودولة ، لان القومية اللبنانية كما يراها تقتضي ذلك . ونترك للقارىء ان يطالع الادلة الواهية التي يستند اليها المؤلف حتى يبرهن ان آية المسيح : « **اوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله** » ، لا تعني الفصل بين الدين والدولة ، وأن المسيح اهتم بالزمنيات ، بالجسد والمجتمع والقومية ، وان اهتمامه هذا يعني ربط السماء بالأرض والأرض بالسماء . لكننا نود ان نلفت انتباه القارىء الى الانتقال الخفي الذي يحدث تحت قلم المؤلف . فمن قوله : « **اذا كان الاسلام ديناً ودولة (وهذا صريح للغاية) فمن الواجب على المسيحية ان تكون ديناً ودولة** » (ط ٧٨) ، الى قوله : « **المسيحية اكثر الاديان ديناً ودولة** » (ط ١٢٩) . يحدث تحول سحري لا يعلم تفسيره الا الله والراسخون في العلم . كأن المبالغة في التأكيد تغير الواقع ، وتخلق دفعة واحدة إنجيلاً جديداً أشبه بالقرآن والتوراة !

ونذهب ابعد من ذلك ، ونسلم جدلا بأن المسيحية دين ودولة . فماذا يترتب على هذا التسليم من نتائج . المنطق الصحيح يقول : اذا كان الاسلام ديناً ودولة ، فهو السيد حيث يحكم ، ولا سيد سواه . واذا صح ان المسيحية دين ودولة ، فهي السيدة حيث تحكم ولا سيد سواها . وبالفعل هذا ما حصل في القرون الوسطى حيث سيطر الدين الاسلامي في الشرق والدين المسيحي في الغرب . ان الدين الذي يعتبر نفسه مشرفاً مطلقاً على جميع النواحي في وجود الانسان لا يمكنه أن يقبل بشريك له في عملية الاشراف والحكم . وما تاريخ اوروبا الحديث سوى محاولة متواصلة لابراز الحرية حيال هذا المطلق وتحميل الدولة مسؤولية تنظيم الحريات في المجتمع . لكن كمال الحاج يدعي أن أوروبا لم تفصل الدين عن الدولة وانما فصلت الدين عن الادارة متناسياً مدى الحركات العلمانية واثرها في تنظيم شؤون الدول الاوروبية . ويتكلم على الاسلام كما لو كان جوهراً لم يعرف الزمن ، متجاهلاً المحاولات التي يقوم بها مفكرون مسلمون لاظهار الاسلام ديناً لا دولة ، والتطور الذي حمل الشعوب العربية والاسلامية على الابتعاد عن تطبيق

قسم كبير من التشريع القديم . ان كمال الحاج ينظر الى المشكلة الطائفية من زاوية القرون الوسطى ويدافع عن كل ماهو امتداد للقرون الوسطى في تاريخنا. فلا عجب اذا ما رأيناه لا يستسيغ مكتسبات العصور الحديثة في مجالات العلم والعلمانية .

وبما انه يرفض ان يرى الدينين يتلاغيان ، مما قد يؤدي الى انقسام لبنان ، فانه يرتأي ان تدخل المسيحية والاسلام في تجربة مستجدة ، ويرى ان المصلحة القومية العليا تقتضي الجمع بين الاسلام والمسيحية والانسجام والتناغم بينهما . كيف ؟ بالحفاظ على الميثاق الوطني والنظام الطائفي ! « **الطائفية عندنا هي الاستمرار الحق لتسوية اسكاتولوجية بين جناحي لبنان . اي انها اكثر من ترضية ادارية . او هي صهر أخوي لدينين عظيمين في قومية واحدة . بل هي النقطة التي يلتقي فيها شرق وغرب . وقد عبر عن ذلك التمازج الحضاري ميثاقنا الوطني الذي اخطأ بعضنا فهمه عندما نظروا اليه كتسوية ادارية في ملاكات الحكومة . الميثاق تخطى صراحة التعادل الاداري في الحكومة الى تعادل حضاري في المشاهدة الباطنية بين مسلمي الشرق ومسيحييه** » . (ف ٤١ — ٤٢) لقد كان احرى بكمال الحاج أن يعمق نظره في التاريخ والواقع حتى يدرك أن هذا التمازج الحضاري لم يحدث ولا يمكن أن يحدث ما دمنا ندمج الدين بالدولة والطائفية بالادارة والحكومة . التاريخ والواقع يصرخان : الطائفية هدامة ولا يمكن أن تكون بناءة !

٦

ان الطائفية في لبنان تسوية ظاهرة لم تحدث حتى الآن اي تقارب عميق بين المسيحيين والمسلمين . وهي تخفي صراعاً شديداً في سبيل الحكم ، فلا تخدم الدين اطلاقاً . انها ، على العكس ، تقف حاجزاً يمنع اللبنانيين من تفهم معنى الدين وممارسة الحرية الدينية . وفي اعتقادي انه كلما بقيت الطائفية مظهراً اساسياً في الحياة العامة ، زادت موجة الالحاد العملي بين الأجيال الطالعة . والدفاع عن الطائفية ليس احسن سبيل للدفاع عن الدين . لان الدين ايمان وشهادة ، وما الطقوس والشعائر سوى القشرة البرانية . بصورة ادق ، ان الروحية الطائفية تتناسب تناسباً عكسياً مع الروحية الايمانية . فكلما ازددنا تعلقاً بالقشور ، بعدنا عن اللب والجوهر ومات الروح . والروح ليس في

القوانين والشعائر والطقوس . انه في حياة الانسان المتجدد صانع التاريخ في سبيل مزيد من القدرة والحرية .

ان الوحدة بين اللبنانيين لا يمكن ان تتم ما دام المجتمع اللبناني منقسماً عمودياً انقساماً طائفياً . والدعوة الى « **المشاهدة الباطنية** » عبر الطائفية كلام فارغ يتنكر لطبيعة المشكلة وشهادة التاريخ . كل توحد حقيقي يقتضي هدم الحواجز والفواصل. وكمال الحاج يدعو الى تثبيت هذه الحواجز والفواصل، مهما غلف دعوته بجلباب الكلام الفلسفي المنمق . اي انه يدعو بصورة غير مباشرة الى مزيد من التنافر والتناقض بين طوائف المجتمع اللبناني . فالطائفية السياسية والادارية ليست الحل الأمثل ، لا للدين ولا للبنان . يمكن اذن ان تزول دون ان تزول الطوائف ودون ان يزول لبنان . وما الدفاع عنها في النهاية سوى دفاع عن مصالح الأفراد والفئات التي تستغلها وليس دفاعاً عن المصلحة العامة ، لأنه ، من حيث المصلحة العامة ، لا فضل للبناني على لبناني الا بالقدرة على الخدمة والابداع .

ان الوحدة بين اللبنانيين تعني ولاءهم للوطن الواحد قبل انتمائهم الى طوائف مختلفة . وهذا الولاء يحمل لجميعهم الحقوق والواجبات نفسها . بهذا يمكن ان يتلاشى التعصب الطائفي ، ويمكن ان تفيد المصلحة العامة من جهود جميع اللبنانيين . لكن كمال الحاج لا يرى هذه المساواة الكاملة في الحقوق والواجبات امراً واجباً او مرغوباً فيه : « **نحن لا نرى كيف ان الطائفية هي علة التعصب.. نحن لا نتذمر من توزيع الوظائف على اساس التوازن الطائفي . نتذمر من ان تصريف الشؤون الادارية لا يحصل بشكل علمي عادل ... ان القضية ليست قضية نصوص . وانما القضية هي قضية نفوس** » . (ط ١٦٣) . يتضمن هذا الكلام مواربة لا تخفى على أحد . فمن اين جاءت النصوص ؟ أليست انعكاساً لأصحاب الرأي والنفوذ في المجتمع ؟ وبعد هل تسمح النصوص ومطبقوها بالعمل خارجاً عن الاطار الطائفي ؟ اذن ، النفوس التي تتحكم بها النصوص وتسيرها ليست مسؤولة عن تعصبها . بل النصوص والمشرفون على تطبيقها هم المسؤولون . وعليه ، لا يمكن أن ننتظر الوقت الذي تتغير فيه النفوس حتى تتغير النصوص ، ما دامت هذه الاخيرة الوسيلة الفعالة للتأثير في النفوس . فالتربية وسيلة محدودة تستمد توجيهها وتأثيرها من الاتجاه العام الذي تتبناه الدولة وتشجعه . القضية اذن ليست في نفوس المواطنين ، بل في

نفوس الحكام والرؤساء الذين يناط بهم تطبيق الدستور وسائر القوانين التي يفرض فيها أن تحافظ على المصلحة العامة .

وهذا نص آخر يظهر مدى المواربة والتهويل الخطابي الذي يعتمد عليه كمال الحاج في كتابه . يقول : « **لنفترض ان الوظائف وزعت فقط على اساس الكفاءة العلمية . من يكفل لنا ان الوظائف الخمس المذكورة اعلاه لا تعود الى المسيحيين فقط ؟ ومن يكفل لنا ان المحمديين سيتابعون السير نحو تحصيل الشهادات العليا ؟ وهكذا يجنح لبنان في ادارته لجهة طرف واحد من طرفيه ، فيضيع التوازن الطائفي .ولكن هل من العدالة ان يحجب الطرف الآخر عن معظم المسرح الوظائفي ؟ هل من العدالة ان يتغلب في الادارة دين على دين ؟ وبذلك لا يعود لبنان الذي يجب أن يكون ؟** » (ط ١٦٤) .

في الحقيقة ، لا يخفى على أحد ما في هذا التفكير من السفسطة واللاواقعية. ايعتقد كمال الحاج في أعماقه ان المسيحيين جميعهم ذوو عبقرية متفوقة ؟ ان المحمديين لا يريدون الشفقة ولا يطلبون الاحسان . فليست القضية ان يتغلب دين على دين الا في رأس المتمسكين بصراع الاديان . ومتى اصبحت الكفاءة العلمية هي الأساس بطل بالفعل نفسه كل اعتبار للتوازن والمغالبة وحل محله اعتبار الخدمة والانتاج . وهو اعدل وافيد بكثير من اعتبار التوازن الطائفي . واغرب ما في الأمر ان كمال الحاج لا يذكر الاجحاف الذي يلحق بالمتفوقين اذا اقصوا عن الوظيفة بسبب انتمائهم الطائفي ، ولا يذكر العراقيل المعقدة التي تتورط فيها الادارة عندما تنوي تعيين موظفين ، اداريين او فنيين ، بسبب الاعتبارات الطائفية . فكأنه ليس على علم بكل ذلك .

٧

لقد فشل كمال الحاج في البرهنة على ان النظام الطائفي يؤدي الى الانسجام والتناغم بين الاسلام والمسيحية ، لانه لم يستخرج النتيجة المنطقية المترتبة على طبيعة الدين الكلي ، أي الذي يعتبر نفسه ديناً ودولة ، ولم ينظر علمياً الى الواقع المرير الذي يتخبط فيه اللبنانيون من جراء الانقسام الطائفي . بدلاً من ذلك ، استعمل كمال الحاج لغة الواجب واسلوب التأثير الخطابي ، ظناً منه ان الاقناع سهل المنال بهذه الطريقة . لكن اللبناني العادي الذي لم يصل الى

مشارف الواجب الحضاري كما يتصوره الفيلسوف ، يدرك بتفكيره البسيط ان الوسيلة لجمع اللبنانيين ، ارضاً وروحاً ، ليست الطائفية السياسية والادارية ، التي ليست من الدين الصحيح في شيء ، بل شعورهم بمصير مشترك ومصالح موحدة . هذا الشعور لا يمكن ان ينمو ما دام اللبناني لا يقدم انتماءه الوطني على انتمائه الطائفي ، ما دام يرى في كل المناسبات آثار المغالبة وعدم الثقة والصراع المستتر على السلطة والادارة . فما هو الحل اذن ؟ انه يكن دون شك في نزع الطائفية السياسية والادارية عن الدولة . وهو حل لا يضر بالدين ولا بالدولة .

لا نعتقد أن الطائفية قدر محتوم أو « **ان كل مساس بالطائفية هو بالتالي مساس بالدين جبراً** » (ط ١٩٤) . اذا كانت الطائفة مظهراً طبيعياً لوجود الدين في المجتمع ، فانها ستبقى ببقاء الدين . لكن بقاءها نسبي يتأثر بالتطور الاجتماعي . فهي تتغير وان كان جوهر الدين لا يتغير . ليقل لنا كمال الحاج : هل حياة الطائفة المارونية من الناحية الدينية هي اليوم كما كانت في القرن الثامن عشر مثلاً ؟ الى جانب الطائفية الدينية ، توجد الطائفية السياسية والادارية وهي ليست أكثر من نتيجة لتطور المجتمع اللبناني ،خاصة منذ القرن التاسع عشر . يمكن اذن أن تتابع تطورها مع تطور المجتمع اللبناني . والميثاق الوطني والدستور اللبناني لا يطلبان غير ذلك .

ماذا يقول الدستور ؟ انه يقول في المادة ٩٥ : « **بصورة مؤقتة والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وتشكيل الوزارة دون ان يؤول ذلك الى الاضرار بمصلحة الدولة** ». فمامعنى هذه المادة؟ معناها أن الشارع ينظر الى التمثيل الطائفي كمرحلة انتقالية وانه يضع مصلحة الدولة فوق مصلحة الطوائف . وبالطبع ، مصلحة الدولة لا تقوم على ان يعتبر الموظف نفسه ممثلاً لطائفته اولاً ولوطنه ثانياً . لذلك نرتكب خطأ فاحشاً عندما نترجم ارادة الشارع على انها تكريس للطائفية الادارية والسياسية . جل ما يريده الشارع هو ان يسود العدل والوفاق بالنسبة الى معطيات المجتمع اللبناني . هذه المعطيات تتغير مع الزمن . فلم يستمر العمل بما هو موضوع لمرحلة انتقالية ؟

بهذا المعنى وضع الرئيس عبده عويدات ، تقريراً قدمه الى مجلس شورى الدولة ، بتاريخ ١٧ نيسان سنة ١٩٦٦ ، بيّن فيه كيف يمكن ان تتحرر

الوظيفة الادارية من قاعدة التمثيل الطائفي . ومما جاء في التقرير : « **ان وقتية هذه القاعدة تلزم الادارة بالعمل الدائم على تحضير مراحلها وتطبيق قواعدها بالطرق التي تؤمن اجتيازها وتحقق احكام الدستور في انهاء اوضاعها » ... « ان اخضاع التعيين بالمباراة في الفئتين الرابعة والثالثة الى قاعدة التمثيل الطائفي يؤدي الى تجميد تحرير الوظيفة من هذه القاعدة الذي تؤمنه المباراة ونتائجها تطبيقاً لاحكام الدستور المقررة بالمادة ٩٥ » ... « ان تحرير الوظيفة من التمثيل الطائفي في الفئتين المذكورتين في حالة احترام القانون من شأنه اعداد موظفين يملأهم الشعور بأنهم في الوظيفة لكفاءتهم العلمية وانهم بهذه الصفة ليسوا لفئة ضد أخرى وانما لجميع المواطنين على السواء**».

هذا ما يقوله رجل قانوني يعرف الادارة عن كثب ولا يمكن ان يظن فيه الجهل بالنسبة الى مصلحة البلاد العليا . فلماذا يتعصب كمال الحاج بهذا الشكل المتطرف للطائفية ؟ لماذا يود أن يجعل نهجاً ثابتاً أبدياً ما أراده الدستور نهجاً مؤقتاً مرحلياً ؟ لانه دون شك يتكلم لغة الواجب والحاضر ، ولا يتكلم لغة الحركة التاريخية ،أو بالأحرى ،لأنه يرفض أن ينظر الى مشكلة الطائفية من جميع جوانبها ، واخصها الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية . وبما انه يطل علينا من نافذة القيم والمبادىء ،فانه يأخذ من الواقع ما يوافق موقفه ونظرته ، ويفسره كما يحلو له أو بالقدر الذي يتفق مع آرائه . وقد قلنا انه يفكر تفكيراً سياسياً من زاوية خاصة . هذا التفكير السياسي الذي لا يبوح كمال الحاج بمراميه واساساته ،ينكشف ، بين حين وآخر ، تحت قلمه السيال كما في هذه العبارات: « **لا قيمة لسياسة لا ترمي الى غاية أخلاقية . ولا فعالية لاخلاق لا ترتبط بالسياسة . حتماً لا اقصد بالسياسة ههنا المناصب والاحزاب فقط. اقصد حماية الحياة والحرية والأملاك .. هذه السياسة هي التي اعني في مبحثي .. ومن لا يريد حماية حياته وحريته واملاكه ؟** » (ط ١٠٦) . أليست الحرية الدينية مظهراً من مظاهر الحرية ؟ أليست العدالة الاجتماعية ملازمة لسياسة الملكية في الدولة التي يتصورها كمال الحاج ؟

٨

من جملة ما يعتز به كمال الحاج ايجاده الاطار النظري للقومية اللبنانية :

«لبنان يتألف قومياً من الاسلام والنصرانية» (ط ١٢) . والآن، بعدان رأينا تهافت محاولته بشأن الربط بين الدين والدولة والتوفيق بين الاسلام والمسيحية ضمن النظام الطائفي، لِنرَ معنى كلمة قومية تحت قلمه .

كلنا نعلم ان لبنان اتخذ شكله الحالي تحت فترة الانتداب الفرنسي التي انتهت باعلان الاستقلال سنة ١٩٤٣ . ونعلم ان النظرية السورية القومية الاجتماعية والنظرية القومية العربية، لا تعترفان للبنان بطابع قومي خاص . ونال لبنان استقلاله دون ان تكون له نظرية قومية . فجاء الدكتور الحاج يفلسف الميثاق الوطني ويستخرج منه العقيدة التي يحتاج اليها . **«لقد شعر الميثاق ان العقيدة لا تقهرها الاعقيدة مثلها . فاستمد عقيدة لنا من واقع لبنان، تلك فلسفته . وإنها لفلسفة واقعية . وهي اصلح الفلسفات واقواها»**، (ط ١٥) . يصرح كمال الحاج في هذا الكلام بأن تفكيره واقعي . وقد رأينا اكثر من مرة كيف يخرج عن خطه لينادي بالمثالية والواجب . لكن مثاليته ليست كسائر المثاليات . انها مثالية الواقع الراهن . فكيف عبر عن هذه المثالية الواقعية بلغة القومية ؟

لكي نفهم موقف كمال الحاج في هذه النقطة ينبغي ان نترك جانباً كل ما يقوله من عموميات حول علاقة القومية بالانسانية، لان منطلقه في هذه النقطة واقعي خاص، وليس نظرياً او خيالياً . يقول الواقع كما يفهمه كمال الحاج : **«الانسان غير قادر أن يزاول حريته التامة الا في نطاق الوحدة القومية، والكيان السياسي تجسيد لهذه الوحدة، لذا عندما نجد كياناً سياسياً نكون ازاء قومية»** (ف ٣٤) . والكيان السياسي يعني الدولة . اذن وجود الدولة مرادف لوجود القومية . هذه هي الفكرة الاساسية عند كمال الحاج . وهي فكرة مبنية بصراحة على واقعية سياسية لا غبار عليها : **«تركيز القومية على قاعدة الكيان السياسي»** (ف ٣٥) . ويقول تبعاً لهذا المبدأ : **«القومية هي وجود سياسي كما ان الوجود السياسي هو قومية»** (ف ٣٥) . وبما ان الوجود السياسي هو الدولة، اذن **«لا وجود لقوميتين في دولة واحدة ولا وجود لدولتين في قومية واحدة»** (ط ١٤٢) . وتعريف القومية انها **«تحقيق كيان سياسي لشعور فئة من الناس بأنهم احرار في ارض واحدة واقتصاد واحد وتاريخ واحد ولغة واحدة بدافع ارادة مشتركة واحدة»** (ف ٤٥) .

لنلاحظ ان كمال الحاج يحرص على عدم جعل الدين في جملة مقومات القومية، ويتجنب البحث في النظام السياسي الذي يمكن الدولة أن تتمظهر به! ثم لنسأل: من أين استمد هذه التعريفات والاستنتاجات؟ أليس من الواقع التاريخي؟ بلى. ولذلك قال بأن الأمة قوامها اللغة فقط، وبأن هناك امة عربية، اي قوميات تتكلم اللغة العربية. وهكذا تم له تفسير الواقع اللبناني. فهو قومية بدليل انه دولة مستقلة، وهو جزء من الأمة العربية بدليل انه يتكلم اللغة العربية. ولكن يبدو ان كمال الحاج قصر همه على التفكير في لبنان والعالم العربي، فضيق المجال الذي استقرأه – وهو القائل بأن «**الفلسفة الحقة هي استقراء**» –. فلم تأت نتائج هذا التضييق على احسن ما يرام.

يفترض تعريف كمال الحاج للقومية وجود لغة واحدة. فما قوله في كندا وبلجيكا وسويسرا؟ هذه البلدان دول مستقلة. اي انها كيانات سياسية. اي انها قوميات بحسب التعريفات السابقة. فهل ينطبق عليها تحديده مع العلم انها تتكلم اكثر من لغة؟ بالطبع يمكن أن نتلمس سبباً لخروج مثل هذه الدول عن القاعدة، كأن نقول هناك قسم من السكان يتكلم لغة والقسم الآخر يتكلم لغة أخرى، او كأن نقول ان النظام الفدرالي يسمح بانشاء كيانات سياسية لا يكون لها الطابع الحقيقي للقومية. لكن يبقى ان الكندي الذي يتكلم اللغة الانكليزية لا يقل كندية عن الكندي الذي يتكلم اللغة الفرنسية. ويمكن ان يجيب كمال الحاج ان هذا الوضع زائف ولا بد من ان ينفجر يوماً ما فتعود الأشياء الى نصابها الصحيح. ولكن عندما تشذ عن القاعدة دولة كالاتحاد السوفياتي او كالهند حيث نجد اكثر من شعب واكثر من لغة ضمن كيان سياسي واحد، نتساءل ما هو المعيار لتمييز ما هو صحيح وما هو شاذ؟ وبالنتيجة، اذا استقرأنا الواقع الراهن، فانه يقول بوجود كيانات سياسية، اي قوميات في مصطلح كمال الحاج، تضم داخل حدودها اكثر من لغة. فهل يريد كمال الحاج ان يوسع مجال الاستقراء الى اوسع من الواقع الراهن؟

قد يريد ذلك. ولذا سنتابع التفكير على مدى تاريخي أطول. فنسأل: هل تولد القوميات فجأة ام انها تتكون عبر التاريخ. بالطبع انها تتكون عبر التاريخ. ولكن هل يقول التاريخ دائماً ان قيام دولة يعني وجود قومية؟ اذا صح ذلك، فكيف نفسر انقسام المانيا؟ هل المانيا اليوم قوميتان؟ اذا كان الجواب بالايجاب،

فمعنى ذلك ان القومية الواحدة (مثلاً : المانيا قبل الحرب) يمكن ان تنقسم عبر التاريخ على نفسها . واذا صح ذلك ، فهل اتجاه الانقسام غير قابل للتغيير ؟ ومن جهة اخرى ، الا يمكننا القول ، قياساً على الانقسام الالماني ، بان الدول العربية الراهنة ، على تعددها ، نتجت من انقسام قومية او قوميات سابقة ؟ هذه الأسئلة وغيرها يحاول كمال الحاج ان يجيب عنها بالتمييز بين الشعور القومي والقومية. يقول :« **هناك بعض الفارق بين القومية والشعور القومي . الشعور القومي هو قومية بالقوة . القومية هي شعور قومي بالفعل** » (ف ٣٥) . مثل هذا الجواب يعني وجود صراع بين ما هو بالقوة وما هو بالفعل ، ويعني ان ما هو موجود بالفعل ليس افضل وجود على الاطلاق ويمكن ان يتراجع أمام ما هو موجود بالقوة . بالطبع ، يتبنى كمال الحاج جهة الموجود بالفعل ويزعجه بالنسبة لغاياته القريبة والبعيدة ان يكون في لبنان شعور بقوميات أخرى . لكنه يرتاح لكونها « **عجزت حتى الآن عن انتتجسد في كيانات سياسية ظاهرة** »، ويردف قائلاً : « **وتحقيقها في كيانات سياسية أمر عسير . بل غير ممكن. ذلك لانها لاتحمل فيها قابليات اتافيسمية واسكاتولوجية صحيحة. لا تحمل معها تذاكر مرور من محكمة التاريخ الكبير** » (ف ٣٥) .

هذا التفسير لحكم التاريخ الكبير قد يتفق مع الأوضاع الراهنة . لكنه لا يجعلنا نرتاح الى حركة التاريخ الطويلة المدى . اذ انه كما يستحيل ان يعود التاريخ الى الوراء ، كذلك يستحيل أن تصبح المسيحية ديناً ودولة ، وان تنسجم على هذا الاساس مع الاسلام بوصفه هو كذلك ديناً ودولة . فالكيان اللبناني ، لا يمكنه ان يدوم على المدى الطويل الا على اساس الابتعاد عن التراكيب القديمة البالية والاعتماد على الطرق الحديثة في تكوين الدولة ، واهمها التخطيط للقوى البشرية والامكانات المادية ، دون اعتبار للرواسب التي تخنق القدرات والمواهب وتشل حركة النمو وتورث الضعف . واذا ما اعتمدنا على العلم التاريخي والاجتماعي والاقتصادي ، في تقرير هويتنا ، فان نظرتنا الى الواقع تتغير ، وتزول عن اعيننا هذه الغشاوات التي يود كمال الحاج احكامها .

أيليق بنا أن نتمسك بنظرتنا الى الدولة والتاريخ من خلال مفاهيم القرون الوسطى ، والشعوب في العالم تبحث عن مزيد من القدرة والحرية ، تبحث عن استبدال اعضاء الانسان وغزو الفضاء ؟ ان نظرة كمال الحاج الحضارية لا تريد

أن تعرف ما هو القرن العشرون ، او انهـــا تعرف وتتعمد ابقاءنا في غياهب القرون الوسطى حتى يتمكن منا اعداؤنا بكل سهولة .

٩

« **المعركة التي نخوض هي معركة لاهوتية** » (ط ١٣٢) . لو كان هذا الكلام صادراً عن كاهن او شيخ – واحتمال صدوره أصبح ضئيلا جداً في هـذا القرن – لفهمناه وعذرناه جزئياً . ولكنه فيلسوف يتكــلم . كأن الفكر الفلسفي وقف عند نهاية القرن الثالث عشر ! كأن المعركة الاقتصادية الــتي تخوضها الطبقات الـكادحة غير موجودة ! كأن معركة العدل والكرامة غير واردة ! كأن الله اله حرب والمسيح قائد جيش !

انها لنهاية مدهشة ومقلقة ، هذه النهاية التي آلت اليها فلسفة كمال الحـاج الالتزامية ، والتي جعلته يضيــع ما بين اللاهوت والسياسة فوق حلقات مفقودة من العلم التاريخي والاقتصادي والاجتماعي . قد لا يستطيــع الفيلسوف ، خاصة المؤمن ، ان يتخلص من اللاهوت ، ولكن ذلك لا يسوغ النظر الى العـــلوم والحلقات العديدة التي تربط ما بين اللاهوت والسياســة ، كأنها تبــع لما تقرره العقيدة اللاهوتية او السياسية . ان عصرنا قد وسع المسافة بين العقائد الـكلية والسياسية داخل سلسلة من الوسائط لا بد من اعتبارها في تكوين المجتمــع الراقي . هذه الوسائط وليدة العقل العلمي والتقدم التكنولوجي ، وقــد اثرت تأثيراً عميقاً على الوظيفة الــتي تقوم بها الدولة . ولا سبيل الى انــكار الدور المتزايد الأهمية الذي تلعبه الأسس العلمية والتكنولوجية في حياة المجتمــع . فهل من مصلحتنـــا ان نحافظ على واقع لا يفسح المجـال واسعاً لعمل العقل ؟ وهل كانت الفلسفة يوماً غير دعوة لتحقيق الانسان بوساطة العقل ؟

لقد حاد كمال الحاج عن الطريق الملـكي للفلسفة لأنه لم يضع نفسه كما يجب في خدمة العقل الفلسفي . فمن قوله بأن الفلسفة اقتباس بما تشرعه الحيـاة ذاتها للانسان ، الى قوله بانها استقراء ، الى اعلانه بانها اقتناع باطني ، نلاحظ تلمساً لماهية الفلسفة ومهمتها اكثر مما نلاحظ نمواً لفكرة او حدس اصيل . واذا صح أن الفلسفة تأتي في اعقاب الواقع ، فان مهمتها لا تنحصر في الدفاع عن الواقــع الضيق الراهن . وانما تقوم على أن تدفع بالوعي الى ابعد الأعماق واوسع الآفاق

الممكنة حتى يتسنى للانسان الملتزم استشراف الحركة التاريخية وتوجيهها بحسب امكانات الواقع الطبيعي الاجتماعي . ان مهمة الفلسفة ليست الدفاع والتبرير ، بل التفسير والتغيير . مهمتها ايقاظ الوعي بالنقد والسؤال ، وفرض التغيير بالتحدي ، وحمل الانسان على الانخراط كلياً في مغامرة خلق الذات بالذات في زمن التاريخ . واذا لم تقم بتلك المهمة ، فاحرى بها ان تسمى فذلكة لا فلسفة .

١٠

في العصور الوسطى ، كانت الفلسفة تشعر بالتعاسة لانها كانت مُخضعة للشريعة . وجاء الدكتور كمال الحاج كي يحررها من ذاك الشعور فخضّعها للشريعة والسياسة .

حليم بركات

المجتمع اللبناني : فسيفسائي أم تعددي ؟

يمتاز لبنان بالرغم من صغر مساحته (٤٠٠٠ ميلاً مربعاً) بالتنوع الاجتماعي والنفسي كما يتميز بالتنوع الجغرافي . لا أرغب هنا بالتحدث عن التنوع الجغرافي. ما يهمني هو التنوع في تركيب المجتمع اللبناني ، ومدى ازدواج فئاته في وحدة وطنية اجتماعية — نفسية حقيقية . قد يكون التنوع فضيلة ، وامراً مرغوباً . وربما تكون المجتمعات المتنوعة تنوعاً سيمفونياً منسجماً متفاعلاً متفاهماً هي المجتمعات التي توفر المناخات الفضلى للخلق والحرية والتحقيق . وكون لبنان مركز لقاء بين القارات الثلاث ، بين الغرب والشرق ، بين الاسلام والمسيحية ، قد يؤهله لأن تتوفر فيه هذه المناخات الفضلى .

ما هي الفئات الأكثر أهمية ، التي يتكون منها لبنان ؟ ان دارسي المجتمع اللبناني ومراقبيه يتفقون على ان الفئات الدينية هي الأكثر أهمية ، من حيث تأثيرها على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية . كثيراً ما يتردد ، بالرغم من غياب الاحصاءات العامة ، ان اهم الفئات الدينية التي يتكون منها لبنان هي الموارنة الذين يشكلون حوالى ٣٠ ٪ ، والسنة الذين يشكلون حوالى ٢٢ ٪ ، والشيعة الذين يشكلون حوالى ١٨ ٪ ، والروم الارثوذوكس الذين يشكلون حوالى ١٠ ٪ ، والروم الكاثوليك الذين يشكلون حوالى ٦ ٪،والدروز الذين يشكلون ٦ ٪ ، وما تبقى هم من السريان والكلدان واليهود وغيرهم .

مرحلتان تاريخيتان

ولا يهمنا هنا التوزيع بقدر ما يهمنا نوع العلاقات القائمة بين هذه الفئات في الوقت الحاضر . يبدو لي ان هذه العلاقات مرت بمرحلتين تاريخيتين ، ولم تصل بعد الى المرحلة الثالثة المرجوة . تتصف المرحلة الأولى بالتصادم المباشر (Conflict) وتمتد حتى الربع الاول من هذا القرن . كان هذا التصادم ظاهراً ومعلناً ومفتوحاً ومباشراً وعنيفاً حتى أنه كان أحياناً ، دموياً . اما المرحلة الثانية ، وهي السائدة في الوقت الحاضر ، فقد بدأت في العشرينيات بشكل جازم وهي مرحلة التوازن (Accommodation) والتعايش والمساومة دون ان تفقد اي فئة ماهيتها الدينية او تتغلب عليها اي ماهية اخرى . لقد تبين للفئات اللبنانية الدينية ان هناك ضروريات تحتم قيام نوع من التعاون والتوازن والتفاوض فيما بينها للحد من قوة او طغيان اي فئة . نجد بذور هذه المرحلة في دستور سنة ١٩٢٦ ، لكن الميثاق الوطني الذي صيغ في سنة ١٩٤٣ يعبر افضل تعبير عن مضمون مرحلة التوازن والتعايش هذه . فقد اعلن هذا الميثاق في وجه الراغبين بحماية اجنبية ، والمطالبين بوحدة عربية على حد سواء ، بان لبنان بلد مستقل وذو سيادة ، وانه في الوقت ذاته دولة عربية تتبع سياسة التعاون مع الدول العربية الشقيقة .

تبقى المرحلة الثالثة التي لم يتم الوصول اليها في اعتقادي ، وهي مرحلة الاندماج Assimilation . هذا الاندماج لا يعني بالضرورة فقدان التنوع ، بل يعني قيام انسجام حقيقي .

يعتقد البعض ان الوحدة قد تحققت بالفعل او ستتحقق عن طريق المشاركة الطائفية . يقول الدكتور كال صليبي في محاضرة القاها في الندوة الأولى لاسبوع الفكر الملتزم التي نظمها حزب الكتائب اللبنانية في اواخر آب ١٩٦٨ : « **ومهما قيل في النظام الطائفي الذي يقوم عليه لبنان اليوم ، فمن الواضح تاريخياً ان هذا النظام ... وليد الخبرة اللبنانية عبر القرون ... والفرد اللبناني باعتزاز طائفي اصيل هو من اهم معطيات الوضع اللبناني ... واذا كان للبنانيين ان يفخروا بشيء ، فهو بالحكمة التي مكنتهم من جمع صفوفهم رغم الاختلافات في اطار وطني واحد** [١] »

ويتحدث الدكتور فؤاد الخوري في الندوة ذاتها عن « **تحول لبنان من**

مجموعة طوائف شبه مستقلة الى دولة ديمقراطيـــة متماسكة [٢] » ويؤكد ان « امر مشاركة الطوائف في الحكم، شرط اساسي لاستمرار الكيـــان اللبناني بشكله الحاضر [٣] »

الوجه الاخر

تهدف هذه الدراسة الى تبيان الوجه الآخر ، وتحديد الظواهر التي تمنـــع قيام وحدة حقيقية . وقد رأيت ان اقوم بهذه المهمة بطريقة تحليلية تعتمـــد استعمال مصطلحات يتداولها علم الاجتماع السياسي ، فاطرح السؤال التـــالي : هل لبنان مجتمع تعددي (Pluralistic) ام مجتمع فسيفسائي ؟

هذا يدعونا ، قبل المضي في الدراسة ، الى تحديد هذه المصطلحات وتبيان الفروق بينها . لذلك ، نقول ببساطة ان كلاً من المجتمع التعددي والفسيفسائي يتصف بانه لا يتكون من جماعة واحدة متجانسة ديناً و/ أو اثنيـــاً Religions and/or Ettnic Homogeneity بل من فئات او جماعات متغايرة او مركبة Heterogeneity تحاول ان تقيم نوعاً من التوازن والتعايش فيما بينها . ولكن المجتمع التعددي يختلف عن المجتمع الفسيفسائي بانه اكـــثر تشديداً على أمور ثلاثة على الاقل ، هي وجود اتفاق بين الفئات المختلفة حول المرتكزات وقيام حوار حقيقي وصريح ،وتوفر ولاء للمجتمع او الوطن ككل بالاضافـــة الى الولاء للجزء او بدلاً منه .

من هنا ، يبدو انه لا يوجد هناك مجتمع تعددي كلياً او فسيفسائي كليـــاً ، بل هناك امتداد تدرجي Continuum بين المجتمعين . وبقدر ما تتوفر فيـــه الأمور التي اشرت اليها يكون مجتمعاً تعددياً ، وبقدر ما تفتقد هذه الأمـــور يكون المجتمع فسيفسائياً .

مجتمع فسيفسائي

المجتمع اللبناني اليوم اقرب الى المجتمع الفسيفسائي منه الى المجتمع التعددي ، وذلك للاسباب التالية :

اولاً : الميل نحو عدم وجود اتفاق بين الفئات الدينية حـــول المرتكزات والأسس التي يقوم عليها لبنان .

ثانياً : الميل نحو عدم قيام حوار حقيقي وصريح بين هذه الفئات .

ثالثاً : الولاء للجزء يفوق الولاء للكل ويتصادم معه .

رابعاً : عدم توفر نظام تربوي موحد يعمل على دمج الفئات المختلفة في وحدة حقيقة .

خامساً : عدم فصل الدين عن الدولة وحصول تزاوج بين ابناء الجماعات الدينية مما يساعد على ازالة المسافات الاجتماعية والنفسية القائمة بينها .

سادساً : عدم وجود احزاب سياسية ذات قاعدة وطنية شاملة ينتظم فيها مواطنون من جميع الطوائف .

سابعاً : عدم توفر الاندماج الجغرافي اذ تتوزع الطوائف في مناطق مختلفة من لبنان وتتركز فيها وحدها دون غيرها .

ثامناً : ضعف سيطرة الدولة على المؤسسات الأخرى وخاصة الطائفية والتربوية والزعامات المحلية .

تاسعاً : تكريس الطائفية من قبل الدولة عن طريق جعلها قاعدة شرعية للحياة السياسية وتبنيها كنظام واسلوب ، وعدم الرغبة في تجاوزها .

عاشراً : اختلاف مصادر الوحي عند اللبنانيين فهم يتأثرون ويتمثلون بأمم وعقائد وتيارات وفئات مختلفة ان لم تكن متصادمة .

لنتناول ، اذن ، بالتفصيل هذه الظواهر والأوضاع التي تمنع قيام وحدة اجتماعية نفسية حقيقية وتجعل لبنان مجتمعاً هو اقرب الى المجتمع الفسيفسائي منه الى المجتمع التعددي *

اولا ، عدم وجود اتفاق حول المرتكزات : تتصف المجتمعات التي تميل نحو التعددية بوجود اتفاق بين فئاتها حول عدد غير قليل من المبادىء والاسس والمرتكزات على الرغم من تنوعها . مثل هذا الاتفاق شرط اساسي لاعتبار المجتمع تعددياً . بل هو شرط للاستقرار والاستمرار .

---

* لا بد من الاشارة الى ان عدداً من الدارسين قد استخدموا مصطلح الفسيفسائية في معرض تحدثهم عن المجتمع اللبناني من قبل . اذكر هنا ميشال شيحا في كتابه ، «لبنان في شخصيته وحضوره»، ص ٣١ ؛ ورينه حبشي في كتابه ، «حضارتنا على المفترق» ص ٥٢ ، و ٥٥ . غير ان أحداً من هؤلاء لم يحاولوا حسب معرفتي ان يحدد ماذا يقصد بهذا المصطلح .

هل يتفق اللبنـانيون حول بعض المرتكزات ؟ ان من يبحث بتجرد لا بد من ان يجد بعض الاتفـاق ، والا كيف نفسر الاستمرار الحاصل حتى الآن والرغبة في التعايش؟ قد يقال ان هناك اتفاقاً حول **«سيادة لبنان كدولة مستقلة»** وضرورة **« التعاون الى اقصى حدود التعاون مع الدول العربية الشقيقة »** ، واهمية **« اشتراك جميع الطوائف في الحكم »** ، الخ .

ولكن الباحث المتجرّد لابد ان يجد ان اللبنانيين لايتفقون حول مرتكزات اخرى قد تكون اكثر جوهرية من المرتكزات السابقة . لا بد من ان يجد مثلاً انهناك عدم اتفاق حول ماهية لبنان القومية . فبينما يعتبره بعض اللبنانيين امة تامة نهائيـة أزلية سرمدية يعتبره البعض الآخر مرحلة تاريخية وجزءاً من امة اكبر وأشمل ولا بد من دمجه ان لم يكن في الحاضر ففي المستقبل غير البعيد .

ويمكننا ان نتبين خطورة عدم الاتفاق هذا عندما ندرك ان قضية المـاهية القومية تشكل موضوعاً مهماً بين اللبنانيين . ومن الادلة على اهميـة هذا الموضوع بين اللبنانيين ان الأحزاب القائمة في لبنـان لم تنشأ في الأصل ، لتوفير العدالة والحرية والمساواة بل نتيجة للبحث عن ماهية قومية ، وهذا ما يميز بعضها عن البعض الآخر واكثر ما يثير اهتمامها ورغبتها في الجدل . ان الماهية القومية هي مصدر نشوء احزاب وحركات سياسية في لبنان مثل الحزب السوري القومي الاجتماعي ، والكتائب ، والنجـادة ، والبعث ، وحركة القوميين العرب ، وغيرها . بل ان هذه الاحزاب نشأت كردة فعل لبعضها على البعض الآخر .

الذاتية اللبنانية

وقد نشأت عن ظاهرة عدم الاتفاق حول ماهية لبنان القومية عدة ظواهر اجتماعية لا ضرورة الى تفحصها في هذه الدراسة . انما نذكر واحدة منها كمثـل على مدى ما يمكن ان يساعدنا هذا الموضوع في فهم جوانب من الحياة اللبنانية . هناك ظاهرة احب ان اسميها ظاهرة **تبجيل او تعظيم الذات** بين بعض المؤمنين بالقومية اللبنانية . تتصف هذه الظاهرة بميـل هؤلاء الى المبالغة والتغني بدور لبنان في العالم ، وبانعدام النقد الذاتي . كثيراً ما نسمع في المحاضرات والخطب والأغاني والشعر ان لبنان مركز الاشعاع والفكر والوحي في العالم . ويتحدث شاعر معروف ، ويتبعه في ذلك عدد من تلاميذه ، عن ضرورة **لبننة العـالم** .

لماذا هذا التبجيل الذي لا نجده بين الشعوب المتقدمة ؟ لماذا تختلف الاغنية الشعبية الحديثة في لبنان عن الاغاني الشعبية الحديثة في الغرب ؟ فيما تفيض الأولى بالافتخار والتبجيل ، تفيض الثانية بالنقد اللاذع والسخرية القاسية من حياة الغرب وقيمه ومشاعره ومنجزاته .

في رأيي ان احد مصادر هذه الظاهرة هو ان الذاتية اللبنانية Ego يهددها ويشكك بها لبنانيون آخرون . وعندما تهدد الذات أو يشك بها تميل الى المبالغة في الاعلان عن وجودها وتأكيده . ظاهرة تعظيم الذات هذه تعود فيما تعود الى وجود شكوك وتحديات لهذه الذات . انها ردة فعل نفسية . انها محاولة تأكيد في وجه محاولة نفي ، واعلان عن الذات في وجه تهديدات حقيقية لصميمها .

ويبدو لي أن من الضرورة ان نضيف ان الخلاف لا يقتصر على الأمور الجوهرية بل يتعداها في احيان عدة الى مواضيع طارئة وخاصة اذا ما كان لها علاقة ما بالماهية القومية ومتفرعاتها . في دراسة جديدة قامت بها « **مؤسسة الابحاث والمعلومات** » في جريدة « النهار » يظهران للعامل الديني اهميته حتى بالنسبة الى مواضيع طارئة مثل خطف طائرة « **العال** » الاسرائيلية من قبل الفدائيين الفلسطينيين ، ودخول قوات حلف فرصوفيا تشيكوسلوفاكيا ، ومهمة يارنغ المبعوث الدولي للشرق الأوسط ، ونشاطات الفدائيين .

ترينا نتائج هذه الدراسة ان ٨٤ ٪ من المسلمين (مقابل ٤٨ ٪ من المسيحيين) يؤيدون عملية خطف طائرة **العال** الاسرائيلية تأييداً مطلقاً ، و٣ ٪ من المسلمين (مقابل ٢٦ ٪ من المسيحيين) لا يؤيدون هذه العملية [٤] .

ويتبين من هذه الدراسة ان ٩٣ ٪ من المسلمين (مقابل ٦٤ ٪ من الميسيحين) يؤيدون العمل الفدائي الفلسطيني تأييداً مطلقاً

وترينا هذه الدراسة ان اغلبية المسلمين (٦٤ ٪) لا توافق على الحل السلمي لقضية فلسطين ، فيما ان اغلبية المسيحيين (٧٢ ٪) توافق عليه [٥] .

وفي دراسة اخرى قامت بها « **مؤسسة الابحاث والمعلومات** » تستطلع بها آراء اللبنانيين في بيروت وضواحيها حول دخول قوات حلف فرصوفيا تشيكوسلوفاكيا ، تبين ان المسيحيين (٦٨ ٪) يميلون الى اعتبار هذا الدخول احتلالاً ، بينما يميل المسلمون (٥٦ ٪) الى اعتباره مساعدة ، تلبية لنداء سلطة

شرعية او غير شرعية داخل تشيكوسلوفاكيا. وترى الكثرة من المسلمين (٧٤ ٪) ان للدخول ما يسوغه ، بينما ترى الكثرة من المسيحيين (٥٧ ٪) ان ليس للدخول ما يسوغه. كذلك قالت الكثرة من المسلمين (٧٤ ٪) ان رأيها في الاتحاد السوفياتي لم يتغير فيما قالت الكثرة من المسيحيين (٥٥ ٪) العكس [٦].

انعدام الحوار الحقيقي

ثانياً ، **عدم توفر حوار حقيقي وصريح بين الفئات الدينية** : ليس من حوار حقيقي مع الغير او مع النفس على المسرح اللبناني. الحوار مفتعل ومقنع ومستتر.

ان الحوار مع الغير كثيراً ما يتصف بالمسايرة. والدولة وغيرها من المؤسسات تتجاهل المواضيع المهمة التي تتعلق بالاوضاع الطائفية بحجة انها حساسة ، او تقلل من اهميتها. يقول الانتروبولوجي الدكتور فؤاد خوري ان هناك تعايشاً بين اللبنانيين وان هذا « **التعايش بين الطوائف متأصل في عادات اللبنانيين. هو شيء اختبروه مع الزمن فطبع شخصيتهم بطابع نفسي خاص ، فاللبناني ، اياً كان ، حريص في معاملاته مع رجالات الطوائف الاخرى ، لبق في حديثه معهم ، اديب ، متأدب ، سمح** [٧].»

ولكنه يضيف معترفاً بانه « **كثيراً ما يظهر هذا التسامح والتفهم في المجالس العامة فقط ، اي التي تضم افراداً من مختلف الطوائف، حتى اذا ما خلا اللبناني لنفسه او وجد برفقة مجموعة من طائفته دون سواها ، تراه يتناسى تسامحه وتفهمه ليمارس بدلا عن ذلك حذقه في سرد النكات والاقاصيص التي تنال من سمعة الطوائف الاخرى ومن حياتها الاجتماعية والاخلاقية. نعم ايها السادة ، للبناني وجهان ، وجه طائفي ووجه ظاهري لا طائفي** [٨].»

ويجدر بنا ان نذكر هنا ان التفاعل الاجتماعي يزداد حجماً ووثوقاً وتقارباً بين ابناء الطوائف المختلفة. إنّ هناك ازدياداً ملحوظاً في الزيارات المتبادلة والصداقات الحقيقية. وقد تغير هذه العلاقات من وضع الحوار القائم على المسرح اللبناني. وقد تنزع شخصيات المسرحية اقنعتها. ولن يحدث هذا قبل ان يتقبل افراد الطوائف المختلفة بعضهم البعض الآخر ، لا كاصدقاء وجيران فحسب ، بل عليهم كذلك ، ان يذهبوا الى ابعد من ذلك ويتقبّل بعضهم

البعض الآخر كأزواج واقارب ، مما سيساعدهم على تجاوز المسافات الاجتماعية والنفسية التي تفصل بينهم. يتم ذلك ، كما سنرى في قسم لاحق من هذه الدراسة، عندما يسمح بالزواج المدني ويفصل الدين عن الدولة .

وكما انه لا يوجد حوار حقيقي مع الآخرين ، لا يوجد كذلك حوار مع الذات . ان ظاهرة تفحص النفس وانتقادها امر نادر بين جميع الطوائف . اللبنانيون المسيحيون ، بشكل عام ، يقبلون بالوضع القائم ولا يظهر عليهم ميل شديد الى تغيير الأوضاع القائمة . ويعتقد البعض مع ميشال شيحا ان هناك « هناءة عيش » في لبنان وان هذه الهناءة ستستمر « **شرط الا يأتي العقائديون ودعاة الاصلاح فيفسدوا اخيراً هذه الهناءة**[٩]. » اللبنانيون المسلمون ، بشكل عام ، يرفضون الوضع القائم . لكن اهتمامهم بدأ ينحصر في أمور قد يصح ان نسميها خارجية كالتدخل الاجنبي وحروب الاستقلال والتحرر (ليس في تشيكوسلوفاكيا على ما يبدو) . ولكنهم لا يبدون اهتماماً كافياً في امور اخرى لا تقل اهمية مثل نظام الحكم (الاختيار بين الديمقراطية والدكتاتورية) ، وحرية الرأي في الدول العربية الأخرى ، والتحرر من التقاليد الدينية ، وفصل الدين عن الدولة ، ووضع الفرد في المجتمع .

ان الحوار مع النفس ضروري لبدء حوار مع الآخرين . البداية هي في ان يتمكن المواطن ويسمح له بالحوار مع دينه .

ثالثاً ، **الولاء للجزء والولاء للكل** : يشعر اللبناني العادي بالولاء لجماعته وطائفته ومنطقته وعائلته اكثر مما يشعر بالولاء للبنان ككل . ان الروابط الدينية والعائلية والمحلية تفعل في النفس وتؤثر في السلوك اكثر مما تفعل الروابط الوطنية . ولقد منع التصادم القائم بين المصالح الجزئية والمصالح القومية حتى الآن نشوء مؤسسات عامة ذات قواعد وطنية كما سنرى فيما بعد . ان هذا الولاء لا يقتصر على الافراد ، بل يتعداهم الى الجماعات والجبهات والتكتلات التي تغرق في حزازات شخصية وطائفية ومحلية وعائلية ، مما منع حتى الآن جمع اللبنانيين حول اهداف عامة . لذلك تزدهر الزعامات المحلية ، وتنعدم الزعامات العامة .

قد يعتقد البعض ان المسلمين وحدهم لا يدينون بالولاء للبنان ككل . هذا الافتراض غير صحيح . ان عدم الولاء شيء عام . ويصدق ذلك حتى على بعض

الفئات المسيحية القائلة بالقومية اللبنانية . ان ولاء هؤلاء للبنان ينبع من ضمن ولائهم لدينهم . إنه الوطن الذي تتحقق فيه مصالحهم كجماعات دينية ،وقد يبطل ولاؤهم للبنان في وضعه الحاضر اذا ما اصبحوا اقلية واستمرت العصبية الطائفية الحاضرة . من هنا كان حديث البعض عن عودة الى لبنان صغير يكاد ان يقتصر على الجبل .

ومما يزيد من حدة عدم الولاء للبنان ككل هذه الفردية الجازمة التي تجتاح لبنان.تنعكس هذه الفردية في غياب المؤسسات والجمعيات والنقابات والاحزاب العقائدية الفعالة . ان في لبنان عمالاً وليس فيه نقابات فاعلة. في لبنان موسيقيون وليس فيه اوركسترا .ورغم «**هناءة العيش**» يعترف ميشال شيحا «**ان ضعفنا يتأتى من فردية تبطل معها النظم ، وتمسي المشروعات الجماعية عسيرة واهية**[١٠].»

رابعاً ، **عدم توفر نظام تربوي موحد** : تنعكس فسيفسائية المجتمع اللبناني في المؤسسات التربوية ، فليس في لبنان حتى اليوم نظام تربوي موحد يعمل على صهر الفئات والجماعات في وحدة وطنية . هناك ، على العكس ، انظمة ومناهج تربوية عديدة ترتكز على فلسفات تختلف من حيث اساليبها كما تختلف من حيث اهدافها وقيمها وروحيتها وعقليتها . هناك المدارس الانكلو — أميركية — البروتستنتية ، والفرنسية — اللاتينية — الكاثوليكية ، والمقاصد — العربية — الاسلامية ، والرسمية — اللبنانية ، والأرمنية ، والسريانية ، والكلدانية ، والأشورية الخ . لكل فئة دينية في لبنان مدارسها الخاصة ، ولكل من هذه المؤسسات المدرسية اهدافها واساليبها ومناهجها وانظمتها الخاصة .

هذا التعدد في الفلسفات والمؤسسات التربوية لا يعكس فسيفسائية المجتمع اللبناني وحسب ، وانما يبقي كذلك على هذه الفسيفسائية ويزيد من حدتها . ان المؤسسات التربوية في لبنان تنشىء عقليات مختلفة ، لا لقاء بينها ، وتدعو الى اتجاهات فكرية وقيمية واخلاقية مختلفة . وينتج عن ذلك بشكل عفوي او غير عفوي ولاءات قومية ومحلية وطائفية متصادمة .

لقد تبين في استفتاء،اجرته «مؤسسة الابحاث والمعلومات» مع عينةعشوائية تمثل العائلات اللبنانية في بيروت وضواحيها ان ١٧ ٪ من هذه العائلات ترسل

اولادها الى مدارس حكومية ، و٣٨ ٪ الى مدارس خاصة وطنية منهاجها فرنسي ، و٢٢ ٪ الى مدارس خاصة وطنية منهاجها انكليزي ، و٤٪ الى مدارس خاصة وطنية منهاجها عربي ، و٧ ٪ الى مدارس خاصة غير لبنانية منهاجها انكليزي ،و١٢ ٪ الى مدارس خاصة غير لبنانية منهاجها فرنسي . وبالمقارنة بين العائلات المسلمة والمسيحية ، ترينا هذه الدراسة ان ٢١٫٥ ٪ من العائلات المسلمة (مقابل ١٢٫٣ ٪ من العائلات المسيحية) ترسل اولادها الى مدارس حكومية ، و٣٧٫٩٪ مقابل ٦٤٫٦ ٪ الى مدارس خاصة منهاجها فرنسي، و٣٣٫٩ ٪ مقابل ٢٢٫٦ ٪ الى مدارس خاصة منهاجها انكليزي ، و٦٤ ٪ مقابل لا شيء الى مدارس خاصة منهاجها عربي *

وعلى صعيد التعليم الجامعي ، نجد ان الجامعة اللبنانية ضعيفة جداً بالمقابلةمع الجامعة الاميركية او الجامعة اليسوعية ، بل ان الجامعة اللبنانية هي من اكثر الجامعات تخلفاً في العالم . يقول الدكتور انطوان زحلان في دراسة له حول الجامعات الوطنية العربية : «**تعد الجامعات الوطنية العربية من اكثر الجامعات تخلفاً في العالم . فالجامعات في الدول الافريقية الحديثة الاستقلال اصبحت تملك ربع مليون مجلد في كل مكتبة ، موضوعة في متناول الطلاب والاساتذة وذلك بعد عشر سنين من تأسيسها . ان الافتقار الى مكتبة في الجامعة اللبنانية مثلاً ، والوضع المزري لدار الكتب الوطنية يعكسانعدام أيّ التزام بقضية التعليم والعلم** [١١]» .

ثم ان الذين يديرون الجامعة اللبنانية والمدارس الرسمية التابعة للدولة يُنتقون على اساس طائفي وبوساطة الزعماء السياسيين . يضاف الى هذا كله ان الصلة بين الجامعات والمؤسسات التربوية المختلفة تكاد ان تكون معدومة . الجامعة الأميركية تعيش في عالم والجامعة اليسوعية تعيش في عالم آخر ونادراً ما يحدث اي لقاء او حتى تصادم او تنافس بين العالمين .

خامساً ، **عدم فصل الدين عن الدولة** : في المجتمع التعددي يفصل الدين عن الدولة ويحدث تزاوج بين الفئات المختلفة التي يتكون منها المجتمع فيؤدي ذلك الى تجاوز المسافات النفسية والاجتماعية الفاصلة بين هذه الفئات . ان عدم فصل الدين عن الدولة وعدم السماح بالزواج المدني في لبنان يمنعان حصول تزاوج

---

* راجع ملحق « النهار » الصادر في ٢٩ ايلول ١٩٦٨ .

بين ابناء الجماعات الدينية فتظل المسافات النفسية والاجتماعية قائمة ، وتظل الصور التي رسمتها كل فئة للأخرى عبر تاريخ طويل راسخة في الأذهان .

ان النظام الطائفي المتبع يمنع اقرار نظام الزواج المدني ويزيد من تشعب التشريع في مسائل الأحوال الشخصية . يخبرنا **المحامي عبدالله لحود** في محاضرة القيت في النادي الثقافي العربي حول هذه المشكلة ان التشريع في مسائل الأحوال الشخصية ما يزال يسير في طريق التشتت ، فان هناك تشريعاً خاصا للسنيين يطبقه قضاء خاص ، وتشريعاً وقضاء خاصين للشيعة ، وتشريعاً وقضاء خاصين للدروز ، وتشريعات ومحاكم خاصة لكل من الطوائف الكاثوليكية الست وللطوائف الارثوذكسية الأربع ، وتشريعاً وقضاء خاصين للطائفة الانجيلية ، وتشريعاً وقضاء خاصين للطائفة اليهودية . ولا بد من ان يزداد هذا التشتت اذا استمر النظام الطائفي القائم . فهناك فئات من اللبنانيين لا تنتسب الى طائفة من الطوائف المعترف بها ، فما تزال عائشة دون قانون . يضاف الى هذا كله ان المراجع العليا لبعض هذه المحاكم المذهبية تقوم خارج لبنان

سادساً ، **عدم وجود احزاب سياسية ذات قاعدة وطنية شاملة** : ما ذكرناه عن المؤسسات التربوية والتشريعية يصدق بوجه خاص على الأحزاب السياسية العاملة في لبنان . ليس بين الأحزاب المعترف بها والتي تشارك في الحكم في لبنان اي حزب سياسي شامل ينطلق من قواعد وطنية لا طائفية . كل حزب من هذه الاحزاب يمثل طائفة او مذهباً ولا يمثل الشعب اللبناني ككل . فهي من هذه الناحية ليست احزاب توحيد وتمثيل للشعب او الوطن في مجموعه . ان الاحزاب التي ترتكز على قواعد غير طائفية وتضم اعضاء من جميع الطوائف كالحزب الشيوعي والحزب السوري القومي الاجتماعي وحركة القوميين العرب والبعث وغيرها احزاب ضعيفة وغير معترف بها وهي خارج النظام القائم .

ان الأحزاب المعترف بها ، المشاركة في الحكم احزاب طائفية . والغالبية الساحقة من اعضاء كل حزب من هذه الاحزاب ينتمون الى مذهب او طائفة دون غيرها من المذاهب والطوائف . وان صدف وجود عدد قليل من اعضاء اي حزب من هذه الاحزاب من مذهب غير مذهب الاكثرية فيها ، فان قيادات هذه الاحزاب تكاد أن تكون مقتصرة على ابناء الطائفة التي تمثلها وتصدر عنها. من هنا كان القول بعدم وجود احزاب سياسية عقائدية في لبنان،

فهي لا تمثل الشعب وغالبية المنتخبين في لبنان لا ينتمون الى حزب معين .

سابعاً ، **توزع الطوائف في مناطق جغرافية مختلفة** : مما يجعل لبنان مجتمعاً فسيفسائياً ، حتى من حيث الشكل ، أن الفئات الطائفية تتمركز في مناطق مختلفة فلا تندمج حتى جغرافياً بقدر ما يجب . الموارنة يتمركزون دون غيرهم تقريباً في زغرتا وبشري وكسروان والبترون وجزين ، ويشكلون الاغلبية في المتن وبعبدا ، ويتمركز المسلمون السنة في المدن الساحلية ، والشيعة في الجنوب والهرمل ، والدروز في الشوف ، والروم الارثوذكس في الكورة والروم الكاثوليك في زحلة . حتى حيث يوجد شيء من التشابك ، نجد ان الفئات الدينية تميل نحو السكن في قرى واحياء خاصة بها . ان تحسن شبكات المواصلات يخفف من حدة هذا الوضع ، ولكن هذه الفئات كونت لنفسها بمرور الزمن اساليب معيشة وعادات اجتماعية خاصة . ويمكن القول ان الجماعات الدينية في المجتمع اللبناني تعيش ، بالرغم من التشابك الجزئي الذي يحدث ، في شبه عزلة جغرافية مما يجعلها حتى من حيث الشكل اقرب الى المجتمع الفسيفسائي . في الدراسة التي قامت بها «مؤسسة الأبحاث والمعلومات» التي اشرت اليها سابقاً ، يتبين ان احياء بيروت (وهي من اكثر مناطق لبنان تشابكاً واتصالاً) تختلف في آرائها حتى حول معنى دخول قوات حلف فرصوفيا تشيكوسلوفاكيا ، فبينما تميل الناصرة والاشرفية الى اعتبار هذا الدخول احتلالاً ، تميل البسطة ورأس النبع الى اعتباره مساعدة .

ثامناً ، **ضعف سيطرة الدولة على المؤسسات الأخرى** : تتبع الدولة في لبنان سياسة المهادنة والتجاهل والمساومة تجاه المؤسسات الأخرى في لبنان ، بل كثيراً ما تنبثق عن هذه المؤسسات ، وخاصة الطائفية منها والزعامات المحلية . تؤثر هذه المؤسسات حتى على اصدار الاحكام وتنفيذها . من هنا كان ضعف الثقة بالعدل وتطبيق القوانين في لبنان . الوساطة ، وحماية مخالفي القوانين من قبل الزعماء ، والمصالحات او المنازعات العشائرية ، كل ذلك يتحدث عنه اللبنانيون كشيء مألوف وعادي . وتشعر الدولة بالعجز تجاه هذا الوضع وما انتفاضاتها النادرة سوى محاولة للتأكد من وجودها في وجه محاولات لاستخدامها والسيطرة عليها . بكلام آخر ، كثيراً ما يكون تصرف الدولة ناتجاً عن شعورها بالعجز فتلجأ احياناً الى تدابير قاسية تتبين لها فيما بعد صعوبة او استحالة تطبيقها .

يقول الدكتور ايلي سالم في دراسة له حول المجلس الوزاري في لبنان « لقد اظهرت ازمة سنة ١٩٥٨ بما لا يقبل الشك ان الزعماء المحليين والعائلات ذات النفوذ تمكنت ان تسيطر في الأوقات الحرجة على اتباعها اكثر مما تمكنت الحكومة المركزية . لكل فئة دينية او إتنيّة هرمها النفوذي ولها مصدر قوة داخلية خاص بها ، وعلى الحكومة ان تتعامل مع مراكز النفوذ هذه وحتى ان تتفاوض معها احياناً ١٢ » .

ان الدولة ضعيفة لا تسيطر حتى على مؤسساتها ، فكيف يمكنها ان تسيطر على المؤسسات القوية وتصهرها في وحدة وطنية. يقول غسان تويني في افتتاحية له في جريدة النهار الصادرة في ٧ ايلول ١٩٦٨ ان « الحكومة غير موجودة والموجود منها لا سلطة بيده ، والذي بيده سلطة ليس الحكومة ، ولا سلطة للحكومة عليه ، ولا هو له على الحكومة سلطة » .

وعندما تضيع المسؤوليات ، تزدهر المؤسسات التقليدية كالمؤسسات الدينية والزعامات المحلية والعائلية .

تاسعاً ، جعل الطائفية نظاماً شرعياً وقاعدة واسلوباً للحياة السياسية :

لقد تبنت الدولة اللبنانية النظام الطائفي منذ نشوئها وتجسد ذلك في دستور ١٩٢٦ وفي الميثاق الوطني. المناصب في السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية توزع على اسس طائفية تعارض ذلك مع المؤهلات ام لم يتعارض . ان مراعاة النظام الطائفي لم تعد مقتصرة على الوظائف المهمة بل تتعداها الى جميع الوظائف مهما قلت اهميتها في جميع مؤسسات الدولة ومصالحها ، بما في ذلك المؤسسات العلمية والقضائية والعسكرية . ويكاد أن يصبح هذا التوازن الطائفي القاعدة في المؤسسات الخاصة . انه يتغلغل في الحياة اللبنانية ويصبح جزءاً من تقاليدها واغانيها الشعبية ؛ فتسيطر هذه النزعة ، مثلا ، حتى على المجددين من امثال الاخوين رحباني في اغنية «زهرة المدائن»، القدس ، فتصدح فيروز :

«عيوننا اليك ترحل كل يوم
تدور في اروقة المعابد
تعانق الكنائس القديمه
وتمسح الحزن عن المساجد »

وفي أغنية لصباح يبدو التوازن الطائفي اكثر تفصيلاً ودقة :

«وينـــون هالدبيكي وين

وين محمود وين معروف وين الياس وين حسين»

ان ذكر الكنائس ، يستدعي ذكر المساجد ، والعكس صحيــح. وهناك من يدافع عن النظام الطائفي بحجة انه يزيل الغبن بالنسبة الى بعض الطوائف المحرومة ، فيقول الاب جبرايل مالك اليسوعي في « ندوة اسبوع الفكر الملتزم» التي اشرنا اليها « وعلينا ان نعي ان بعض الطوائف قد تخسر كثيراً من الغــاء التوزيع الطائفي [١٣] » . الاهتمام بالمناطق المتخلفة لا يكون بتبني النظام الطائفي بل بانشاء المدارس والمشاريع بنسبة تفوق المناطــق الاخرى كي يجري التعويض عن سنين عديدة من الاهمال والاضطهاد والتعصب والتحيز . ولكن هل هنــاك حقاً مشاركة فعلية ؟ ان لطائفتي الموارنة والسنة النصيب الاكبر في هــذه المشاركة ، وهذا النصيب يفوق النسبة العددية بين الطائفتين . يذكر الدكتور فؤاد خوري في محاضرته السابقة ان عوامل عدة تاريخية وجغرافية وارتباطات خارجية تقوي من سيطرة الموارنة والسنة في لبنان .

وقد وجد الدكتور ايلي سالم في دراسته المشار اليها ان الموارنة والسنــة يسيطران على المناصب الوزارية بين ١٩٤٣ و١٩٦١ وقد يتقاسمان في هذه الفترة منصب وزارة المالية بالتساوي تقريباً ويكاد منصب وزارة التربية ان يكون مقتصراً على الموارنة حتى ١٩٦١ . وفيما سيطر الموارنة والروم الـكاثوليك على وزارة الخارجية ، كان السنة يسيطرون على وزارة الداخلية .

وهناك من يدافع عن النظام الطائفي بربطه بالحرية التي ينعم بها اللبنانيون وخاصة بالنسبة الى غيرهم من العرب . انما لم يحاول احد من هؤلاء ان يرينا كيف يربط بين النظام الطائفي والحرية المتوفرة في لبنان . هناك ادلة على وجـــود علاقة بين الحرية والازدهار الاقتصادي والصناعي والثقافي ، وليس من ادلة على ارتباطها باتباع النظام الطائفي . على العكس ، هناك ادلة على مساوىء النظام الطائفي في حقول عدة ، وخاصة الادارية منها ، اذ ان هذا النظام كثيراً مــا يتعارض مع الكفاءات العلمية ويمنع ذوي الاختصاص والخبرة من الوصـــول الى المراكز المهمة في مؤسسات الدولة [١٤] .

عاشراً ، **اختلاف مصادر الوحي عند اللبنانيين** : اود هنا ان استخــدم مصطلحاً متداولاً في علم الاجتماع الحديث الذي قــد يساعدنا على فهم ظاهرة

مهمـــة في الحياة اللبنانية ، وهذا المصطلح هو ما يسمى الفئة القـــدوة Reference Group. يشير هذا المصطلـح الى اي جماعة تتخذها مثالا او قدوة فنتأثر او نتمثل بها ونتعاطف معها ونستوحيها الافـكار والقيم والآراء والازياء. ان للجماعات الدينية التي يتكون منها لبنان مصادر وهي مختلفة اذ تتأثر وتتمثل بفئات قدوة مختلفة في الداخل والخارج . إنها تتأثر بجماعات خارج لبنان وترسم حياتها على شاكلة حياة هذه الجماعات ، وتستلهمها الافـكار والقيم والاتجاهات . يتخـذ المسيحيون بشكل عام الغرب قدوة ومثالا فيتأثرون به ويقبلون دون تحفظ على تبني اساليب حياته وافـكاره وقيمه وعاداته وازيائه وحتى لغتـــه. ويتخذ بعض اللبنانيين كميشال شيحا سويسرا قدوة ، ويتخذ البعض فرنسا . كذلك هناك من يدعو الى وحدة متوسطية يرونها ممكنة وسهلة فيما يشددون على الاختلاف القائم بين الدول العربية في طرق المعيشة ، ويرون الوحدة العربية بسبب ذلك مستحيلة . ويتخذ المسلمون بعض الدول العربية ، وخاصة مصر ، قدوة ومثالا فيستوحونها اراءهم السياسية ويتعاطفون مع تجاربها ويشاركونها آمالها ويتحمسون لقضاياها على انها قضاياهم ويسعون لاقامة وحدة معها . في الوقت نفســـه يتخوفون من الغرب ولا يثقون به ويمكنهم ايجاد المسوغــــات العديدة لتخوفهم وعدم ثقتهم . لقد اختبروا الغرب كقوة احتلال لا تقيم وزناً لمشاعرهم . ونكث الغرب بكثير من وعوده للدول العربية . فقد وعدوا بتوحيد البلاد العربيـــة اثناء الحرب العالمية الأولى وما ان انتهت الحرب حتى صدم العرب بمزيـــد من التقسيم بدل التوحيد ، وبوعد بلفور . ثم فجعوا بسلخ الاسكندرون وانشـــاء دولة اسرائيل في فلسطين . والغرب فوق ذلك يخاف ان يجري اي تغيير ثوري في البلاد العربية ، وهو يعمل للحفاظ على الأوضاع القائمة . وليس من الاكيـــد ان الغرب يتمنى حتى تحسن اوضاع العرب الاقتصادية والتكنولوجية ، فان اميركا هي التي سحبت مساعداتها لبناء السد العالي تحت ضغط صهيوني وبدأت بذلك سلسلة من التحولات والاضطرابات السياسية . وحتى حين يسهم الغرب او يريد ان يسهم في ادخال بعض التقدم التكنولوجي والفكري الى العالم العربي ، فانه لا يتوخى ان يكون لذلك تأثيره العميق في تغيير الأوضاع السياسية . يقـــول مورو برغر في كتابه العالم العربي في الوقت الحاضر « لقد ادخل الغرب افـكاراً ووسائل تكنولوجية غيّرت الى حد بعيد العلاقات الاجتماعية في العالم العربي وكان لها آثارها السياسية المهمة . إنما في الوقت ذاته اتبع الغرب بدأب سياسة محافظة تجاه الحياة السياسية نفسها هادفاً في الواقع الى منع النتائج الاجتماعية والاقتصادية

من استبدال المؤسسات السياسية وتغييرها . لقد ادخلوا أفكاراً ثورية ، انما حاولوا منعها من احداث ثورة في الحياة السياسية العربية ١٥ » .

ان كون اللبنانيين يتمثلون بفئات مختلفة ويتأثرون بآرائها وسياساتها ، لا بد من ان يؤثر على العلاقات فيما بينهم وخاصة اذا ما كان هنـــاك سوء تفاهم او عداء لاحد مصادر الوحي .

وعنـــد وجود تصادم بين مصادر الوحي نفسها ، اي بين الغرب ومصر في هذه الحالة،لا من ان يحدث تصادم بين الفئات اللبنانية التي تتأثر بها وتستوحيها، فبقدر ما يكون هنـــاك تصادم بين مصر والغرب ، وبقدر ما يتمثل اللبنانيون المسيحيون بالغرب واللبنانيون المسلمون بمصر،يمكن ان يحصل تصادم بين الفئات اللبنانية هذه . ومن الممكن وضع حوادث سنة ١٩٥٨ في لبنان في هذا الاطار وتفسيرها على ضوئه . ان حدة التصادم الذي جرى في لبنان سنة ١٩٥٨ نتجت عن التصادم بين مصدري الوحي ، اي بين الغرب ومصر .

كلمة ختامية

ليس من الضروري الانصهار . ما يجعل المجتمع اللبناني اقرب الى الفسيفسائية ليس عدم الانصهار بل عـــدم التنوع الحر السينفوني المبني على التفـــاهم حول مرتكزات جوهرية ، والحوار الحقيقي الصريح ، والولاء للكل . مـــا يراد هو ان يصبح لبنان مجتمعاً تعددياً تتوفر فيه بالاضافة الى ما ذكرنا مؤسسات تربوية ذات نظام موحد واحزاب سياسية عقائدية ذات قواعد وطنية شاملة ، ودولة مفصولة عن الدين قوية لا تسيطر عليها المؤسسات الاجتماعية الاخرى ، ومصادر وحي واحدة وتزاوج يجتاز المسافات النفسية الاجتماعية القائمة .

قد تكون هذه المطالب خيالية لا يسمح تركيب لبنان بالوصول اليهـــا . لذلك لا بد من اعتبار هذه الدراسة مقدمة تعقبها دراسات سأقوم ببعضهـــا شخصياً حول العوامل والحواجز التي تمنع حصول تغيير جذري في الحياة اللبنانية وكيف يمكن تجاوزها نحو مجتمع تعددي حقيقي يتضاءل فيه نفوذ الطائفيـــة ورجال الدين بدلا من ان يتزايد كما يحدث في الوقت الحاضر . التحـــول هو الحقيقة التي يجب أخذها بعين الاعتبار في تخطيطنا ورسم مستقبـــل لوجودنا فالوضع الراهن هو ،كما يقول **رينه حبشي** « متغير متحول الى حد ان اشـــد

نقاط الارتكاز رسوخاً هي نفسها منجرفة مع التيار ١٦ » . السؤال هو كيف يتم ايقاف هذا الانجراف مع تيار الطائفية . التوازن يجب ان يتحول الى تنوع سينفوني منسجم ومتفق رغم تعدده . ان هذا الاستمرار في التوازن التقليدي يحمل لنا مستقبلاً معبأ بالآلام . لذا يجب تجاوزه عن طريق ما يسميه **رينه حبشي** الثورة الباردة والا تعرضنا الى ثورة او ثورات حامية عنيفة لا يعود شيء في لبنان الى ما كان عليه في السابق . ان الجيل الطالع يحس بهوة عميقة تفصل بين لبنان الراهن ولبنان الذي يريد . ان هذا الجيل لا يرغب بالتوازن والطائفية والفوضى والفردية . انه بحاجة ماسة الى جامعات ومدارس ومراكز ابحاث . انه يرغب في وحدة حقيقية تتجاوز الطائفية وحتى الدين وقيمه ، اذا كان ذلك ضرورياً ، ويطالب بمزيد من الانفتاح والحرية واعتبار قضايا العرب قضاياه قبل غيره وآلامهم هي آلامه في الدرجة الاولى . وهو لن يكون ضد قيام وحدة عربية اذا ما توفرت في الدول العربية المناخات التي يريدها للبنان كالديمقراطية والحرية وتجاوز التقاليد الدينية ، والتسامح والانفتاح . اما اذا استمر الوضع على ما هو ، فإن « الشباب الطالع ، بعد ان يعي ذلك البون الشاسع بين الواقع وما يمكن تحقيقه ، لا يسعه كبت غضبه والسكوت عن فضيحة متزايدة ١٧ » . هذا ما قاله **رينه حبشي** بعد حوادث ١٩٥٨ . فماذا عساه يقول بعد حرب الخامس من حزيران ؟

ان هذا الاحساس بالبون الشاسع بين الواقع وما يجب تحقيقه هو ايضاً احساس الاجيال الطالعة في الدول العربية الأخرى وان غضبها سيكون بمقدار ما تحملته وتتحمله من كبت واجبار على القبول بما لا يُقبل .

ان مستقبل لبنان لا يجوز ان يكون منوطاً بالطائفية والنظام الطائفي السياسي يقول **ميشال شيحا** « ان مستقبل لبنان منوط اساساً بالحرية : حرية في العقيدة وحرية في العمل والدأب ١٨ » .

ويقول « بنسبة ما يستبيح لبنان حرمة حرياته بنسبة ذلك يغدو عرضة للتصدع والانهيار ١٩ » . انه منوط بالاضافة الى ذلك بمدى مقدرته على مجابهة الأوضاع العشر الراهنة المذكورة التي تجعله مجتمعاً فسيفسائياً .

وليس الهدف هو ما يرجوه **ميشال شيحا** في قوله « فجوابنا سيكون بكل حزم اننا هنا اقليات طائفية متشاركة ، هدفها ان تتحد وتتآخى اكثر فأكثر

على الصعيد السياسي [٢٠] » ؛ انه ليس المشاركة والتآخي ؛ فالمشاركة والتآخي لا يرفضان سيادة الماهية الدينية ولا يفترضان بالضرورة تجاوزها الى الماهية القومية . الهدف هو الوحدة الحقيقية الناتجة عن سيطرة الماهية القومية التي ترفض ان تعزل غير الطائفيين وغير المتدينين وحتى الملحدين عن جسم المجتمع او ان تمنعهم من الاسهام في رسم وجوده ومستقبله .

الهدف هو تجاوز الماهية الطائفية الى الماهية القومية فيكون التجمّع على أسس جديدة .

المصادر والملاحظـــات

١ ـ كمال صليبي ، « الوحدة الوطنية والنظام الطائفي في لبنان » ، نظام الطائفية السياسية في لبنان ، الندوة الاولى لاسبوع الفكر الملتزم ، الكتائب اللبنانية،بيروت ، ٣ آب ١٩٦٨، ص ٢٧-٢٨ .

٢ ـ فؤاد خوري ، «الواقع الاجتماعي للنظام الطائفي في لبنان» ، المصدر نفسه ،ص ٣٠.

٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

٤ ـ راجع جريدة «النهار» في عددها رقم ١٠٠٨٦ الصادر في ٣ ايلول ١٩٦٨ .

٥ ـ المصدر نفسه .

٦ ـ راجـع «النهار» في عددها رقم ١٠٠٩٣ الصادر في ٩ ايلول ١٩٦٨ .

٧ ـ فؤاد خوري ، المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

٨ ـ المصدر نفسه ،ص ٣٢-٣٣ .

٩ ـ ميشال شيحا ،«لبنان في شخصيته وحضوره» ،نقله الى العربية فؤاد كنعان، منشورات الندوة اللبنانية ، بيروت ١٩٦٢ ، ص١٨٥ .

١٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٨.

١١ ـ انطوان زحلان ، « اثار الهزيمة وجامعاتنا الوطنية » ، دراسات عربية ، السنة الرابعة ، العدد ١١ ، ايلول ١٩٦٨ .

١٢ ـ Elie Salem, «Cabinet Politics in Lebanon», the Middle East Journal Autumn, 1967, P. 4.96.

١٣ ـ الأب جبرايل مالك اليسوعي ، « الدين والطائفية في نظر المسيحية » ، نظام الطائفية السياسية في لبنان، الندوة الاولى لاسبوع الفكر الملتزم ، ص ١٥ .

١٤ ـ راجـع ايلي سالم في الدراسة المشار اليها وحليم فياض في اطروحته ، «اثر الطائفية في الادارة اللبنانية»،التي اعدت لنيل الماجستر في الجامعة الاميركية فيبيروت ١٩٥٦ . وراجـع R. E. Crow, « Confessionalism, Public Administration and Efficiency in Lebanon ». in L. Binder, Politics in Lebanon , Wiley 2 Sons, 1966.

١٥ ـ Merroe Berger, the Arab World Today, A Doubleday Anehar Book, 1964 P. 294

١٦ ـ رينه حبشي ،حضارتنا على المفترق ،منشورات الندوة اللبنانية ،بيروت ١٩٦٠ ،ص٨.

١٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٥١ .

١٨ ـ ميشال شيحا ، لبنان في شخصيته وحضوره ، ص ١٢٧ .

١٩ ـ المصدر نفسه ،ص ١٢٩ .

٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

شهادات

«انا لا اكتب لهذا الجيل ...»

زكي الارسوزي إنسان فذ، بدأ في اللواء انقلاباً اجتماعياً، كان يعتقد ان باستطاعته استعادته على مستوى الوطن العربي بثورة شاملة تعيد للامة العربية وحدتها ومكانتها . نزح الى دمشق بعد سلخ اللواء ، وفيها وضع الاسس الاولى لحركة البعث . أمضى ثلاثين عاماً كان فيها قائداً ومفكراً سياسياً ، فيلسوفاً ومعلماً . تجاهله خصومه واضطهدوه ، قدسه تلاميذه واكرموه . ولكن لم يفهمه في حقيقته العميقة لا هؤلاء ولا اولئك . يحاول انطون المقدسي في الكلمتين التاليتين استجلاء بعض ابعاد شخصيته : الاولى وضعها اثر وفاة الارسوزي (٢ تموز ١٩٦٨) نشرت في جريدة البعث ، العدد (١٦٢٥) ثم اعاد النظر فيها لتنشر من جديد . والثانية وضعها خلال شهر ايلول خصيصاً لمجلة « مواقف » . نأمل ان تطبع آثاره وتناقش على ضوء تجربته الفريدة من نوعها في حياة العرب .

١ – صوت صارخ في الصحراء

كان ذلك في ربيع ١٩٤٣ عندما حمل الي جمال أتاسي الملازم الاولى من ((**العبقرية العربية في لسانها**)) . وكان المشرق العربي قد بدأ يخوض معركة التحرير في غمرة من الحماسة تلهب القلوب وتستثير النفوس ، وكأننا نتوقع بين عشية وضحاها انبجاس الوحدة من اعماق التاريخ معجزة تعيد للامة العربية امجادها الاولى . واقرأ الكتاب كما يقرأه غيري سائلا متسائلا عن السر الذي ينطوي عليه ، فلا افهم ولا اجد من يفهمني ...

كانت العروبة اذاك شعارا كبيرا يستثير الشبان الجامعيين وينتقل منهم الى التجهيز فالشارع ، فيتلقفه السياسي المحترف يدغدغ به احلام الجماهير عبارات مزيفة تلجم ثورته .

كانت العروبة اذاك فكرة مجردة ، جميلة كالاحلام ، ومنطلقا لمعركة سياسية لم نكن لنعتقد ان الانانيات الشخصية ستخنقها في المهد ، وان المطامع الاستعمارية ستنقض عليها قبل ان تولد . اما هو فكان يعرف ابعاد المعركة ومراميها . كان باستطاعته وحده ان يسبر اغوار الباطن وراء الظاهر . اما نحن فكنا مسترسلين مع عواطفنا ، ذاهلين عن التزييف والكذب فلم ندرك السر الذي انطوى عليه قلبه الكبير فأودعه في صحف وزعت على اصدقائه ووضعت في المكتبات لتنام هناك . كان يعرف انه استنطق التاريخ كلما يستعيد الكلام الاول الذي انبثقت منه الامة ورسالتها.

اجل ، في ذلك الربيع الجميل نطقت العروبة بعد صمت طويل ورميت البذرة في الارض .

ويخرج الزارع ليزرع ، وهو يعلم ان الحصاد سيكون غزيرا ، ولكن الحصادين سيكونون قلة قليلة يتسرب الى قلبها الشك القاتل .

ولكن اذا لم تمت حبة الحنطة فلن تعطي ثمارها ،

وحبة الخردل اذا لم تصارع شوك الارض فلن يتفيأ في ظلها العديد من النـــاس .

اعزل كالغريب ، بريئا كالطفل ، وديعا كالحمامة ، وفي الوقت ذاته حكيما كالحيات ، منيعا كالاسد :

هكذا كان في ذلك الزمـــان .

*

كان اول من فتح معركة التحرير ، واول من سدد الى صدر المستعمر سهما اصبح أسهما تتكاثر باستمرار لتطعن العدو في قلبه .. للحفاظ على اللواء ، لاسترداده . وتتسع المعركة لتتحول تدريجيا الى مسيرة يخوضها الشعب العربي في سبيل الوحدة .

وتبدو له الامة اذ ذاك معنى يبحث عن صورته ، وصورة تبحث عن معناهـا ، كيمـا تتكلـم .

ويترك اللواء مع قلة قليلة آمنت به كما آمن اجدادنا بالانبياء ، قلة سمعت الصوت وإن لم تكن قد ادركت مرماه . فالمنطلق في اعماق التاريخ والمرمى في آفاق المطلق يتجلى قبسا له وحده ثم يغيب ويبقيه حائرا مؤمنا ، حائرا امام المجهول ، مؤمنا بصوت لم ولن يخدع .

ويجيء الى دمشق ، ينتقل منها الى بغداد فحماه وحمص وحلب ، ويعود مرة ثانية الى دمشق ، فلن يستكين قبل ان تلتف حوله عاصمة الامويين (قاتلة الانبياء) ونقطة انطلاق الفتح الاكبر .

في دمشق ، في ذلك الربيع الجميل ، وهو يطوف الشوارع ، استقطبت الصورة معناها ، فاذا بالعروبة تنفض عنها غبار الموت وتبعث كلما يتحدث اليه من اعماق الذاكرة (وذكر ...) كانت خرساء فتكلمت بقول ربما انه هو لم يفهمه للوهلة الاولى . وكنا حوله حيارى ، والخصم ساخر . تلك كانت نواة البعث الاولى .. الاستقلال .. ويكبر جيل ترعرع في احضانه ، لينفض من حولـه .

كانت الحلقات ما تزال تنعقد وتنفرط كما في السابق ، في كل يوم ، واينما اتفق .

لقد تغيرت ابعاد المعركة وتبدلت اهدافها ، فالتحرر الاقتصادي غير التحرر السياسي . ويصبح ، هو ، في نظرهم من الجيل الماضي . لقـــد

فقدوا القدرة على الدهشة امام الكلم الصادق ، فصمت آذانهم واغلق عنى قلوبهم .

اما هو فما يزال سيد المعركة يرعاها كما يرعى القائد جنوده ، ولو تنكروا له . فالمستعمر خرج من الباب ليعود من النافذة .

انا غريب ... غريب عن هذا العالم .

كان عهد الجوع قد مضى وانقضى عندما فتحت الوظيفة امامه ابواب المدارس يعلم فيها الجيل الجديد . ومع ذلك فلم يشعر بالغربة مثلما شعر بها اذاك .

انا غريب ... ما يزال لصدى هذه الكلمة يرن في نفسي استعيده كلما ذكر اسمه امامي او استعدت صورته في ذهني . غريب في تصرفاته ، غريب في كلامه ، غريب في ذكائه يلتقط المعنى من البعيد البعيد ويجسمه صورا تحيط بك وتصهرك في عالمه . غريب عن جيل رباه بعرق جبينه ، فتنكر له كما تنكر اجدادهم للانبياء . غريب كالروح في البدن . وكان روح هذه الامة .

ويعتقد ان الساعة ازفت ليكتب ... وها هي « **رسائل البعث** » تتوالى لتكشف عن آفاق الحدس الاول وتستنطق ابعاد العروبة ، فاذا بالكلمة العربية تتفجر تحت قلمه عوالما وآيات .

ادركت اذ ذاك معنى القول الذي قال ؟ ما ازال حتى الان القي على نفسي هذا السؤال ، ولسوف القيه زمنا طويلا . فقد حمل سره معه .

... واذا لم تمت حبة الحنطة .

*

وتتوالى الاحداث متسارعة : معركة العدوان الثلاثي ، الوحدة ، الانفصال ... وها هي الامة بدأت تسلم مقاديرها للبعث .

واعود من المهجر لاراه اول من أرى .

براءة الطفولة ما تزال تشع من عينيه لتملأ محياه خفرا . في نظراته قوة النمر ، وفي قوامه المستقيم عنجهية الاسد .

نبيل منذ المهد وفي كل تصرفاته . ولقد بقي نبيلا ، لم يمس جسمه ، بله نفسه ، طين الرذيلة .

لم يختصم الناس في هذا البلد (**غير الامين**) حول انسان مثلما اختصموا حوله . ومع ذلك فان احدا لم يجلس اليه الا واصغى الى صوته بخشوع المتعبد ، سواء في ذلك العدو والصديق . ان احدا لم يجرؤ ان يرفع صوته في حضرته . فلقد كان في نفسه من الصدق وفي عقله من العمق ما يجبر الجميع على احترامه .

واجلس اليه ، امشي معه لاستعيد وانا اسمع كلامه شباب الحدس الاول . فاذا بالعروبة تتسع مع نفسه لتحضن العالم وما فوق العالم ، لتحضن التاريخ وما بعد التاريخ .

كانت الحلقات ما تزال تعقد وتنفرط كما في السابق ، وربما ازدادت عددا . ولكن انى لهذا الجيل ، انى للجيل السابق ، انى للجيل اللاحق ان يسمع الصوت الذي ينطق بلسانه .

انه يتكلم بسلطان . ولكن الصحراء تنمو . وتخطر ببالي خاطرة لا اجرؤ على التفوه بها امامه : « **انا لا اكتب لهذا الجيل ، يا بريق حكمتي افقر عيونهم .** »

ولكن لم يكن لسليل الانبياء ، وهو على ما هو عليه من نبالة ، ان

يتزيا بزي نيتشه . كان متواضعا امام الرسالة التي يحمل ، فهي التي تتكلم لا هو (**بشر مثلهم .**)

وحمل بين الذئاب

كرموه ، بالغوا في اكرامه ، فلم تتجل طفولته كما تجلت عندما احاطته السلطات بعنايتها ، فلسانه يتلعثم كالطفل يغدق عليه اهله الهدايا .

ذاهلا غريبا كان امام سلطان هذا العالم . ولد فوق الفقر والغنى وقبلهما . وكثيرا ما كان يتحدث عن نفسه ، ولكن لم يكن ليبعد عن أحاسيسه الذاتية الا في لحظات خاطفة تعد على اصابع اليد الواحدة . انا وحيد ... لم يشعر بالوحدة والغربة مثلما شعر بهما في السنوات الاخيرة من حياته . الكل اصدقاؤه ... كان يعرف منذ زمن طويل ان باستطاعته كسب صداقة الجميع وهو القريب الى قلوب الجميع . ولكنه كان يعرف اكثر من ذلك ، يعرف ان الرسالة اصطفاء ، تقسم الناس الى اهل الميمنة والى اهل الميسرة . ما اكثر اهل الميسرة ، وما اقل اهل الميمنة . فلقد تضاءل هؤلاء وهم على وشك التبخر . واصبح ابن الانسان ، كما كان منذ ان كان ، لا يملك حجرا يسند رأسه اليه . ما اقل المختارين ..

ومع ذلك فقد وضعت البذرة في التربة ، ورب الحصاد هو الذي سيرعاها .

لقد انفرط عقد العروبة ، وكأن رسالتها غابت في الافق البعيد فاصبحت طيفا كما كانت قبل ان تبعث نبتة صغيرة عام ١٩٤٣ : طعنتها السياسة الدولية في قلبها . ناء بحملها ابناؤها البررة . وئدت مع الحرية. ولكن اذا كان العقد قد انفرط واصبح افراده شيعا ، فقد اتسع قلبه هو حتى اصبح باستطاعته ان يضمهم كلهم في عروبة تجسمت فيه فاصبحت هي هو وهو هي . لم تبد قناعة المؤمن على وجهه في يوم من الايام كما بدت في اواخر حياته . فالبذرة التي غرست في اللواء امتدت جذورها من الخليج الى المحيط وسترتفع اغصانها لتظلل أرض العروبة كلها .

*

الآن بعد خمس وثلاثين عاما من المغامرة الاولى ، وبعد ربع قرن من الكشف الكبير ، ها هو ينام مخلفا وراءه صوتا لمن له اذنان سامعتان .

لم ندرك في حياته المعنى العظيم الذي انطوى عليه هذا القلب العظيم ، ولكن هذا المعنى قائم في نفوسنا يدين كلا منا اذا لم يجهد ليصبح بمقياسه .

كان في حياته صديقا واخا للجميع ، ولكنه كان ، الى ذلك ، قائدا وحكما وديانا ، وسيبقى كذلك ما دام هناك من يقرأ لغة العروبة .

فاذا ما تعلمنا فن الاصغاء ، سمعنا مرة ثانية الصوت الذي سمع ، وادركنا السر الذي حمل معه عندما نام ...

٢ – القول القديم

مع الضحى اتيناك مودعين .

لم يتبدل شيء ، فالبيت العتيق على ما هو عليه ، تطل فيحيا وتغيب فيتلاشى ، ورفاق الطريق الاول هناك عيون تترقب ، وآذان تصغي . المعلم مسترخ ، وعما قليل سيطل مشرقا ليواصل حديثا بداه العشية .

القي عليه من بعيد نظرة خاطفة فاراه طفلا استغرق في احلامه الذهبية .
الحي في سكون مدهش ، والغرفة في صمتها الاليف ، النهار ما يزال رطبا حنونا . لا توقظوا المعلم ، بعد لحظات يستعيد نشاطه فيتكلم ، انه يتكلم باستمرار .

وعند الظهيرة يتبدل كل شيء فاعرف انه رحل . الحي خاشع . وموكب الرحيل يعد المسيرة نظاما جليلا صارما . شخوص كثر يملأون المكان لم ارهم قبل اليوم بجواره ، وجوه أخرى احتلت دارا لم تتعرف اليها من قبل .
وفي اعماق البيت امرأة غريبة تسترسل الفينة بعد الفينة في نواح هجين يعكر صفاء السكون ويتعب القلب المتخشع أمام العظمة الصامتة .
والرفاق ، رفاق الطريق ، أين هم رفاق الطريق ؟ تبددوا بين الجموع . ضلوا الطريق فتلاشوا حيارى في متاهة هي بدء الصحراء .
ويطوف موكب أصم مدينة أنهكها حر الظهيرة فاستكانت اليه ونامت ، يتهادى فوقها ، جليلا ، عظيما ، نداء يأتي من بعيد ويذهب الى بعيد :

(الله لا اله الا هو ، الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم)

وأطوف الشوارع بعدها يوما اثر يوم ، مع الصباح ، عند الظهيرة . بعيد المغيب ، أسائل عنه ، باحثا عنه ، القي على الاشياء نظرة أخفيها عن عين الرقيب ، وسؤالا أحبسه في قلبي كي لا يلتقطه الغريب .
هنا كنت تجلس ، هنا كنا نجلس ، فالمقاعد لم تتبدل . هنا كنت تتنزه ، هنا كنا نتنزه ، فالشوارع لم تتبدل .
انتظر لقياك عند كل منعطف . ففي كل بسمة من بسمات دمشق شيء منك ، وكان حضورك ملء المدينة الخالدة . وعلى فجأة أسمع صوتك يعيد قولا ما زلت تعيده منذ ان كنت والى ما شاء الله ، فتستيقظ المدينة من سباتها وتنطق ، ثم يسكت الصوت فاذا بها صماء .

*

تعود بي الذاكرة الى ثلاثين عاما خلت ، يوم سمعتك لأول مرة تعلم . في ذلك الزمان ، سمعت القول القديم :

(وان هذه أمتكم أمة واحدة)

فحملته أمانة في عنقك ، وشددت الرحال تائها في الصحارى تبشر به . في ذلك الزمان أمحى الزمان فاذا بنا في الفجر الاول ، وكأن ابواب السماء قد فتحت بعد أن حجبت قرونا .
براعم تتفتح وتبشر بعطاء كثير ، بدء ملحمة تعيد الملحمة الاولى في حركة تربط الارض بالسماء ، وايام من العمر ــ كل لحظة منها عمر كامل ــ أيام من العمر عشناها معك في ظلال القول القديم بجلاله وقدسيته .
في ذلك الزمان .. ماذا أقول ؟ لم يكن بالنسبة اليك ثمة زمان ؛ فالزمان صورة يتجلى فيها المعنى . وفي آخر لحظات حياتك كنت تعتقد ان الشباب لا يهرم ، وان الفجر فجر الى الابد .

ثلاثين عاما أمضيتها في هذه الربوع الجميلة تطوف الشوارع معلما

ينشر الكلمة الطيبة . كنت تعرف ان بعض البذار يقع على الصخر فلا ينبت ، والبعض الاخر على حافة الطريق تدوسه الأرجل ، وغيره بين الشوك يخنقه . والقلة القليلة ستكون أمل الامة تنقل الرسالة الى يوم يبعث فيه الكلام الاول نورا وهداية كما في الفجر الاول .

كم من المتاهات قطعت ومن الصحارى سقيت ومن العنت لقيت الناس حولك يتجمعون وينفضون ، وانت ، انت وحدك ربان محنك لسفينة تتقاذفها امواج بحر عات ، وقائد لمعركة تضع الامة باستمرار بين الحياة والموت ، بين الوجود واللاوجود . ومفكر وشاعر ومصلح يقوم المعوج ويثقف النفوس كي يستقيم عودها . اجل ، كان الفجر خصبا ، فالرفاق كثر ، والانصار أكثر ، والاجيال الجديدة حشود تتلقف الكلام غذاء يخصبها .

ثم كانت الظهيرة ، والعطش والجوع ، جوع الروح وعطشها ، أنانياتها ، وصلف الاجنبي الدخيل ينخر النفوس فاذا بها جوفاء تنصاع لارادته . فلم تهادن ، لم يهن لك عصب ، لم يلن لك عود . **(فاستقم كما امرت) .**

رأيته على الفراش قبيل الرحيل ، ينتصب كما في أيامه الاولى ليقول الكلام الفصل يرعى به الامة ويسهر على وجودها : كان يعرف ان المعنى القائم في المطلق لم ولن يتبدل . ثم كانت الصحراء وأيام المحنة وساعات التجربة ، والظنون ، والوسواس ، والقلق .

لقد حرفوا الكلم عن مواضعه وزوروا القول ، وما يزالون .. ابتدعوا أسماء **(ما انزل الله بها من سلطان)** وعبدوا الاصنام كما فعل أجدادهم من قبل . لقد تسرب الشرير الى الصفوف ــ صفوف الرفاق ــ وبذر الزؤان والشوك بين حبوب الحنطة .

لم كانت عبادة الاصنام جزءا من كيان هذه الامة تهدد وجودها ، اليوم كالامس ، وربما الى الابد ؟

وتحمل الفأس لتستأصل الشوك والزؤان ، والمطرقة لتحطم الاصنام فتضرب ضربات قاسية تصيب العدو في الصميم . ثم تصيب ــ ويا للأسف ! ــ الصديق والرفيق .

(وان هذه امتكم امة واحدة) ولكن اين هي ؟ لا هنا ولا هناك .. انها في رحمة الله وفي قلبك الكبير ، معنى دون صورة ، وروح بلا بدن . ويخيل اليك انك اصبحت شبحا يطوف فوق الاشياء هائما دون مأوى ، كالامة التي كادت تتبخر بعد أن اصبح الرفاق والاصدقاء شيعا واحزابا . فتعرف انك لست من هذا الجيل .

هل تسرب اذاك الشك الى قلبك ؟.. ربما .. ولكن **« ساعات التجربة »** كانت قصيرة ، فانت تنتظر عودة الرفاق والاصدقاء لتحضنهم كما يحتضن الاب ابناءه . وكنت غفورا كالذي اختارك معلما . فمن سمع القول عليه ان ينقله ، ومن رأى الحقيقة عليه ان يشهد لها . وما تبقى يعطى فضلا من لدنه .

وكان ايمانك بمقياس رسالتك .

*

لم يكن تحت امرتك جند أو خدم . لم تملك ذهبا و لافضة ولا عتادا . لم تحمل اي لقب من القاب هذا العالم . وانما كنت اميرا في عالم

البيان . سلاحك الكلمة ، وكنزك حدس مشرق يلتقط المعنى فيضا من الصور .
الاشارة ، الايماءة ، الدعابة ، الجواب المحكم : ذلك كان عتادك ، وان احرجت فالنكتة اللاذعة تحيط بالخصم فتصيب منه مقتلا ، اذ كنت ترى في كل انسان آيته المثلى قائمة في الملأ الاعلى ، ثم كيف تردت عنها صورته فزاغ عن جادة الصواب ، وتقذف هذه في وجهه فترديه .
ولم تكن لتؤذي بل لتهدي اذ تواصل قولا يستجلي في الحادثة اليومية مسيرة الامة ، وفي المشكلة العادية حكمة الوجود ، فتربط الحاضر بالماضي والمستقبل ، وتتدفق في كلام يملأ المكان نورا ، والقلوب علما ، فترقى النفوس معك الى الاعالي حيث يصبح الجاهل عالما والصعلوك بطلا .
عبقريتك ، بديهة أبدا حاضرة في خدمة ذكاء خلاق ، وخيال يبدع الوجود ــ الواقع منه والممكن ــ صورا وقدرة على التعبير تتلاعب بالكلم كالعازف البارع على كمانه، ترقى بالسامع الى حيث يتحد المرئي باللامرئي .
وكان من أثمن ما فقدناه برحيلك ايقاع في صوتك كالانشاد لا يسجل على ورق ولا يسطر في صحف ، فيه تغني الارض التي انبتتك والتاريخ الذي ولدك والامة التي عشقت .
بلا تلاميذ : فالقول لا يعاد ولا يستعاد ، وانما هو في غياب أو في حضور . لا أقرباء ولا أهل : أهلي وأقربائي هم الذين يسمعون صوتا سمعت .

وتنقضي المرحلة الثانية من نهارك بعد أن انقضت الاولى .
هل تبددت تجربة اللواء وضاعت في متاهات الصحراء ؟ هل أحرقها حر الظهيرة فيما أحرق من أحداث جسام مرت على الامة ؟ هل طوى النسيان القول الاول فيما طوى من تراث عظيم ؟
ان الذاكرة هي الامة ، فكنت مذكرا . وسيعود القول القديم عندما تدق ساعة **(آتية لا ريب فيها)** . ولكن الهمم خارت أمام الحدث الخطير، والاكتاف ناءت بأمانة عجزت الجبال عن حملها .

وتبدأ المرحلة الثالثة من نهارك وقد نفذ الدخيل الى قلب الامة يهددها في عقر دارها .
(سيفضي اليك ربك بما هو احسن) : هكذا تراءى لك اذاك مصيرك حلما أقوى من الواقع ، وخيالا أصدق من الحقيقة . وكان مصيرك حلما عظيما . فتأخذ القلم بعد السيف لتحارب أصناما عششت في العقول فجمدتها . تأخذ القلم لتكتب ، حاملا رسالة الامة الى العالم ، وعبقرية الاجداد الى الاحفاد ، علما يعزل الزؤان عن القمح ، ويعصم المستقبل من شطط الحاضر . فكانت **« رسائل البعث »** صفحات مشرقة ، تكشف أسرار أمة أودعت عبقريتها لغتها تراثا الى الابد .
في البدء كان المعنى ، والمعنى تجلى صورا تستقطبه وتحققه . فاذا ما قصرت الصورة عن معناها تردى المرء عن آيته ، وتردت الامة عن مستوى وضعته فيها العناية .
على هذا الشكل بدت لك **« العبقرية العربية في لسانها »** والامة في صعودها وهبوطها ، في مدها وجزرها .
الروح لا تمرض وانما البدن هو الذي ينحل .
المعنى لا يتبدل وانما الصورة هي التي تتفكك وتتشوه عندما تصفر

النفوس وتفقد الشعوب ذاكرتها فاذا بها في متاهة الضياع ، واهية كبيت العنكبوت ، غبية **(كالحمار يحمل اسفارا)** .

عندئذ تحل التفاهة محل القول ، ويصبح الكلام ثرثرة ، واللغة لغوا . هكذا كنت تعلم وما تزال .. شاعرا كأجداد عشقوا الشاعر فجعلوا من قوله القول الفصل ، ومفكرا يقيم حوارا مع الاغريق عجزت فلسفتنا في الماضي عن اقامته ، فتضع ذاتك ، وحدك ، بمقياس الغرب كله !

لكن ما الفن والشعر في ميزان المصير ؟ ما الفكر والفلسفة في ميزان المطلق ؟

كنت راعيا لرعية تقرضها الحشرات في الداخل وتنهشها الضباع في الخارج . ولكم انتصبت بملء هامتك أسدا يسحق الافاعي ويمزق الذئاب ، وقائدا لأمة نبتت في الصحراء فكانت الصحراء قدرها . وكاهنا لعقيدة لم يكتبها قلم بشر ، ولم يتلفظ بها لسان انسان ، إن **(الاسماء تهبط من السماء)** .

التخلف ، كنت تقيسه لا بمعايير تجارية استنبطها الاجنبي ، وانما بمعيار المثل الاعلى **(ولله المثل الاعلى ولكم مثل السوء)** . ولكن أين هم حملة الرسالة ؟ اين هم رفاق الطريق تلقوا الصوت في فجره بكرا ؟ الهتهم شؤون الارض عن شؤون السماء ، فأصبحوا من أبناء الارض . تاهوا في الصحراء تبتلعهم الواحد اثر الاخر ويلتهمهم حر الظهيرة . ما أكثر المدعوين ، ما أكثر المتطفلين ، ما أكثر الرعاع ، وما أقل المختارين ! احببت الرفاق بمحبة لم ولن يدركوا غزارتها . فكنت تعيش افراحهم واحزانهم وآلامهم بكل جوارحك ، ثم تكبت الحب في اعماقك لتكون قائدا قبل أن تكون صديقا ، وراعيا قبل ان تكون رفيقا . تلك كانت ارادتك العميقة : أن تهب للعروبة قلبك ونفسك وكل خلجة من خلجات حياتك . ولكنك كنت تشعر احيانا ، بعزلة رهيبة فيتسع قلبك لتخطاها ، ثم يكبو تحيط بك الظنون ، ويغزو قلبك **(الوسواس الخناس)** فتصطنع المؤامرات تزج فيها القريب قبل الغريب والصديق قبل العدو .

الكبرياء المجروحة ، وفردية **الاعرابي** الكامن في كل منا ، حذر قديم ، قدم الكلام الاول . تلك كانت محنتك : الضعف البشري صحراء رهيبة وظلمة مخيفة يحيطان بك فيجف القلم ويتقلص الكلام ويغيب المعنى في آفاق المجهول .

(لا تخافوا مما يميت الجسد بل مما يهلك الروح)

في اوقات المحنة هذه كنت تطوف المدينة لتذوب في الشعب تعيش معه في كفاحه اليومي ، تتأمل في نبضات قلبه حيث ما تزال الذاكرة ـ ذاكرة الماضي القديم ـ حية تتحدث في الاشارات والحركات العابرة ، في الكلمات والعبارات السائرة ، وفي الاحكام العفوية . فيعود اليك صفاء الروح وتمتلىء نفسك غبطة . ما تزال الامة حية في الاعماق ، فمن يوقظها فتبعث ؟

ان البعث كان نصرا مستمرا على الموت ، وعصا موسى ما تزال قادرة على تفجير الصخر ماء فراتا .

لم يكن من هذا الجيل : ضيف تنكر له بلد كان في ذلك الزمان محط رحال الضيف . غريب ، كالغريب ، يأتي من بعيد ويذهب الى بعيد ، حاملا رسالة المجهول . هناك غرباء قبلك انقذوا القريب ، وضيوف كانوا أصحاب الدار . لك رفاق وانداد ليسوا من هذا الجيل ، كانوا قبلك

وسيأتون بعدك : فالكلام العظيم يسبق القرون كما يسبق المصير الوجود . ويؤنسك في وحدتك هذه ملجأ تخفيه عن عين **(العذول)** : هو الجمال تقنصه كما يقنص الحب الحبيب : في بهجة دمشق ، في اريج غوطتها ، في ورودها ورياضها ، في الوجود يبدو لك **(حسنا كله)** كما في اليوم الاول .

حرا كنت في عالم يبيع الاحرار بثلاثين من الفضة . ومعلما في دنيا جعلت من العلم سلعة تباع وتشرى ، معنى في مجتمع اللامعنى والعبث ، نظرة تدل في وجود ارادوه أصم أبكم ، وتاريخا كاملا تجمع فيك ينفض عنه غبار الموت ، بين أناس وضعوا تاريخهم في المتاحف ، يعبدونه العشية ليلعنوه عند الضحى . حاصرك العدو حياتك كلها فحطمت السلاسل بضربات محكمة جعلت الناس ينفرطون من حولك احتراما واجلالا وجهلا . أحاطت بك الاصنام فدستها بقدميك وواصلت سيرك ، وعيناك عالقتان بالمعنى الذي رأيت . وعلى ليالي الرحيل طافت على محياك مسحة من الكآبة زادتك مهابة . لم ارك يوما متشائما مهزوما ، فأوقات الوهن كانت عابرة تتجاوزها قوة تتجدد فيك باستمرار ، حياة من لدن من بيده مصير الامم والشعوب ، وحياة البشر فرادى وجماعات . وكنت به مؤمنا . سيان تجمع الرفاق أم تبددوا ، فالمعنى فوقهم وفوقك ، وسيكون لك رفاق أخر ليسوا من هذا الزمن ، عندما تدق الساعة فيسمع الناس مرة أخرى القول القديم .

واذا كانت **(هذه امتكم امة واحدة)** فهي قائمة في اعماق النفوس ، وفي قلب من **(وسع كرسيه السموات والارض)** . وعلى كل منا ــ سواء في ذلك الفرد والجماعة ــ ان ينشئها في داخله وحوله . أما أنت ، فكنت أمينا على ما ائتمنت عليه . نوديت فلبيت ، دعيت فاستجبت ، وعندما طلب منك أن تعود ، نشرت الشراع وأبحرت تاركا الامر لمن بيده الامر .

من مشارق الارض أتى ليسافر مع الغروب الى حيث لا مغرب ولا مشرق ، وخيم الليل على الرفاق وعلى البلد الذي ضم الرفاق . مع الفجر انبثق ، وكما تلملم الشمس أشعتها عند المغيب ، طوى الورقة الاخيرة من كتاب حياته وانطوى معها .

مع الربيع رحل المعلم ، يا رفاق الطريق ، تاركا دمشق لحر الظهيرة ، وكان موسم الحر هذا العام طويلا قاسيا ، سنوات عجافا وأجيالا ظماى . كان يحب خريف دمشق يفتح صدره لنسيمه عندما تضيق به دنيا البشر ، وماءها يروى به ظماه عندما تحاصره الصحراء .

دمشق التي اختار لتصبح فيها تجربة اللواء تجربة الامة . الخريف يعقبه الشتاء ، وسنسمع صوته مرة أخرى في دمشق هذه مع تباشير الربيع . فلن نزور يا رفاق الطريق ، مكانا ضيقا أودعوه فيه ، لن ننثر الازهار والرياحين على ضريحه ولن نذرف الدموع . فالذي حطم الاصنام لن يصبح صنما ، ولن نبيعك بثلاثين من الفضة ، بل سنظلك مع الضحى ، وعند الظهيرة ، وبعد المغيب ، وسنلتقي بك في منعطفات دمشق وفي ساحاتها عندما نصغي الى القول الذي سمعت . سندق الباب ونأتي الى الغرفة القديمة نلقاك مع الفجر عندما ننصاع لما به أمرت .

ففي هذا البلد ، بلد البزوغ الاول للحقيقة ، بلد الشرق ، بلد الربيع ، بلد الفجر ، مع الفجر ، ابناء الفجر ، يسمعون القول فيبعثون ، وتزهر الصحراء وتثمر .

انطون المقدسي

ماذا تنفع الكلمات ؟

١ - محنة التجربة

ما اطيب العيش لو ان الفتى حجر
تنبو الحوادث عنه وهو ملموم
تميم بن مقبل

اجفان اولادي المقرحة واجفان اصدقائهم ، اوراق امتحاناتهم المهملة ، ودمع المحنة . وانا ، في دوامة الفجيعة الخاطفة للقلب ، أحاول الترفيه عن الاجنحة المكسورة ، مطاولة ذرى لا وجود لها ، محاولة ابدا تسكين الام القهر . كانت حول اجفانهم خطوط الارهاق ، والقلق ، والعار الذي لم يخلق للبشر . كانت نظرات اعينهم سوداء كالحبر ، مفعمة بالانكار والاتهام . بكاء صديقي الاديب على الهاتف وحده كان رسالة متأخرة بأن هذا الجيل ، جيلنا نحن ، لم يزل قادرا ــ احيانا ــ على الانفعال .

ولكن قاصمة الظهر كانت اكبر منا . من بعدها انكسرت نظراتي . قبلها ، منذ سنوات ، كان قلبي يتحسس طلائع الفجيعة :

آه ، لا سر نواريه عن الكون ، فهذي ريحنا
بعثرت اسرارها
وساروي السر ما دمنا هدرناه لاهواء الرياح الاربعه
نحن زغنا عن جموح الزوبعه
ورجعنا دون ربان ولم نشعر ، وهذي روحنا
بلغت اغوارها . . . (١)

كان الحدس يشير الى درب الفجيعة ، والعقل يرفض ان يؤمن بأن التحرك الذي قام اخيرا ، منذ سنوات ، قادر على ان يقود الى درب الخلاص :

عراف الريح يعذبني
ويداورني ويخادعني
ويحدث اخبارا كبرت
« ففدا ستشع مجنحة
رايات الشمس على مدني

---

١) مؤتمر القمة الاول .

وغدا سأحرر من كفني »
واكتبه !
أأصدقه ، وانا لا ارض ولا احباب ولا مصباح يظللني ؟
وانا في اللجة اشرعة
ترتاد اليم بلا سفن ؟ (١)

نعم منذ سنوات وقلبي يتحسس هذه الفجيعة التي مسحت ماسي الزمن الاخرى ومحت الاحزان الشخصية . لقد مر اكثر من عام واللهب لم يزل مشتعلا باردائنا والجلد يشوى كل يوم ويكتسي كل يوم .

ماذا تنفع الكلمات ؟ هذه جهنم الدنيا والاخرة .

ملك الارض المقدسة ، عدونا ، تعثر بالصواريخ الجوفاء الرابضة في الصحراء ، واسمانا عشاق البلاغة والكلمات ، وهكذا ، فبعد سنة من الشي وستر القروح ، من التقلب في مقلاة الزمن ، لم نزل نتبادل التعازي والتفاسير والهوامش ، لم نزل نمزج الادهنة والمراهم ، ونردد التعاويذ .

كان نديم البيطار اقلنا جميعنا خيبة فأل في حزيران ١٩٦٧ . فجعته ولكن لم تدهشه هزيمتنا (٢) . فعلى رأيهما كان ممكنا لنا ان ننتصر وقتئذ . لم تكن عندنا قوى الروح ، ولا توهج الايمان الذي يدفع ــ كنا لم نزل ارقاء الماضي وعبيد اسلوبه . في تموز كتب يقول ما معناه : من هنا يبدأ التحرك الحقيقي . التاريخ معنا والهزيمة في جانبنا . فزعت بالرسالة الى الاولاد ــ ذلك الجيل الحامل للعب ، الاخير ــ امسح جراحهم . وللمرة الاولى سمعت تغريدا في البيت .

تغريدا ؟ ام اغنية هجاء لجيلنا اسمع انا كل يوم ؟

ولم لا ؟ لولا ان جيلنا لم يزل يعطي يامي ! ابنتي هذه كورت نفسها رمزا في عيني وفي قلبي لاوجاع الجيل الفتي ، للعب ، الذي رميناه في صدره ، وجهها يعترض دوما طريق الشعر والتفكير ، ويعذبني كلما فكرت في الوطن .

(لولا ان جيلنا لم يزل يعطي)

عصفورتي الصغيرة اتخذت لها منقار صقر وراحت تطاردني . اليست الدماء التي تسيل من جلدي ، يا غزالة نافرة ، دليلا على اني لم ازل انسانا ، على اني لم اتحجر بعد ؟

اسمعي .

عندي حكايا كثيرة ارويها لك ، فذاكرتي عشب اخضر ، شريط لا يتوقف ، هلوسة قلب اذابه المنفى السحيق . ذاكرتي طاحونة هواء تدور مع الريح .

وكما تستحضر الارواح المهاجرة استحضر في الذاكرة ليالي بيروت ودمشق الطويلة المثقلة بالحدة والصدام . كنا نجتمع حلقات تؤلف بينها رغبة النقاش ويبعثرها تنافر لا يطاق ، كان اول ما يصطدم به الواحد منا هو نتوءات نفسه ذاتها ، ثم نتوءات الاخرين : نقاشنا الطويل يدور حول نفسه كدراجة على حائط مستدير .

بامكاننا ان نسمي تلك الليالي متاهة الروح الحقيقية . كانت المقاهي ومجالس الادب مرتادنا الدائم كنا نتكلم عن الثورة والكفاح والتقدم ، عن الحرية

---

١) المؤتمر الاول لمنظمة التحرير .

٢) راجع كتابه « الفعالية الثورية في النكبة » (١٩٦٤) وفيه يتنبأ بما حدث .

والديمقراطية والانسان ـ كلمات ذهبية خلابة ، جديدة علينا بعد قرون النعاس والفراغ ، ولكنها عتيقة في حساب الزمن العتيق ، بلتها اوروبا ولاكتها قرونا طويلة قبل ان نفيق عليها نحن ونشهق كاننا اكتشفنا ارض القمر .

واستولى علي في دوامة ذلك الهذيان الطويل الغامر احساس غريب باني لست موجودة . كنت اشعر بان كلمة السر ضاعت منا ، وزاغت منا القدرة على ان نضع اصابعنا على الجرح . كنت احب اصدقائي الكثيري الوجوه والالوان ، فهم وجوه الانسان في موطني ، ومعهم في ذلك التيه كنت ابحر وابحر ـ غير ان عالمي بدأ يصبح سرابيا غائما الى ان عجزت اخيرا عن الانتماء الى اي من العوالم الكثيرة التي تناوشت حياة الوطن ، مدفوعة الى ذلك بمحض الحدس . ثم اكتشفت اخيرا باني اصبحت قتيلة هذا التيه . يومئذ كتبت :

انا وحدي التي احيا
لانـي مت بالامس
نقاء الثلج لف بصمته راسي
غشتني لجة النسيان تشفي الطعنة الخرساء في نفسي
افيض نقاوة في الموت ، هل جاءتك اخباري ؟
انا ام ، انا انثى بلا حب
وامس قضيت من عاري
بلا قلب ، بلا وطن ، بلا دار
بعيدا دون اسراري !
تطاول غربة الاعماق ؟ حاذر كشف اسراري
ستبصر رعبك المكتوم ... في قلبي .

(السفينة الغارقة ، ١٩٦١)

واخيرا فزع بي عن هذه الاجواء احساس لا يحتمل بالبؤس والكآبة. بالعجز عن تقبل الواقع . كان احساسا غامرا بان التناقض بين حياتنا الثورية واصالة المفهوم الثوري جذري وسحيق ـ وبأن التسوية التي تهيمن على تحركاتنا جميعا ستقودنا الى الخراب . وابتلعتني الغربة :

على تخوم الوطن الجريح
رميت افعى الذكريات الطوال
ربطت افراس ابي ، سرجت مهر الريح
بعت حكايا جدتي للريح
وصدر امي عفته في الرمال . (١٩٦٦)

الغربة جرح الحب وسماؤه في آن واحد ، نخسر فيها مسافاتنا ونستعيد مسافاتنا . منذ ثلاث سنين وانا اشربها في قلبي ، محاولة ان استرجع ابعاد الرؤيا التي هي حياة الشعر ، حاملة ابدا منظارا يطل على الوطن .

ولكن ما اقصر خطواتنا في الغربة !

(لندن ٥ ـ ١٠ حزيران ١٩٦٧)

٢ - تحرروا منا

قصة اخرى ارويها لك .
يتحدثون عن ارهاب حاق بنديم البيطار في بغداد (١) ، بلد الثوار ومنتفعي التكايا ، عاصمة المعتزلة والدراويش . نديم البيطار ، مفكر فدائي من جيل امك ، ثائر هاجت مرارته واشتعل عقله وتوقد فيه القلب والروح ، انت تعرفينه .
لا ، ليست القضية فقط قضية حرية الفرد في ان يقول ما يريد ، في ان يتوهج او ينطفىء ، في ان يتكلم او يصمت . انها اشمل من هذا واعمق بكثير . ففي لحظة واحدة التقت تناقضاتنا وتواجهت بكامل سلاحها : اقاصي حدود التجربة الفكرية والروحية ، واقاصي حدود التحجر .
الحقيقة الاولى التي تكشفها قصة الارهاب والاعتداء هذه هي ان الرجعية العربية لم تزل تهيمن على اوضاع الحياة عندنا ، لم تزل نابضة الاعصاب بيننا ، قادرة على الاخذ والتسلط ، على اغتصاب نقاء الفكر الثوري الرفيع ، على تشويه معالم الحياة الجديدة التي اصبحت من حق الجيل الجديد .
اهمية القضية هي انها تكشف عن حقيقة صراعنا الاول . فمن خلال تجربة واحدة نعرف السر : انه لا يكمن في ان عندنا نقصا في الينابيع بل في ان عندنا مزيدا من المستنقعات .
هذا هو صراعنا .
لتكن اذن معركتكم هي ان تجرف الينابيع ، ينابيعنا السواقي وينابيعكم الانهار مياه المستنقعات الى البحر .
حيوية اللحظة الراهنة هي انكم تمسكون كما لم يمسك جيل عربي اخر من قبلكم ، بنقطة من الزمن لعلها من احرج لحظات التاريخ الانساني قاطبة . عليكم ان تقبضوا على مصيركم بايديكم ، ان ترفضونا ، وتتخطونا وتندمجوا في حركة الجيل الجديد في العالم . انه جيل رافض ومتحرر تحررا جذريا من هالات القداسة المتحجرة التي تحوط تماثيل ابائه ، صانعي الزنزانات والمجازر . انه من ابعد اجيال التاريخ عن الشعوذة والترقيع والوحشية . صادق ، مناضل ، محب للانسان .
انتم ستجدون في العالم العربي سدودا وحواجز كثيرة تعترض طريق تحرركم من جيل آبائكم : اهمها هي ترسباتكم المزروعة فيكم منذ طفولتكم . غير ان هزيمة امة واربعة جيوش في خمسة ايام معدودات يجب ان تكون قادرة حتى على تفجير الصخر واخصاب الرمال .
انتم كونوا الطوفان المخصب .
ونحن ؟ آه ، اذكروا اننا نحن الذين دفعناكم الى هذه النقطة الحيوية من الزمن . جهلنا ، حماقاتنا ، غرورنا ، تجوفنا ، زيفنا ، فشلنا الذريع ، كل هذه مجتمعة قذفتكم كما تقذف الصواريخ الى قلب عصركم ، وعليكم ان تختاروا الآن بانفسكم تصوركم الجديد للحياة .
القوى الرجعية في جيلنا رمال هوارة ، قادرة على الابتلاع . انها ستحاول ان تقف في طريقكم كما تقف في طريق كل مناضل غاضب ثائر

(١) تعرض الدكتور نديم البيطار الى محاولة اعتداء مدبرة على صعيد غوغائي عام تستهدف قتله في بغداد عندما كان يلقي محاضرة تدعو الى علمنة العقل العربي . وتبع ذلك فتوى عامة بهدر دمه.

الانفة والكبرياء . وكما اقتحمت صرح الفكر ونبالة التمرد في اعتدائها على نديم البيطار ستقتحم عليكم كل بوادر استقلالكم وبسالتكم .

جيلنا ، جيل الهزيمتين ، لن يعترف بان رمال الرجعية تلفه حتى الرأس . ما اشد ظلمة عينيه ! انه سيحاول ان يفرض عليكم عجزه الطبيعي ، عنّته الروحية التي حاصرت صباكم حتى قبل ان تولدوا . ولكن تذكروا ان اللفظ « الثوري » الذي صدر عنه عبر عشرين سنة (وعوده الكبير المخادعة ، انذاراته التي لم تقتل الا العنفوان ، مؤتمراته المظهرية الباذخة ، اذاعاته البليغة ، خطباؤه المضجرون) كل هذه ، لم تستطع ان تطلق من الاسر قوى الامة الروحية . ان جيلنا بقي جيل تسوية وترقيع .

فانظروا انتم اين تحسم التسوية لتبدأ الثورة .

السنوات تقفز بهذا القرن عبر فضاء متسارع . انها لا تعرف الصبر . لقد امتدت روحها المغامرة الى عظام الجيل الجديد في العالم وبدلت نظرات عينيه ، فلا تتركوها تتخطاكم وتعدي عنكم الى اخوانكم في الشرق والغرب .

هذا ايضا ما يقوله نديم البيطار ، بكلماته النارية . دعوته دعوة جذرية لا هوادة فيها ولا تسوية الى تحرير الحياة العربية من الازدواجية الفكرية والزيف والرجعية والجهل والاجترار ، من العقلية الغيبية الاتكالية من تحجر القرون الوسطى ونشازها وهيمنتها على حياتنا. ودعوته موجهة اليكم . انها احدى الثمار القليلة الناضجة التي سقطت عن شجرة جيلنا العجفاء

فليكن سقوطها على ارض مخصبة .

سلمى الخضراء الجيوسي

الوضع الجامعي في لبنان

هل الجامعة في لبنان مسألة إصلاح أم مسألة ثورة ؟ نحن نعتقد أنها مسألة ثورة . فليس لنا بعد جامعة لبنانية . وما نزعم اليوم أنه الجامعة ليس إلا بؤرة تتجمّع فيها قوى الانحطاط والتخلّف التي تتغلغل في الحياة اللبنانية ، وتهيمن عليها. لذلك نعتقد ،مع احترامنا لوجهات النظر المخالفة، أنّ محاولة « إصلاح » هذه الجامعة ، ليست إلا نوعاً من محاولة تحويل القش إلى ذهب ، والمستنقع الى نبع كنبع صنين.

مع ذلك ، نبدأ ، في دراسة الوضع الجامعي ، بنشر ثلاث دراسات تتباين في النظر ،لكنها تتفق على الانطلاق من الاصلاح،لا الثورة. وهدفنا من ذلك هو أن نتيح المجال لممثلي الإصلاح ، لكي يعبّروا عن وجهات نظرهم وعما يرونه كفيلاً بتحقيق الجامعة التي يتطلعون اليها .

الدراسة الاولى كتبها بالفرنسية سليم عبو،دكتوراه في الآداب،أستاذ في الجامعة اليسوعية ومدرسة الآداب العليا . وكتب الثانية منير بشور،دكتوراه في التربية ، أستاذ التربية في جامعة بيروت الاميركية . وكتب الثالثة حافظ قبيسي ،دكتوراه في الرياضيات ، أستاذ في كلية العلوم بالجامعة اللبنانية.

واذ نبدأ بنشر هذه الدراسات نفتح المجال لوجهات النظر الاخرى،مؤكدين أن مسألة الجامعة اللبنانية ليست مسألة اصلاح، بل مسألة ثورة:تغيير كل شيء من الاساس ، وبناؤه ثانية من الاساس ـ بروح العلم والتقدم ، وبهاجس المستقبل .

سليم عبو

حول الجامعة في لبنان

منذ ايار ، اعني منذ الثورة الطلابية التي هزت اسس النظام في فرنسا ، يتساءل بقلق عدد من المسؤولين اللبنانيين ، في الحكومة والجامعة ، عما اذا كانت العدوى ستنتقل الى طلابنا . وهم ينتظرون ، بشيء من الخوف ، بداية الدروس في تشرين الاول . ومن المحتمل جدا ان تكون السنة الجامعية ١٩٦٨ — ٦٩ ، في لبنان ، اكثر اضطرابا من السنة التي سبقتها ، لكن ذلك لن يكون بالعدوى ، ولن يكون تقليدا . ان تمرد الطلاب في فرنسا وغيرها من البلدان الاوروبية كشف دون شك ، للطلاب اللبنانيين عن مدى الضغط الذي يمكن ان يمارسوه على **السلطة** لكي تصغي الى مطاليبهم . لكن هذه تختلف عن مطاليب الطلاب الاوروبيين .

تضمنت ثورة الطلاب الاوربيين وبخاصة الفرنسيين ، فيما وراء المطاليب الملموسة ، عنصرا ميتافيزيائيا ، نوعا من اعادة النظر الجذرية في نموذج حضاري ، هو النموذج الذي يميز المدنية الصناعية ومجتمع الاستهلاك . نحن في لبنان بعيدون عن ذلك . فما يريده طلابنا هو ، ببساطة ، جامعة جديرة بهذا الاسم . الا أن هذه المسألة تتجاوز مسألة تجهيز **الجامعة اللبنانية** . او ان هذا التجهيز لا ينفصل ، على الاقل ، عن مسألة أعم هي تعدد الجامعات القائمة في بيروت وتباينها .

ليست المسألة هنا ان نصف بطريقة علمية هذا التنوع او ان نقدم له حلا معينا . ان المعطيات الدقيقة ، بالنسبة الى اولى هذه المهمات ، تنقصنا والتحليل ، الذي لا يستغنى عنه ، ينتظر من يقوم به . اما فيما يتصل بالحل فلا يمكن ان ياتي الا كثمرة لاعمال طويلة وافية تنجزها جماعات جديرة من المسؤولين والاساتذة والطلاب . اننا هنا نقتصر على عرض النتائج المخربة لتعددية الجامعات كما هي قائمة حاليا في لبنان، وعلى تحديد بعض مبادىء الوصول الى الحل .

تعددية الجامعات

من اللائق ان نشير بادىء ذي بدء الى حجة الذين يسوغون وهم كثر ، الوضع الجامعي في لبنان ، باسم التعددية . ان التعددية التي تقوم على **تحقيق** التنوع في الوحدة ، قيمة بلا شك . **التعددية واقع بسيط ، محايد بذاته** ، تصبح قيمة اذا انصهرت في تعددية صحيحة ، وقديكون الحل الامثل ،كماسيوضحه استنتاجنا ،لمشكلة الجامعة اللبنانية ، قائما في اتجاه التعددية . انها على العكس تتحول الى قيمة مضادة اذا جمدت في التنوع والتباين الخالصين : تلك هي الحالة في لبنان اليو م.

اربع جامعات ، تعود اثنتان منهما الى ما يقارب القرن : جامعة بيروت الاميركية التي تأسست سنة ١٨٦٦ ، وجامعة القديس يوسف ، التي اسست سنة ١٨٧٥ — والاخريان هما على العكس حديثتان جدا : الجامعة اللبنانية التي بدأ تأسيسها سنة ١٩٥٣ بمعهد المعلمين العالي واكتملت سنة ١٩٥٩ ، والجامعة العربية التي تأسست سنة ١٩٦٠ ، ويمكن أن نضيف الى جامعة القديس يوسف تكملتها الطبيعية ، مركز الدراسات الرياضية ومدرسة الآداب العليا وقد انشئا سنة ١٩٥٤ .

من الملائم ، لكي ندرك مدى التباين في العالم الجامعي اللبناني ، ان ننظر أولا في النظام الثقافي النافذ في كل جامعة بمظاهرة الثلاثة : البرامج ، لغات التعليم ، مستوى الدراسات .

هناك ، من ناحية البرامج ، تقارب وثيق بين جامعة القديس يوسف والجامعة اللبنانية ، لان هذه الاخيرة تبنت عمليا ، منذ تأسيسها ، النظام الثقافي الفرنسي الذي تمثله في لبنان جامعة القديس يوسف . بينما لا نجد عمليا اي تقارب بين جامعة بيروت الاميركية وجامعة بيروت العربية المرتبطة بجامعة الاسكندرية على الرغم من تراث مصر الانكلوسكسوني .

ومن ناحية اللغات الاجنبية ، فان الازدواجية اللغوية هي المبدأ القائم في ثلاث جامعات : القديس يوسف ، الجامعة اللبنانية ، الجامعة الاميركية . بين جامعة القديس يوسف التي تتبنى الازدواجية الفرنسية — العربية ، والجامعة الاميركية التي تتبنى الازدواجية الانكليزية — العربية ، تقبل الجامعة اللبنانية مبدئيا هذين الشكلين من الازدواجية . والواقع ان الازدواجية الفرنسية — العربية هي التي تسيطر فيها بوضوح ، بحيث ان التقارب ، في هذا الميدان اللغوي كذلك ، يتأكد بين الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف . اليس من المدهش كذلك ان يكون هناك ضغط منظم تمارسه الجامعة الاميركية على الجامعة اللبنانية لكي يكون للانكليزية فيها فعليا المكان نفسه الذي تشغله اللغة الفرنسية ، والذي تمارسه جامعة بيروت العربية نفسها ، الوحيدة اللغة ، من اجل أن يتضاءل فيها تدريجا دور اللغة الاجنبية ، بشكل عام .

اما من ناحية مستوى الدراسات فان جامعتي القديس يوسف وجامعة بيروت الاميركية تحافظان وحدهما على مستوى جامعي صحيح . ولا بد مع الأسف من الاعتراف بأن الجامعة اللبنانية تجاهد ، بصعوبة ، لبلوغ المستوى المرجو ، لان اساتذتها ليسوا كلهم مؤهلين . اما جامعة بيروت العربية فتبدو ، على الرغم من مزايا اساتذتها المنتدبين من الاسكندرية ، اكثر اهتماما بعدد الطلاب منها باعدادهم . وهي من اجل اجتذاب العدد

الكبير تسهل كثيرا فحوص القبول ولا تتردد في قبول جميع الطلاب الذين رسبوا في الامتحانات في الجامعات الأخرى ، وبخاصة الجامعة اللبنانية . وهي لا تتشدد الا مع المجازين الذين يودون أن يحضروا رسالة الدكتوراه في جامعة الاسكندرية . انها من هذه الشرفة ، تقيم حصارا حقيقيا لأنها اذا لم تهتم ، لأسباب دعائية ، بما ستسببه من تدني مستوى التعليم اللبناني العالي ، فانها تهتم كثيرا حين يتعلق الامر بالمستوى الجامعي المصري الذي تحرص على احترامه .

الواقع ان الخلل يبدأ في التعليم الثانوي . ان لجنة المعادلات التي تستند الى مقاييس شكلية عادلت حتى الآن التوجيهية المصرية والموحدة السورية بالبكالوريا اللبنانية ذات المستوى الأعلى . هكذا نشأت في لبنان نفسه مدارس تهيء الطلاب لهاتين الشهادتين الأكثر سهولة من البكالوريا اللبنانية . ينتج عن ذلك ان عدد الطلاب اللبنانيين الذين يشتركون في الفحوص المصرية والسورية اكثر من المرشحين للبكالوريا اللبنانية . اولئك الطلاب ، بنوع خاص ، هم الذين تستقبلهم جامعة بيروت العربية .

نجد الحالة نفسها في مستوى الاجازة . ان لجنة المعادلات اذ تعادل بين الاجازة الفرنسية والاجازة اللبنانية والـ M.A الأميركية والاجازة العربية ، المصرية او السورية ، تتيح لجامعة بيروت العربية ان تملأ السوق اللبنانية بعدد كبير من المجازين ذوي المستوى الأدنى من مستوى زملائهم خريجي الجامعات الثلاث الأخرى ، لكن الذين يتمتعون بالحقوق نفسها في الوصول الى مراكز الادارة .

ان لهذا التباين في العالم الجامعي اللبناني تأثيرا سلبيا على الحياة القوميـة .

التفكك القومي

بدل ان تكون الجامعة في لبنان عامل تلاحم في المجتمع ، تبدو عامل تفكك قومي . فالجامعة صورة عن الدولة . في سنة ١٩٤٣ ، سنة الحصول على الاستقلال ، أنشأ اللبنانيون دولة متآلفة غايتها جمع مختلف الطوائف والفئات الاجتماعية التي تكون الشعب ودمجها . ويتردد المرء ، بعد عشرين سنة ، في تقديم حصيلة ايجابية بعض الشيء . فبدل ان تعمل الدولة على توحيد الطوائف المتفرقة التي تتألف منها الأمة ، استسلمت ، على العكس ، للطوائف **فبلقنتها** ، واصبحت ، من جراء سوء استخدام مبدأ التوزيع الطائفي ، انعكاسا للامة المتعددة الطوائف . اضف الى ذلك انها كرست الانقسامات والتعارضات داخل الأمة . كذلك حال الجامعة : بدل ان تكون المكان الذي يخفف فيه الطلاب المختلفو النشأة والطبقة فروقاتهم الاجتماعية والطائفية بفضل توفر ثقافة مشتركة وامكانات متساوية ، فان الجامعة في لبنان خليط من اربع منشآت للتعليم العالي تتجه ، لتباينها ، الى ترسيخ الانقسام والتباعد .

يكفي ، لكي نقتنع ، ان نحلل بسرعة توزع المجموع الطلابي على الجامعات الاربع وفاقا لجنسيات الطلاب ، وانتماءاتهم الطائفية ، واوساطهم الاجتماعيـة .

فمن ناحية جنسية الطلاب ، يمكن تصنيف الجامعات القائمة في بيروت في نوعين : جامعات « اقليمية » معظم طلابها عرب ليسوا من لبنان ،

وجامعات « وطنية » ، معظم طلابها لبنانيون . تمثل النوع الأول جامعة بيروت العربية وجامعة بيروت الأميركية . وتمثل النوع الثاني الجامعة اللبنانية وجامعة القديس يوسف .

والواقع أن المعلومات الاحصائية المتوفرة (١) تدل على أن عدد الطلاب اللبنانيين في الجامعة الأميركية ، طيلة عشرين سنة (منذ ١٩٤٥ — ٤٦ الى ١٩٦٥ — ٦٦) قلما تجاوز نسبة ٤٥ بالمئة . (١٩٤٥ — ٤٦ : ٣١ ٪ لبنانيون ، ٦٩٪ أجانب .

١٩٥٥ — ٥٦ : ٥٢ ٪ لبنانيون ، ٤٨ ٪ أجانب — ١٩٦٢ — ٦٣ : ٣٨ ٪ لبنانيون ٦٢ ٪ أجانب .

١٩٦٥ — ٦٦ : ٤٤ ٪ لبنانيون ، ٥٦ ٪ أجانب .)

أما جامعة بيروت العربية فكانت نسبة الطلاب اللبنانيين فيها سنة ١٩٦٥ — ٦٦ ، ٢٠ ٪ ونسبة الطلاب الأجانب ٨٠ ٪ .

غير أن جامعة القديس يوسف والجامعة اللبنانية هما وحدهمااللتان ضمنتا وتضمان أكثرية لبنانية بين طلابها . (جامعة القديس يوسف : ١٩٤٥ — ٤٦ : ٥٧ ٪ لبنانيون، ٤٣ ٪ أجانب — ١٩٥٥ — ٥٦ : ٧٥ بالمئة لبنانيون، ٢٥ بالمئة أجانب — ١٩٦٢ — ٦٣ : ٧٨ بالمئة لبنانيون ، ٢٢ بالمئة أجانب . ١٩٦٥ — ٦٦ : ٨٢ بالمئة لبنانيون ، ١٨ بالمئة أجانب — الجامعة اللبنانية : ١٩٦٢ — ٦٣ : ٨٤ بالمئة لبنانيون ، ١٦ بالمئة أجانب ، ١٩٦٥ — ٦٦ : ٦٧ بالمئة لبنانيون ، ٣٣ بالمئة أجانب) .

هكذا يبدو واضحا أن اهتمامات الطلاب المسيطرة ، السياسية والايديولوجية في الجامعتين اللتين سميناهما « اقليميتين » ، اقليمية أكثر منها وطنية ، وأن هذه الاهتمامات في الجامعتين الأخريين هي ، على العكس ، وطنية أكثر منها اقليمية . هذا الفرق يشكل العامل الأول في التناقض .

غير أن التوزيع الطائفي يطرح مشكلات أكثر خطورة . فان المعلومات الاحصائية السابقة نفسها تدل على أن نسبة الطلاب المسلمين في جامعة بيروت الأميركية ارتفعت خلال عشرين سنة (من ١٩٤٥ — ٤٦ الى ١٩٦٥ — ٦٦) من ١٣ بالمئة الى ٤٠ بالمئة ، بينما انخفضت على العكس ، في جامعة القديس يوسف من ٢٢ بالمئة الى ١١ بالمئة . وفي الجامعة اللبنانية تبلغ نسبة الطلاب المسلمين ٥٠ بالمئة من المجموع العام ، بينما تنعدم عمليا نسبة الطلاب المسيحيين في جامعة بيروت العربية .

ينتج من هذه المعلومات أن الجامعة اللبنانية هي وحدها التي تضم نسبا متساوية من الطلاب المسلمين والمسيحيين . واذا لم ندخل في حسباننا الا الطلاب اللبنانيين في الجامعة الأميركية تصبح نسبة المسلمين فيها أقل ، دون شك . وسواء كان هذا التباعد الطائفي ، الموجود على درجات متنوعة في الجامعات الأجنبية الثلاث ، مقصودا أو غير مقصود ، فمن المحزن أن يتجه عمليا لكي يضيف الى التفرق الطائفي فرقا ثقافيا . فهناك أكثرية مسلمة وحيدة اللغة تنشأ في وسط تربوي حذر ازاء المدنية الغربية

(١) انظر «أعمال وأيام» ، العدد ٢٦ ، كانون الثاني ـ آذار ١٩٦٨ ، ص ٨١ وما يليها: « معلومات احصائية عن العالم الجامعي » .

(جامعة بيروت العربية) تنهض مقابل اكثرية مسيحية منفتحة على اللغات والثقافات الغربية (جامعة القديس يوسف ، جامعة بيروت الأميركية) .

بعد التباعد بين الطوائف ، يجيء التناقض في الطبقات الاجتماعية . لنلاحظ أن الطلاب في جامعة القديس يوسف ، شأن الطلاب في جامعة بيروت الأميركية ينتمون في معظمهم الى الطبقة البورجوازية والطبقة الوسطى الميسورة ، بينما ينتمي الطلاب في الجامعة اللبنانية والجامعة العربية ، بأغلبيتهم ، الى الطبقة المتوسطة الضيقة الحال والطبقة الشعبية.

ولئن كان الوعي الطائفي يخنق الوعي الطبقي في الجامعات الثلاث الأخرى ، بسبب الأكثرية الطائفية المسيحية أو المسلمة ، فان الوعي الطبقي في الجامعة اللبنانية حيث تخف العقدة الطائفية لتساوي الطلاب في النسبة العددية ، هو الغالب . هذا ولا شك مما يعد بتجاوز الطائفية ، لكنه وعد ما يزال غامضا جدا وغير يقيني .

الاصلاح او الفوضى التامة

ان الطبقة الحاكمة التي تتكون جوهريا من خريجي جامعة القديس يوسف والجامعة الاميركية قلما تعير اهتماما لتطور العالم الجامعي اللبناني منذ عشر سنوات . يدرك المسؤولون دون شك الناحية الخطرة في هذا التطور ، الا انهم يفضلون ، ازاء اتساع المشكلة ، أن يمارسوا سياسة النعامة ، ويتجنبوا مواجهة نتائج مثل هذا الموقف وهم لا يكتفون بأن يتركوا تباين الجامعات يتابع مجراه الفوضوي ، بحجة حرية التعليم ، بل ان كل شيء يجري كما لو انهم يستبسلون لاقامة السدود في وجه تطور الجامعة اللبنانية ، اذ يتركونها في حالة مَرَضيَّة من تخلف الاعداد وسوء التجهيز .

مع ذلك أخذت النتائج تتضح . ان تعدد الجامعات ، في وضعه الراهن ، عامل تفكك ، ليس وحسب على مستوى الشعب اذ يرسخ الفرقة والتباعد ، وانما كذلك على مستوى الدولة ذاتها اذ تثير في صميم الادارات العامة تناقضات خفية بين الموظفين الكبار والموظفين الادنى مرتبة . وليست المسألة هنا مسألة تعارض طائفي ، لأن توظيف هؤلاء وأولئك يتم وفاقا للمبدأ الطائفي في توزيع الوظائف ، بل هي مسألة تناقض طبقي يقويه فرق الثقافة .

معظم الموظفين الكبار والخبراء هم من خريجي جامعة القديس يوسف او جامعة بيروت الأميركية أو تابعوا دراساتهم في جامعة غربية . انهم ينتمون ، بعامة ، الى الطبقة الميسورة ويتقنون ، بالاضافة الى العربية ، الفرنسية او الانكليزية او كلتيهما معا . اما الموظفون الادنى مرتبة فهم من خريجي الجامعة اللبنانية أو جامعة بيروت العربية ، وينتمي معظمهم الى الطبقة المتوسطة او الشعبية . بعضهم يعرف ، بشكل أو آخر ، احدى اللغتين الأجنبيتين ، ولا يعرف الآخرون غير العربية .

من هنا يرسخ الفرق الثقافي الوعي الطبقي . التناقض لا يظهر حتى الان الا على صعيد اللغات الرمزي ، وكثيرا ما نسمع موظفين يصفون

مديرهم بأنه عميل الاستعمار لانه يستخدم لغتين أو لأنه منفتح على الثقافة الغربية . وكثيرا ما نسمعهم يتحينون فرصة الانتقام . لكن هذه الأمارات التي تنذر بالتفكك السياسي لا يبدو أنها تقلق المسؤولين . انهم يظنون ، دون ريب ، أن المبدأ الطائفي لتوزيع المناصب هو الحصن المطلق ، ولا يدركون أن التباين الذي يولده تعدد الجامعات في حالته الحاضرة يعمل على خلق نماذج أخرى من التناقضات ليست الدولة مسلحة لمجابهتها .

ان **توحيد** الجامعة في لبنان مهمة ملحة . ولا شك أن هذا التوحيد يمكن أن ينظر اليه بطريقتين . اما بزوال الجامعات الأجنبية الثلاث تدريجا لمصلحة الجامعة اللبنانية التي أصبحت جامعة وطنية ، واما باقامة اتحاد بين الجامعات يديره مجلس جامعي تابع ، ضمن حدود معينة ، لسلطة الدولــــة .

الطريقة الأولى هي الأكثر اغراء ، لانها الاكثر بساطة ، غير انها قد تبدو في الوضع اللبناني، لأسباب هي من البداهة بحيث أن ذكرها لا يجدي، وهمية وتبسيطية ساذجة . ثم ألم ينتقد الطلاب بعنف هذه الطريقـــة ، طريقة **الجامعة النابوليونية** في البلد الذي تحققت فيه احسن تحقيق ؟ الم نر الطلاب الفرنسيين يطالبون بحماسة باستقلال الجامعة **وأقْلَمَتِهـــا** ، ويقتربون هكذا من نظرية الأخذ بالتعدد الجامعي الأنكلو ــ سكسوني ؟

ربما كان الحل ، بالنسبة الى لبنان ، هذا التعدد كما حددناه . غير أن تحقيق هذا الحل أو ذاك لا يمكن أن يتم في اية حال ، الا بمبادرة من الدولة وتعاون من الجامعات الأربع . الشيء الأكيد هو هذا : اذا لــم نستجب للضرورة الملحة في اصلاح عميق للجامعة في لبنان ، فاننا منقادون دون شك ، الى الفوضى الكاملة .

منير بشور

مقترحات عملية لاصلاح الجامعة في لبنان

على الذين يعتبرون أن الجامعة في لبنان هي صورة للدولة اللبنانية أن يريحوا أنفسهم من عناء التفتيش عن حلول لمشكلات الجامعة ويكرسوا جهودهم ، بدل ذلك ، لنسف الاوضاع القائمة نسفا جذريا واقامة دولة حديثة مكان الدولة القائمة تأتي الجامعة على صورتها .

غير انه في غياب القدرة على ذلك ، ان لم نقل في غياب الرغبة فيه ، ورغم انه يمكن ، على الأقل نظريا ، التسليم بجدارة هذا الموقف فاننا نرفض ان نعتبره الصواب بكامله ، ونفضل أن ننظر الى الموضوع من وجهته المعاكسة فندعي أن الدولة كذلك ، والى حد كبير صورة عن الجامعة .

هناك ، بالاضافة الى غياب القدرة أو الرغبة ، سبب استراتيجي يدعونا الى رفض الموقف الثوري ، يتلخص هذا السبب بان اعتبار الدولة صورة عن الجامعة، مهما يكن في هذا الاعتبار من خلل على الصعيد النظري، يوفر لنا نقطة انطلاق لا بد منها في عملية الاصلاح القومي . ان الموقف الثوري مقابل ذلك ، لا يحتاج الى نقاط انطلاق لانه لا يؤمن بالاصلاح بل بالنسف ، ويدعي ان مثل هذه النقاط ستنبت حتما على انقاض المنسوف ، ولهذا يغلق باب الحوار العقلاني ويتمسك بميتافيزيقية تبطل معها الحاجة الى البحث عن اية حلول . اننا نرفض هذا الموقف لاننا ما نزال نؤمن ، بالنسبة الى أوضاع لبنان واوضاع التعليم السائدة فيه ، انه ما يزال هناك مجال للحوار وما يزال هناك مجال للاصلاح ـ وعلى هذا الاساس نحتاج الى نقاط ننطلق منها في الاصلاح .

السؤال هو : كيف يمكن لبنان ، ضمن اوضاعه الحاضرة ، أن يحصل على جامعة محترمة تمارس مهامها الرئيسية في تزويد المجتمع بما يحتاج اليه من قيادة علمية وفكرية وتعمل على اشاعة ثقافة وطنية موحدة ؟

ان تسليمنا بالأوضاع الحاضرة ، وبالدولة التي تمثلها لا يعني ، بأي شكل من الاشكال اعفاء الدولة من مسؤوليتها . ان ما نطمح اليه هو عملية تطوير في الوضع الجامعي عن طريق الدولة (والجامعة) تؤدي بالنهاية

الى تطوير الدولة . انها علاقة تبادل في التأثير وليست علاقة ذات اتجاه واحد .

يجب أن نفترض قبل متابعة الحديث ، ان هناك ارادة حقيقية . واخلاصا حقيقيا ، من قبل المسؤولين في الدولة وفي الجامعة لاصلاح اوضاع الجامعة في لبنان . دون هذه الارادة والاخلاص يصبح كل حديث مضيعة للوقت .

ننطلق من هنا لنسجل ما نرى انه يشكل مسؤوليات يقع بعضها على عاتق الدولة وبعضها على عاتق الجامعة يمكن ان تشكل بمجملها استراتيجية عملية للاصلاح الجامعي في لبنان . وسنبدأ بالمسؤوليات المترتبة على الدولة اولا ، ثم ننتقل الى المسؤوليات المترتبة على الجامعة . ان التدرج المتبع في تسجيل هذه المسؤوليات ليس ، بحد ذاته ، خطة عمل ، اذ يمكن البدء بتنفيذ بعضها قبل تنفيذ سواها ، او يمكن البدء بتنفيذ مجموعة منها في آن واحد .

أ - مسؤوليات الدولة

اولا ـ التخلي عن اعتبار الجامعة الوطنية مؤسسة حكومية بالمعنى الشائع الذي يوازي بينها وبين بقية مؤسسات الدولة او دوائرها . ويستتبع هذا تغير في النظر الى الاستاذ الجامعي على انه موظف حكومي يتم التعاقد معه ، ويرفع ويحدد راتبه كسواه من موظفي الدولة . ان هذا التغير على بداهته ، أمر بالغ الضرورة لانه يؤثر في طبيعة الترابط والعلاقة القائمة بين الجامعة وبين الدولة كما يؤثر في كيفية قيام الاستاذ الجامعي بمهامه .

يعبر عن هذا الموقف عادة بمبدأ « **الاستقلال الجامعي** » . والمعروف ان هذا المبدأ مسلم به من قبل الدولة في لبنان ، غير أن هذا التسليم ما يزال تسليما شكليا وما تزال الجامعة الوطنية ، من الناحية العملية ، دائرة من دوائر الدولة وما يزال الاستاذ موظفا من موظفيها .

ولكي يكون الاستقلال الجامعي استقلالا نافذا يجب وضع سلم خاص مستقل بأساتذة الجامعة يختلف في رواتبه وشروطه من حيث التعاقد والترفيع والصرف اختلافا كليا عن السلم الخاص بموظفي الدولة ، كما يجب اعطاء مجالس الجامعة العلمية والادارية ولجانها المختلفة استقلالا تاما بحيث تأتي قراراتها وقوانينها معبرة ، وبالطريقة الانتخابية المعروفة ، عن رغبات اعضاء الجهاز التعليمي والاداري في الجامعة .

ثانيا ـ اعادة النظر في سياسة « الباب المفتوح » على صعيد التعليم الجامعي في لبنان . لقد اتبعت الدولة مبدأ الحرية المطلقة في التعليم بشكل عام والتعليم الجامعي بشكل خاص . وكان التعديل الوحيد الذي ادخلته على هذه السياسة اشتراطها الجزء الثاني من البكالوريا اللبنانية لدخول الوظائف العليا في الدولة او لممارسة الطب والهندسة والحقوق . الا انها بسماحها بمعادلة البكالوريا بعدد من الشهادات ، وبخاصة الشهادات الحكومية في مصر وسوريا ، ظهرت وكأن كل ما فعلته هو انها زحزحت الباب بدل أن تجعل منه سدا أمام رياح الفوضى التي تهدد النظام التعليمي بكامله . ليس هناك بلد في العالم يعاني من آلام سياسة الباب المفتوح بقدر ما يعاني لبنان رغم أن هناك بلدانا كثيرة تنعم بحرية في التعليم العالي توازي

الحرية التي يدعيها لبنان وتزيد عنها .

ان المطلوب من الدولة هنا اعادة النظر بشكل جذري في سياستها التعليمية ، وخاصة سياسة المعادلات ، والتخلي عن مبدأ المعاملة بالمثل . فالشأن التربوي ليس شأنا تجاريا يخضع لميزان الربح والخسارة .

ثالثا — انطلاقا من المطلب الثاني يجب على الدولة أن تعيد النظر في موقفها من الجامعات والمعاهد الخاصة التي تعمل في لبنان . فالمشكلة هنا لا تكمن في وجود هذه الجامعات والمعاهد بقدر ما تكمن في استقلالها شبه المطلق عن سياسة الدولة . بامكان الدولة أن تمارس نوعا من التدخل في شؤون هذه المعاهد والجامعات — في المناهج ، والهيكل التعليمي ، وشروط الانتساب والتخرج ، ولغة التعليم والرسوم — فتسعى الى تعديلها حيث يجب والى ان تقرب بينها فتساعد على ردم الهوات التي تجعل كلا منها جزيرة مستقلة عن سواها .

بامكان الدولة أن تمارس مثل هذا التدخل اذا ما اخذت تمد هذه الجامعات بالعون المالي المباشر . ان وجود الدولة اللبنانية بالنسبة الى هذه الجامعات يكاد يقتصر على حضورها حفلات التخرج أو تدشين المباني أو افتتاح المعارض ، وهي حين تفعل ذلك فانها تتصرف كأنها ضيفة في أرض غريبة . لكي تشعر الدولة انها من أهل الدار عليها أن تسهم ماليا في بناء الدار . اذا كانت هذه الجامعات تؤدي دورا مهما في لبنان فكيف يكون مدها بالعون المالي والتدخل في شؤونها امرا غير طبيعي سواء كانت وراء هذه الجامعات ثروات أميركا وفرنسا أو مصر ؟

رابعا — أن تنقض الدولة قرارها في ما يتعلق بشروط التوظيف في المراتب الثلاث العليا من سلم الادارة الحكومية ، بحيث يستبدل شرط حيازة اجازة الحقوق لدخول هذه المراتب والاستعاضة عنها بشهادة اختصاص تتفق مع طبيعة العمل المعني . ان حاجة مدير المشروع الاخضر مثلا او مدير وزارة الانباء لاجازة الحقوق اشبه ما تكون بحاجة قبطان الباخرة أو الطائرة لاجازة سوق سيارة .

خامسا — السخاء في تخصيص الأموال لتأمين حاجات الجامعة الوطنية والاسراع في اقامة المباني الجديدة لهذه الجامعة وتجهيزها بالادوات اللازمة وبخاصة المكتبات والمختبرات . لقد اصبح هذا المطلب ملحا وشائعا والتأكيد على أهميته اصبح امرا مفروغا منه ولا حاجة للتشديد عليه . المهم في الأمر أن تجهز الجامعة الوطنية بالمباني والمعدات وترصد لها ميزانية سخية بحيث يمكنها أن تصبح نواة التعليم الجامعي في لبنان وذروته .

اننا نكتفي بابراز هذه المسؤوليات الخمس المترتبة على عاتق الدولة. ولا اعتقد ان تنفيذ أي من هذه المطالب يستعصي على الدولة متى عزمت على ذلك واعلنت أهدافها وسياستها الواضحة في هذا المجال . ان احتجاج الدولة بفقدان المصادر المالية مرفوض شكلا وتفصيلا . ويقيننا أن اللبنانيين اصبحوا اليوم قادرين برغبة على تحمل الأعباء المالية التي تفرضها اجراءات كهذه .

ب - مسؤوليات الجامعة

ننتقل من تسجيل الخطوات التي نحمل الدولة مسؤولية القيام بها لاستعراض تلك التي نعتقد انها تقع ضمن مسؤوليات الجامعة في لبنان .

ان اهتمامنا هنا سيتركز على الجامعة الوطنية . ذلك انه من غير العملي الكلام على الجامعات الأخرى في غياب اطار اداري يجمع بينها أو في غياب سلطة الدولة عليها . ولا نعتقد ان هذا ينتقص من قيمة الاجراءات التي نقترحها هنا ، فالمبدأ الذي نعتمده هو التالي : **متى قدرت الجامعة الوطنية أن ترسخ أقدامها وترتفع الى مستوى عال من الجدارة يصبح طبيعياً أن يضمر دور الجامعات الأخرى تدريجيا ليقوم مكانه نظام وطني موحد . عندها يصبح على الجامعات الخاصة في لبنان أن تتدبر أمرها بذاتها . فالمشكلة تصبح مشكلتها الخاصة بها ، لا مشكلة لبنان ، ويصبح عليها اما أن تتجانس مع النظام الوطني المتمثل في الجامعة الوطنية وتصبح رديفا له ، واما أن تغلق ابوابها .**

أولا — لعل المسؤولية الأولى التي نقترحها هنا تتعدى نطاق الجامعة لتشمل الدولة ، وكان يمكن وضعها تحت مسؤوليا تالدولة لولا انها تتسم بطابع علمي أكثر مما هو اداري او سياسي . ونرى أن يكون الاشتراك في تنفيذه موزعا بين الدولة (خاصة فيما يتعلق باعبائه المالية) والجامعة الوطنيـة .

المطلب الذي نعنيه هنا هو أن تتخذ الجامعة الوطنية المبادرة لتشكيل لجنة علمية تقوم بدراسة الوضع الجامعي في البلاد من مختلف زواياه فتقوم بمسح علمي لهذه الاوضاع كما هي قائمة في الوقت الحاضر وتربط بينها وبين حاجات لبنان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وأن تضع على هذا الاساس خطة عامة لمدة عشر سنوات تحدد فيها الخطوط العريضة للسياسة التي يجب اتباعها وللمسؤوليات المترتبة على الجامعة بالنسبة الى مستقبل لبنان . ويمكن اتخاذ نموذج لهذه الدراسة تلك التي قامت في المملكة المتحدة (بريطانيا) عام ١٩٦٣ برئاسة **اللورد روبنز** والتي انتهت الى تقديم تقريرها في ٣٣٥ صفحة الحقت به خمسة مجلدات تقع في ما يزيد عن الألفي صفحة *. ولقد اصبح هذا التقرير مصدرا تعتمده الدولة والجامعات البريطانية في التخطيط للتعليم الجامعي والتعديل في الأوضاع القائمة .

ثانيا — ان يعاد النظر في الهيكل الاداري والسياسة الادارية للجامعة ككل ، وفي نظام كلياتها المختلفة ، بحيث يكرس عمليا مبدأ الحكم الجماعي على اساس ان جميع اعضاء الهيئة التعليمية شركاء في المسؤولية ومتساوون في الحقوق ، وان تدار هذه السياسة بالطريقة الديمقراطية المعروفة المتمثلة بالانتخاب فيتسنم المراكز الادارية من تعتبره الهيئة التعليمية مؤهلا لها دون اعتبار للسن او لمدة الخدمة أو للطائفة أو لغيرها من الاعتبارات المشابهة . الغاية من هذا التعديل ان تتجدد الادارة بشكل دوري متواصل يفيد منه الجسم الجامعي بكامله . ويجب ضبط هذه السياسة الاداريه بواسطة دستور واضح يحدد المؤهلين للانتخاب وللاقتراع والزمن الذي يمضيه المسؤول في المركز المنتخب ، كما يحدد المجالس والهيئات التي ترى الهيئة التعليمية أن تنشأ فيها لتنفيذ مسؤوليات معينة .

ثالثا — أن يكون بين المجالس المنشأة ثلاثة على وجه التحديد :

---

* تعالج هذه الملحقات المواضيع التالية كل منها في مجلد خاص : (١) الاقبال على التعليم الجامعي (٢) المناهج والطلاب والفروع التي يدخلونها (٣) الجهاز التعليمي (٤) الادارة والمالية والنواحي الاخرى المتعلقة بالتعليم العالي (٥) عرض وتحليل للتعليم العالي في البلدان الاخرى.

١ ــ **مجلس المناهج والبرامج الدراسية** : تكون مهمته مراقبة المناهج والعمل على تطويرها بالنسبة الى تقدم العلوم ، كما يعمل على تعريب الكتب العلمية المستخدمة في الدراسة الجامعية . ومن الضروري أن يبقى هذا المجلس على اتصال بالجامعات الاخرى خاصة في لبنان والبلدان العربية ، وأن يستفيد من خبرات رجال العلم في لبنان وفي الخارج .

٢ ــ **مجلس البحوث العلمية** : يكون مسؤولا عن تشجيع البحوث العلمية التي يقوم بها أفراد الهيئة التعليمية وتشجيع البحوث التي تقوم في لبنان خارج اطار الجامعة شرط أن تتفق مع أهداف هذا المجلس ، وأن يؤمن العون المالي للقائمين بمثل هذه البحوث .

لا بد هنا من الاشارة الى المجلس الوطني للبحوث العلمية القائم حاليا بقرار حكومي صدر عام ١٩٦٢ . اننا نرى أن يذوب هذا المجلس في اطار مجلس البحوث الجامعي المقترح وان تضاف ميزانيته الى ميزانية الجامعة بقصد اغناء المناخ الجامعي وزيادة فعاليته العلمية . اننا لا نرى سببا لأن يستمر استقلال المجلس الوطني عن كيان الجامعة الوطنية . فلو كانت هذه الجامعة مثقلة بالمهام العلمية ويصعب عليها تحمل اعباء جديدة أو لو أن في لبنان فيضا من البحوث العلمية يصعب على هيئة واحدة أن تضبط اتجاهاتها وتنسق فيما بينها ، او لو ان تجربة الاستقلال التي ينعم بها المجلس الوطني منذ ست سنوات برهنت على قيمتها رغم الميزانية السخية التي خصصت له ، لكان استقلال هذا المجلس عن الجامعة الوطنية امرا معقولا . وبما أن العكس هو الحاصل فليس هناك مسوغ في رأينا لمثل هذا الاستـــقلال .

٣ ــ **مجلس الخدمة والملاك الجامعي** : ان يكون هذا المجلس مسؤولا عن التعاقد مع الاساتذة الجدد او فسخه ، وعن تحديد الرواتب والقرار في الترفيع وفي التثبيت في الملاك . ومن الواجب أن يكون هذا المجلس مكونا من ممثلين عن مختلف كليات الجامعة ومعاهدها يتم انتخابهم من قبل الهيئات التدريسية في هذه الكليات والمعاهد .

رابعا ــ أن يعاد النظر في الجهاز التعليمي القائم ، من قبل الادارة المنتخبة وفقا للمطلب الثاني وفي ضوء السياسة المنبثقة عن المطلب الأول ، بحيث ترفع عن جميع اساتذة الجامعة صفة « الملاك » لمدة خمس سنوات يجري اثناءها صرف من تراهم هذه الادارة غير مؤهلين للتعليم الجامعي وإحلال اساتذة مؤهلين مكانهم . اما من يتم تعيينه اثناء فترة السنوات الخمس هذه أو بعدها فيبقى قيد التجربة طيلة ست سنوات كاملة يثبت بعدها في الملاك أو يصرف .

خامسا ــ ان يخفف عبء التدريس عن كاهل اساتذة الجامعة بحيث لا يزيد عن اثنتي عشرة ساعة اسبوعية . ويفرض عليهم التفرغ الكلي للتعليم وللشؤون الجامعية ويمنعون من ممارسة الاعمال غير الجامعية الا في حالات استثنائية خاصة تخضع لموافقة لجنة ادارية خاصة .

سادسا ــ أن يعاد النظر في عدد الطلاب الذين يقبلون سنويا بالجامعة، خاصة في فرعي الحقوق والآداب ، فيحصر دخول هذين الفرعين بعدد لا يزيد عن **ربع العدد** الحاضر . وعلى الجامعة مقابل هذا ان تعمل على تقوية الفروع التطبيقية والعلمية الحاضرة وعلى فتح فروع جديدة . كما يجب أن يعاد النظر في شروط التغيب عن الصفوف وطريقة الامتحانات ، وقد يكون من المستحسن التوسع في الدراسات المسائية في فروع معينة .

سابعا — أن يعاد النظر في شروط الانتساب للجامعة ، ويضاف الى شرط حيازة البكالوريا شرط تمضية سنة تحضيرية تكون على نوعين — احداهما للفروع العلمية والثانية للفروع الانسانية والاجتماعية . ويكون على جميع الطلاب تمضية سنة كاملة تحضيرية يختارون بعدها وفقاً لامتحان يحدد جدارتهم لدخول احد فروع الاختصاص . ومن الممكن النظر في أن يكون البرنامج المؤدي الى الاجازة بعد السنة التحضيرية مكونا من ثلاث سنوات تكون سنوات اختصاص على أساس أن ينشأ بعد هذا اتساع وتعميق في الاختصاص بعد الاجازة ينتهي بشهادة الدكتوراه .

اننا نكتفي هنا كذلك بهذا القدر من الاقتراحات التي نرى انها تقع ضمن مسؤولية الجامعة وعليها الأخذ بها .

واننا نكرر أن المهم هو التنفيذ وليس اطالة الشرح . ويقيننا أنه يمكن البدء بتنفيذ أي من هذه الاقتراحات المتعلقة منها بالدولة أو بالجامعة دون ترتيب معين . ذلك أن عملية التنفيذ تنطوي بحد ذاتها على خصائص الترابط العضوي . ومتى بدأ تنفيذ اي من هذه الاقتراحات يصبح منتظرا أن « تكر المسبحة » وأن تتسع دائرة الحركة لتشمل تنفيذ المقترحات الأخرى . على أساس هذه القاعدة نتوقع أن يؤدي اتمام البناء الجديد للجامعة الوطنية (متى تم) الى سلسلة من الانفعالات والى توتر في الوضع الجامعي على الدولة أن تتهيأ لها منذ الآن .

لهذا ، وقبل هذه الاقتراحات التي ذكرنا ندعو اولا وقبل كل شيء الى أن يعقد المسؤولون في الدولة وفي الجامعة العزم ويشرعوا في العمل الجدي . كل شيء يمكن أن ينتظر في لبنان — من المطار الى الاذاعة ، الى المصارف والشركات ، الى مواسم التفاح والبرتقال والشمندر ، ولكن التربية لا يمكن أن تنتظر . والاصلاح التربوي ، يبدأ من قمة الهرم — من الجامعة .

حافظ قبيسي

نحو جامعة لبنانية

يبدو لبنان اليوم للكثيرين من ابنائه انه يتخبط في صعوبات معقدة . ويواجه تحديات كثيرة . ويكاد تقصي هذه الصعوبات ان يصل بالباحثين فيها الى مشكلة تكاد أن تكون رئيسية بأهميتها : مشكلة التربية أو مشكلة المدرسة . ولا يخفى دور المدرسة في المصاعب الطائفية واقامة او ازالة الحواجز بين مختلف الطوائف . أو دور المدرسة في تسليح المواطن بالمعرفة بحيث تمكنه هذه المعرفة من مواجهة الحياة ومتطلباتها المادية بزيادة انتاجه بنسبة ما يتلقى منها ، أو بتغذية الولع بالثقافة والفنون بحيث يتسنى للمواطن أنسنة حاجاته ومشاغله .

ان لمشكلة التربية في لبنان وجوها عدة :

— تنوع الثقافة وتنوع المدارس بحيث تبرز في المجتمع اللبناني « قبائل ثقافية » تزيد في تفسخاته .

— النقص الفاضح في عدد المدارس الابتدائية مما يحرم عددا ضخما من اطفالنا العلم الذي هو من حقهم .

— النقص في الثانويات ، يضاف الى ذلك مشكلة البكالوريا التي لا تتلاءم نوعيتها مع الحاجات الاقتصادية والاجتماعية اللبنانية .

— مشكلة التعليم الجامعي ويمكن تلخيصها بأن « الجامعة » في لبنان تشكو علل المجتمع اللبناني ذاتها بصورة عامة كما تشكو علل التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي .

يسود الآن في أوساط المعنيين بالشأن التربوي في لبنان ، الاعتقاد بأن مشكلة التربية تدور في حلقة مفرغة : تعليم ابتدائي غير صالح ، تعليم ثانوي غير صالح ، تعليم جامعي غير صالح . ويبدو كل عنصر من هذه الحلقة سببا ونتيجة للعنصرين الآخرين . فمن أين نبدأ اذا شئنا الاصلاح؟

يسهل القول ان على الدولة ان تقوم بواجبها البدهي والطبيعي فتبادر الى حل مشكلات التعليم الثلاث (الابتدائية والثانوية والجامعية) مرة واحدة . ولكن نظرة واقعية للأمور ترينا ان امكانيات الدولة المادية لا تسمح لها بالقيام بواجبها التربوي كله دفعة واحدة . ان هذا العجز المادي الحالي

يفرض على الدولة وضع سياسة تربوية واضحة ، تضع فيها أولويات للتنفيذ .

اذا كان علينا ان نعطي الافضلية لواحدة من هذه المشكلات فاننا نعطيها دون تردد للجامعة . انها قمة الهرم التربوي دون شك . ولكنها ، في الوضع التربوي الراهن ، أساس هذا الهرم كذلك .

ارتباط التنمية بالجامعة

من المتعارف عليه الآن ان تنمية أي بلد مهما كان لون حكمه السياسي اصبح مرتبطا بالتخطيط . ويعتبر التخطيط اليوم الوسيلة المشتركة لجميع المجتمعات المتحضرة او الراغبة في الاخذ بطرق الحضارة ، لا تختلف في اعتماده الرأسماليات ولا الاشتراكيات وان اختلفت هذه في منطلقاتها النظرية او في الاهداف التي تتوسل الخطة (*) سبيلا للوصول اليها .

ان وضع خطة للتنمية يحتاج ، كما هو معروف ، الى دراسات اولية عديدة قد تتناول امورا ليست لها علاقة واضحة مباشرة بالمجال الذي يراد التخطيط له . فلو اخذنا ، تسهيلا للبحث ، مثلا على ذلك ، لاخترنا الصناعة لكونها موضوعا مطروقا ، يعرفه عامة القراء . فالتخطيط للصناعة في بلد ما يتطلب دراسات اولية عن حالة الصناعة في البلد ، واليد العاملة ، ووفرة الفنيين والمهرة ، توفر المواد الخام ، ايجاد الآلة والمحافظة عليها ، والسوق الاستهلاكية والتصريف .

كما ينبغي ، في خطة صناعية شاملة ، بحث مسألة البطالة ، ووضع اولويات للسلع التي يراد انتاجها ، ودرس التأثيرات السياسية الداخلية والدولية ، وربط الصناعة بقطاعات اخرى كالزراعة والخدمات ، ودراسة كيفية التمويل .

من يقوم بهذه الدراسات ؟ ان للكثير من هذه الدراسات طابعا علميا يحتم اعتماد البحث العلمي بكل ما في هذا التعبير من معنى اكاديمي : طرح المشكلة بشكلها النظري شبه المجرد ، اعتماد الاستقصاء ، واستخلاص النتائج التي قد تأخذ شكل قوانين بالمعنى الفيزيائي للكلمة . ان عملا كهذا لا يمكن ان يتم بغير الجامعة ، علما بان الجامعة لا تحد بحدود سور البناء الجامعي . أن الجامعة ، بالتعليم الذي تعطي ، والبحث الذي تمارس ، هي التي تعطي الوعاء العلمي لاية دراسة . والجامعة ، عندما تكون حية وفاعلة ، هي التي توجه الاستقصاء ، وتجمع المعلومات والمعطيات (او تشارك في ذلك) . بامكان الجامعة ايضا ان تسهم في استخلاص النتائج واعطاء المسؤول الذي سيختار ويقرر في النهاية ، جميع العناصر والخلاصات التي لا يستطيع ان يقرر او يختار دونها .

لكن هل تنتهي مهمة الجامعة او مشاركتها بانتهاء وضع الخطة ؟ انها على العكس ، تصبح اكثر بروزا ووضوحا بعد وضع الخطة اذ ان تنفيذ الخطة يحتم تحضير الاطر الفنية المتخصصة . وعلى الجامعة ان تتأكد من وجود هذه الاطر ومن اهليتها فتساعدها على التطور اذا كانت موجودة وبحاجة الى تطوير ؟ او تشارك في خلقها اذا لم تكن موجودة . قد يضطرها الظرف في هذه الحالة الى خلق مؤسسات جامعية جديدة او

---

* نعتمد كلمة تخطيط مقابل Planification وخطة مقابل Plan .

الى اعطاء تدريس جديد ملائم ضمن المؤسسات القائمة .
لاريب انه لا يمكن للجامعة ، كما لا يجوز لها ان تحل محل مجلس التصميم ، ولكن بامكانها ، بل من واجبها ، ان يكون لها دور في تحضير اية خطة تنمية جدية ، ولها دور اساسي في تنفيذ هذه الخطة .
للجامعة ارتباط آخر بالتنمية ذو طابع مستمر ، عدا ارتباطها بالخطة الذي قد يكون ذا طابع آني . يتوفر هذا الارتباط اذا رسمت الجامعة الحية لنفسها واجبا نراه ملزما لها ، هو تحضير كل مواطن ، مؤهل للتعليم الجامعي ، للعمل الذي يمارسه (او يرغب في ممارسته) .
فبقدر ما تؤدي الجامعة هذا الواجب (يجب ان تصل هذه التأدية الى ٨٠ ٪ من المؤهلين للانتساب للجامعة) ، تقارب الفعالية الاقتصادية للمجتمع حدها الاقصى . وبقدر ما تتجاهل الجامعة هذا الواجب او تخفق في تأديته ، يتدنى الانتاج وينحدر البناء الاقتصادي والاجتماعي للمجموع في منحدرات التخلف والعوز والعجز ، وتتحول قدرة المجموع على رد أي تحد مصيري يواجهه الى استسلام وعجز .
والجامعة اليوم مقصرة في هذا المجال . فاذا نظرنا الى المواطنين الجامعيين العاملين في لبنان وسألنا كل واحد منهم : هل تعتبر ان التعليم الذي تلقيته قد افادك في عملك ؟ ان عدم وجود اية دراسة احصائية في هذا الموضوع لا يمنعنا من الاستنتاج بان اكثر التقديرات تفاؤلا واطمئنانا تبقى دون نسبة واحد الى اربعة (هناك ، بين كل خمسة جامعيين لبنانيين يمارسون عملا ، لبناني واحد تلقى تحضيرا جامعيا له) .
ان تبني الجامعة هذا الواجب يحتم عليها ، الى جانب اعطاء كل مواطن مؤهل للتعليم الجامعي ، التعليم الذي يلائمه لممارسة عمله ، ان تتابع هذا المواطن وتتيح له المجال « لتحديث » نفسه ، اي لمتابعة التقدم الذي قد تكون مهنته حققته بعد تركه الدراسة .
التنمية الصحيحة ، اذن ، مرتبطة بوجود جامعة حية .

الجامعة ولبنان

في القسم السابق استعملنا كلمة جامعة بمعنى نظري مجرد وطلبنا منها ، بهذا المعنى ، ان تكون ضمير الشعب وعقله تتحفز وتتطلع ابدا الى غد افضل . اردنا للجامعة ، بتعبير آخر ، ان تفكر في وضع مجتمعها وان تدل على طرق تطور هذا المجتمع وان توفر لكل مواطن (بشكل مباشر او غير مباشر) التعليم الذي يلائمه لزيادة فعاليته وتحسين الانتاج العام .
والان اين لبنان من هذه الجامعة ؟
تتألف الجامعة في لبنان ، من اربع جامعات : الاميركية، اليسوعية، اللبنانية والعربية يضاف الى ذلك مؤسسات ذات اهمية ثانوية .
تعمل كل من هذه المؤسسات باستقلال تام عن البقية فهي مؤسسات متلاصقة لكن لا رابط بينها الا رابط المجاملة والعلاقات الفردية . لا ينظر كل من هذه المؤسسات الى مهمته الا بشكل جزئي بالنسبة الى الغاية الفضلى التي ذكرنا . ولكن اذا دققنا النظر في كل من هذه الجامعات نجد ان في غاية كل منها عوامل سياسية واجتماعية لا تشمل لبنان ككل بل تشمل جزءا منه او تتعدى لبنان الى العالم العربي او الشرق

الاوسط . ليس في لبنان ، من هذه الزاوية ، جامعة مثالية .

لكن اذا كنا لا نملك الجامعة المثالية التي نحتاج اليها ، فهل يمكن القول بان الوضع الجامعي الحالي قابل للاستمرار دون اي ضرر بلبنان ؟

اجيب عن هذا السؤال بالنفي . ان وجود الجامعات الاربع في وضعها الراهن يضيف الى تقسيم لبنان الاقليمي والطائفي والعشائري تقسيما جديدا يمكن تسميته « القبلية الثقافية » . واذا كانت الدولة منذ الاستقلال قد توصلت ، على الرغم من كل شيء ، الى تعليم « لبناني » (اقصد تعليما واحدا لجميع اللبنانيين ، رغم تخلفه المؤسف) في المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وذلك دون اللجوء الى تأميم المدارس الاجنبية القائمة فقد حان الوقت لمباشرة عمل مماثل على الصعيد الجامعي . حان الوقت لتوفير تعليم جامعي واحد لجميع اللبنانيين المقيمين في لبنان ، وذلك دون اللجوء لتأميم المؤسسات الجامعية الاجنبية في لبنان .

ان القيام بعمل كهذا لا ينتقص اطلاقا من حرية الجامعات الاجنبية في لبنان . اذ ان هذا العمل لا يمنع الجامعات الاجنبية من تأمين التعليم الذي تريده لغير اللبنانيين او لاي لبناني لا يتخذ شهادته الجامعية وسيلة للانخراط في البناء الاقتصادي العام .

لكن ما هي المؤسسة القائمة المؤهلة لقيادة هذه المجموعة الجامعية ليحصل لبنان على جامعته الحقيقية ؟

هل هي الجامعة الاميركية ؟ هذه الجامعة تعنى حاليا بطلاب منطقة الشرق الاوسط اكثر مما تعنى بالطلاب اللبنانيين (هناك لبنانيان بين كل خمسة طلاب فيها) يضاف الى ذلك ان اقساطها المرتفعة تعتبر سدا بينها وبين اكثرية اللبنانيين الساحقة . ومن المعلوم ان هذه الاقساط المرتفعة لم تتوصل لانقاذ هذه الجامعة من عجز مالي سنوي كبير .

وماذا عن جامعة القديس يوسف ؟ الكليات الرئيسية في هذه الجامعة هي الطب والهندسة والحقوق . عدد الطلاب في كلية الطب ضئيل جدا اذا ما قسناه بعدد طلاب الطب اللبنانيين في الخارج . ان كليتي الطب (الفرنسية والاميركية) الموجودتين في لبنان لا تلبيان في وضعهما الحاضر رغبات اللبنانيين الذين يدرسون الطب ، مما اضطرهم للسفر الى الخارج . هناك مأخذ مماثل على كلية الهندسة . اما كلية الحقوق فقد الحقت اسميا بالجامعة اللبنانية وليس من المفيد ، في هذا المجال ، الخوض في شؤونها . هذه الجامعة تفرض على طلابها اقساطا لا تقل عن الالف ليرة سنويا (هندسة ، طب) كما تفرض مباراة دخول، مما يغلق ابواب هذه الجامعة كذلك في وجه الاكثرية الساحقة من اللبنانيين .

اما الجامعة العربية فهي احدث جامعات بيروت الكبرى ، مع ذلك ناهز عدد طلابها اليوم (١٤ الف طالب في سنة ٦٧ ــ ١٩٦٨) عدد طلاب الجامعات اللبنانية والفرنسية والاميركية مجتمعة ، وهي تضم عددا كبيرا من اللبنانيين الذين حصلوا على شهادة التوجيهية المصرية . ان هذه الجامعة التي تضم حتى الان معظم الفروع الادبية ما تزال تفتقر الى كليات الزراعة والطب ، ويصعب بالتالي النظر اليها استنادا على الاسس نفسها التي استندنا عليها في نظرنا الى الجامعتين القديمتين السابقتين . ولكن الحكم عليها لا يختلف عن الحكم على سابقتيها .

فهي لا تؤدي الا خدمة جزئية محدودة للتعليم الجامعي في لبنان . (خمس طلاب الجامعة لبنانيون) .

تبقى الجامعة اللبنانية . انها لا تفضل ابدا سابقاتها من حيث سد حاجات جميع اللبنانيين للتعليم العالي . فهي كذلك تفتقر الى كليات زراعية وطب وهندسة مما يدفع الوف الطلاب اللبنانيين الى طلب العلم في الخارج (يقدر عددهم بعشرة الاف طالب ، يكلفون لبنان سنويا حوالى ٥٠ مليون ليرة لبنانية) . ولكن الجامعة اللبنانية بعد مضي ١٧ سنة على تاسيسها اصبحت بطلابها الثمانية الاف اكبر جامعة في لبنان ، بمعنى انها تضم وحدها نصف الطلاب اللبنانيين الذين يتلقون تعليما جامعيا في لبنان . وجاء ت، نظرا لمجانيتها ، كفرصة شبه وحيدة للبناني العادي في الحصول على تعليم جامعي . بيد انها تبقى في حاجة لاصلاح داخلي في جميع الحقو ل، وفي حاجة قبل كل شيء الى اعتمادات مالية ضخمة لتستكمل بناءها المادي وتجهيزها ، كما تحتاج الى خلق الاطر اللازمة لاستجلاب العلماء اللبنانيين العاملين في الخارج ولاستبقاء اولئك الذين عادوا او يعودون ، ومنحهم ظروف عمل لائقة .

نعود الى سؤالنا : ما هي المؤسسة الجامعية القائمة المؤهلة لقيادة المجموعة الجامعية ليحصل لبنان على جامعته الحقة ؟

هناك ، بعد هذا الاستعراض الموجز لاوضاع جامعاتنا الاربع ، جواب وحيد يفرض نفسه : جميع هذه الجامعات عاجزة باوضاعها الحاضرة عن تأدية رسالة كهذه .

لكن ، من جهة ثانية ، لا خيار لنا ، ولا مخرج لنا من اية مشكلة جدية نعانيها حاليا الا بايجاد جامعة حية فاعلة ومتحفزة . (مقال الدكتور انطوان زحلان ــ دراسات عربية ــ العدد ١١ ايلول ١٩٦٨ اثار الهزيمة وجامعاتنا الوطنية) .

هذه الجامعة الحية لا يمكن ان تكون الا الجامعة الوطنية . يوصلنا هذا الى مبدأ اساسي في رسم اية سياسة جامعية : اعتماد الجامعة اللبنانية كأساس للتعليم الجامعي في لبنان .

هذا المبدأ تفرضه اعتبارات كثيرة . فالجامعة اللبنانية بكلياتها ومعاهدها الثمانية وبطلابها الثمانية الاف اصبحت مؤسسة ــ ركيزة في بنائنا الاجتماعي الحالي . لقد رافقت تأسيس الجامعة اللبنانية ونموها ملابسات واضطرابات كثيرة جعلت من قضيتها قضية وطنية .

وما تأسيس الجامعة وتوسيعها واستكمالها الا مراحل في محاولة الشعب اللبناني متابعة جهده الاستقلالي حتى النهاية .

لكن هذا المبدأ يلزمنا ، اذا تبنيناه ، بالتنبه الى ما يلي :

١ ــ اعادة النظر في وضع الجامعة اللبنانية الاداري والتعليمي من الاساس .

٢ ــ النظر الى الجامعات الاجنبية القائمة نظرتنا الى مؤسسات نطلب منها فيما نطلب تكملة جهود الجامعة اللبنانية حيث تحتاج الى المساعدة (كمؤسسات البحوث العلمية الكثيرة التكاليف) .

نحو سياسة جامعية

لننظر الان الى الغد من خلال الحاضر .
هناك مبدآن اساسيان نعيد ذكرهما ، يكشفان لنا عن السياسة التي يمكن وضعها :
١ ــ الجامعة اللبنانية هي عماد التعليم الجامعي في لبنان .
٢ ــ لا تنمية حقيقية في لبنان دون جامعة حية .
ليس لدينا في لبنان اليوم خطة تنمية اقتصادية تكشف لنا مثلا عن حاجاتنا في سنة ١٩٧٣ : الى كم مهندسا وطبيبا ريفيا ومرشدة اجتماعية ، واحصائيا ومساعدا قضائيا وحاسبة الكترونية ، نحتاج ؟ ليس لدينا دراسة جدية عن عدد الوظائف التي ستخلق سنويا حتى ذلك التاريخ ، ولا عن العدد المتوقع للعاطلين عن العمل . ليست هناك اية خطة جدية تتلافى ما نعاني وما ننتظر ، كما ان معظم الدراسات الموضوعة هي من نوع دراستي هذه ، اي ذات طابع ادبي كيفي لعجزها عن الاعتماد على اي رقم احصائي موثوق .
في غياب خطة التنمية الاقتصادية هذا ، يبقى على الجامعة واجب تقديم الاطر لجميع القطاعات الخاصة والعامة ، وهو واجب دائم . الجامعة اللبنانية بحاجة كما قلنا الى اعادة نظر شاملة كي تستطيع تأدية هذا الواجب . فما العمل ؟
هنا نصل الى السياسة الجامعية التي نقترحها .
اذا اخذنا خمسة طلاب مؤهلين لدخول الجامعة نستطيع ان نقسمهم بصورة تقريبية الى ثلاث فئات :
أ ــ طالب واحد جيد ، قادر على متابعة دراسة ذات طابع نظري اساسي .
ب ــ ثلاثة طلاب يتابعون بصعوبة كلية دراسة نظرية ، ولكنهم قادرون على متابعة دراسة جامعية متوسطة المستوى ذات طابع تطبيقي اكثر مما هو نظري .
ج ــ طالب واحد تمنعه امكاناته الذهنية من متابعة دروس جامعية .
في نظام تعليمنا الحالي يتمكن طلاب الفئة (أ) من التخرج من الجامعة بدرجة « ليسانس » يضاف اليهم احيانا نسبة بسيطة من الفئة (ب) ببعض التساهل مما يؤدي الى تدني مستوى التعليم في الكليات ويؤدي بالتالي الى تدني مستوى الاجازة .
اربعة من خمسة طلاب يدخلون الجامعة لا يتوصلون الى الحصول على الاجازة ، ويتركون بالتالي الجامعة ، لكن بأي ثمن ؟ بثمن باهظ جدا . ان عددا كبيرا منهم يمضي سنوات طويلة قبل ان يصل الى القناعة بترك الجامعة او الى اليأس منها ومن نفسه ، أي قبل ان ينطوي الطالب على عقدة الفشل ويقذف نفسه في عمل لم يختره ، لينتهي موظفا فاشلا في جو من البلادة الذهنية والعقم الفكري .
الثمن باهظ كذلك بالنسبة الى الجامعة نفسها . فالمال والجهد اللذان تنفقهما الجامعة على هؤلاء الفاشلين ، يبقيان بلا نتيجة ، في وقت لا تسمح لنا فيه امكانياتنا المالية والعلمية باي تبذير من هذا النوع .
لا بد لاي تخطيط للجامعة من ان يمكن الطالب الداخل الى الجامعة،

من ان يقرر (بمساعدة اساتذته) خلال سنة او اثنتين على الاكثر ، ما اذا كان عليه ان يترك الجامعة نهائيا (فئة ج) او ينخرط في دراسة نظرية ذات مستوى ممتاز (فئة أ) ، او ان يتحول الى مؤسسات ذات طابع تطبيقي يتوجب على الجامعة خلقها حسب حاجات البلاد الاقتصادية بحيث يستطيع طالب (فئة ب) ان يتلقى التحضير العملي الكافي خلال سنتين او ثلاث على الاكثر) للعمل الذي يرغب في ممارسته .

كيف يمكن الوصول الى هذه النتيجة ؟ كيف يمكن الجامعة ان تؤمن تعليما ذا طابع جماهيري وأن تخرج في الوقت نفسه نخبة ذات سوية ممتازة .

يمكن ذلك بخلق سنة اولى ذات طابع تحضيري على صعيد الجامعة ككل لا على صعيد الكليات ، نقترح تسميتها السنة التحضيرية وتنقسم الى ثلاث شعب :

١ ــ تحضيرية علمية ، تقابل فروع العلوم البحتة (رياضيات ، فيزياء ، كيمياء ، بعض التكنولوجيا وبعض الثقافة العامة) .

٢ ــ تحضيرية أدبية ، تقابل الفروع الادبية وتشمل حاليا التحضير لفروع كلية الاداب ومعهد الصحافة ومعهد العلوم الاجتماعية وكلية التربية .

٣ ــ تحضيرية للعلوم الانسانية ، تقابل فروع الاقتصاد والحقوق والعلوم السياسية وفروع كلية التجارة والعلوم المالية .

يكون التعليم في هذه السنة التحضيرية ذا طابع نظري وتطبيقي بحيث يمكن قدر الامكان قياس ميل الطالب الاقوى نحو النظريات او التطبيقيات ، وبحيث يمكن في نهايتها تصنيف الطلاب الى الفئات التالية :

أ ــ طلاب يسمح لهم بالتوجه الى الكليات حيث يتلقون تعليما نظريا اساسيا يحصلون بعد ثلاث سنوات دراسية على الاجازة . يمكن هؤلاء اذا اثبتوا مقدرتهم أن يتابعوا ثقافتهم الجامعية في أقسام البحث العلمي (دكتوراه) .

ب ــ طلاب ناجحون ، ثبت ميلهم للتطبيقيات ، يسمح لهم بالتوجه الى مؤسسات العلوم التطبيقية حيث يتلقون تعليما ذا طابع عملي وتطبيقي ، يحصلون بعد سنتين دراسيتين على شهادة مهنية .

ج ــ طلاب راسبون ولكن نتيجة عملهم الدراسي تخولهم حق اعادة التجربة باعادة السنة التحضيرية وهو حق يعطى مرة واحدة للطالب في الحالات العادية .

د ــ طلاب راسبون يحرمون حق البقاء في الجامعة .

يكون اذن في الجامعة نوعان من المؤسسات : الكليات ذات التعليم النظري (حيث تمارس الابحاث الى جانب التدريس) ، و « المعاهد » ذات التعليم التطبيقي .

لن نتكلم ، رغبة في الايجاز وتلافيا للدخول في التفاصيل ، عن الكليات لانها قائمة ولن تختلف جوهريا في مشروعنا عن الكليات الحالية الا بطرق التدريس ومناهجه .

تبقى « المعاهد التطبيقية » . ونقترح أن تكون هذه المعاهد مفتوحة لجميع الراغبين في دخولها والحاصلين على الشهادة الثانوية (بكالوريا قسم ثاني) . مدة الدراسة في المعهد ثلاث سنوات ، تكون السنة الاولى

منها ذات طابع تحضيري عام ، وكل من السنتين النهائيتين ذات طابع متخصص ومحدد . على أن يحق دخول السنة الثانية مباشرة للناجحين في السنة التحضيرية الجامعية فئة أ وفئة ب .

مزايا الاقتراح

١ – يخلق هذا التعديل نوعا من الربط الافقي بين الكليات ، بفضل السنوات التحضيرية التي تجمع بين كليات متجانسة وتضطر هذه الكليات للتعاون ، وهذا مما يقلل من الاستقلال الصارم لمؤسسات الجامعة الحالية ، ويساعد على تقليل التباعد بينها .

٢ – لهذا التعديل أثر نفسي وتربوي مهم ، فالطالب يبدأ حياته الجامعية بالانتماء للسنة التحضيرية أي « للجامعة » ككل وليس لكلية معينة . هذا الانتماء للجامعة ككل يساعد على خلق جو طالبي – جامعي افضل من الجو الحالي . كما ان تعاون الكليات المتجانسة في السنة التحضيرية المشتركة يساعد بعض الاساتذة على تخطي كليته أو معهده بالنسبة الى اهتماماته أو نشاطه ، ويساعد على خلق جو أفضل للتعارف والتعاون بين اساتذة مختلف الكليات والمعاهد .

٣ – يفتح هذا التعديل مجالا أوسع أمام الطالب لاختيار الفرع الذي يريده . ذلك أن الطالب ، حسب هذا التعديل ، يمضي سنة كاملة في الجامعة ، يعتاد خلالها الجو الجامعي وطرق الدراسة الجامعية ، قبل أن يقرر فرعا محددا للتخصص ، أي قبل أن يترك السنة التحضيرية الى الكلية أو المعهد التطبيقي .

٤ – هذا التعديل يتيح كذلك للطالب أن يعيد النظر في الفرع الذي اختاره دون اضاعة وقت كبير . فالطالب الذي باشر ، بعد السنة التحضيرية ، تخصصا ما ، والذي اكتشف خلال السنة الاولى رغبة في تغيير هذا الفرع سيكون بامكانه التغيير باضاعة سنة واحدة . نقول ذلك لانه من المستبعد جدا أن يرغب طالب في تغيير فرعه في نهاية السنة الثانية أي في الوقت الذي يكون قد أشرف على نهاية دراسته ، ولم يبق له الا سنة واحدة لنيل الاجازة .

٥ – يتميز هذا التعديل بالليونة بالنسبة الى الطالب . فهو يتيح للطالب ، كما ذكرنا سابقا ، اختيارا أفضل ، في ظروف علمية أفضل ، كما يتيح للطالب اعادة النظر في مادة اختصاصه بخسارة اقل . ولكن هذا التعديل يتميز بالدقة ويمكن اعتباره صارما بالنسبة الى نوعية الدراسة ومستواها ، علميا . ذلك ان الحزم في تطبيقه بالنسبة الى السنة التحضيرية ، سيتيح المجال لتصفية الطلاب وغربلتهم بحيث يتابع كل طالب المستوى الدراسي المقابل لامكانياته . وسيؤدي هذا بالطبع الى رفع مستوى التعليم الجامعي في جميع الحالات .

٦ – ان تحسين المستوى العام للتعليم الجامعي الناتج عن هذا التعديل سيرسل الى الكليات نخبة مختارة من الطلاب القادرين على متابعة دراسة نظرية ذات مستوى ممتاز . ان رفع المستوى سيتيح الفرصة أمام المسؤولين لاعطاء الدروس في السنة النهائية للكلية لبعض طلاب هذه السنة بشكل يحضرهم لممارسة البحث العلمي . ان ايجاد

الطلاب المقبلين القادرين على البحث العلمي على هذا المستوى الاولي ضروري جدا لمؤسسات البحوث العلمية مهما بلغ مستوى هذه المؤسسات ومستوى أبحاثها .

٧ — من المزايا الاقتصادية — الاجتماعية لهذا التعديل الاستفادة القصوى من مجموع الطلاب . فتعليم الطالب جامعيا ، تثمير مالي مضمون في الامد البعيد . ولذا فان توفير التعليم الجامعي لاكبر عدد ممكن من المواطنين المؤهلين له هو تثمير اجتماعي مضمون يؤدي حتما الى زيادة الانتاج والدخل القوميين . وكل طالب مؤهل للتعليم الجامعي يفشل في الحصول على هذا التعليم ، امكانية مهدورة وخسارة اقتصادية . ان هذا التعديل يرمي ، أولا ، الى النزول بهذه الخسارة الى حدها الادنى .

٨ — أشرنا سابقا الى أن عددا كبيرا من الطلاب الذين يدخلون الجامعة في وضعها الحالي لا يتخرجون منها ، مما يضيع على هؤلاء الطلاب سنوات طويلة هي في النتيجة خسارة للمجتمع . يضاف الى ذلك خسارة الجامعة نفسها لبذلها الجهد والمال دون نتيجة . ان التعديل المقترح ، وان كان لا يلغي هذه الخسارة أساسا ، يحد منها كثيرا . وهو بهذا المعنى تدبير اقتصادي مربح على الصعيد الجامعي الاداري ، وعلى الصعيد الاجتماعي — الاقتصادي بوجه عام .

٩ — يعطي هذا التعديل امكانيات قيمة وثمينة للجامعة ولاي مجلس تصميم أو لاي مشروع انماء . ذلك أن هذا التعديل يفرض نوعا من التوجيه للطلاب بحيث يتابعون التعليم الملائم لكل منهم ، ونوعا من التصفية بحيث ينقى الجسم الطالبي من العناصر الضعيفة ، مما يؤدي الى زيادة فعالية التعليم المعطى . ان هذه الامكانية تعطي الدولة (بواسطة مجالسها الاقتصادية والاجتماعية) نوعا من السيطرة على اقنية التوجيه لطلابها ، و « تصريف » هؤلاء في « سوق العمل » ، كما تسمح بربط التعليم بسياسة التوظيف Politique de l'emploi التي ترتأي الدولة وضعها .

١٠ — يسمح هذا التعديل بحل جزء أساسي من مشكلة البكالوريا . فالقبول بهذا التعديل يحصر صفة البكالوريا بكونها شهادة اكمال الدراسة الثانوية . ذلك أن التصفية لدخول الجامعة تصبح في السنة التحضيرية، وتقتصر عند ذلك البكالوريا على اعطاء الحق في دخول السنة التحضيرية وحسب ، لا على دخول الجامعة بشكل نهائي .

١١ — ان من بين الموانع الرئيسية لاستكمال الجامعة اللبنانية القول بأنه من الافضل تحسين مستوى الكليات القائمة ، قبل البحث بتأسيس كليات جديدة . اننا نعتقد أن تطبيق التعديل الذي نقترحه سيحسن المستوى دون ما حاجة ، في البداية ، لتأسيس كليات جديدة . يكفي للوصول الى ذلك امعان النظر في أوضاع الكليات والمعاهد القائمة حاليا ، وتصنيفها مثلا ، في ضوء التعديل المقترح ، (مع كل التحفظ اللازم) بالشكل الاتي :

السنة التحضيرية	كليـــات	معاهد تطبيقية
تحضيرية علمية	كلية العلوم	معهد العلوم التطبيقية (لم يبدأ اعماله بعد)
تحضيرية أدبية	كلية الآداب	معهد العلوم الاجتماعية كلية الصحافة قسم التربية من كلية التربية
تحضيرية للعلوم الانسانية	كلية الحقوق	كلية التجارة

هذا التوزيع الاولي يحتم بالطبع تغييرا جذريا واعادة نظر شاملة في البرامج والمواد وطرق التدريس وهذه أمور كثيرة ومعقدة لن نخوض فيها في هذا المجال .

١٢ — الميزة الاخيرة في هذا العرض هي امكانية تنفيذه فورا دون زيادة كبيرة في ميزانية الجامعة اللبنانية الحالية . وذلك لسببين :

— لن يكون هناك ضرورة ، في البدء ، لخلق مؤسسات جديدة باهظة التكاليف ؛

— الجمع بين الكليات المتشابهة ، يسمح بتوفير بعض الجهد المالي .

ان الطريقة الوحيدة لبرهان هذه الميزة الاخيرة ، هي دراسة موازنة الجامعة اللبنانية الحالية دراسة دقيقة واعادة توزيع أبوابها على ضوء التعديل المقترح .

جامعة الغد

ان القبول بهذا الهيكل العام الشديد الايجاز للتعليم الجامعي ، والاقتناع بمزاياه ، يحتم بالتالي بحث أمور كثيرة منها أساليب التدريس والمناهج ونظام الامتحانات . كما أن هناك تفاصيل كثيرة تتعلق مثلا بالتمييز في المرحلة النهائية من الاجازة بين اولئك الراغبين في ممارسة التعليم الثانوي وأولئك الراغبين في متابعة الدراسة لنيل الدكتوراه . لكنني أتحاشى البحث في هذه الامور الفرعية ، حتى أبقي للهيكل الاساسي الوضوح والبروز الضروريين لنقل النقاش من حلقات المعنيين في الامر ، وهي حلقات ضيقة وشبه مغلقة ، الى جمهور المثقفين والقراء .

ان طرح المشكلة الجامعية كمشكلة وطنية هو أمر حاصل اليوم . ان ظاهرة اهتمام المواطن اللبناني بقضية الجامعة ، تكشف عن تحسس واع لقضايا مجتمعه المصيرية ، وعن ارادة فذة في التغيير — مخاض لبنان الجديد . ارادة التغيير هذه ، هي القوة الضاغطة الدافعة التي ستقتلع الجامعة من مثالبها وتجعل منها جامعة الغد . ولنبدأ ، منذ اليوم ، ببناء هذه الجامعة .

دفتر افكار

نهر الحياة والموسيقى

١ – الفن الداجن

في كل ما ارى من لوحات في البلدان العربية ، لست ارى الفن الصافي الكبير ، ولا اللوحة الجديدة ، وفن التلوين الفنيّ المستقل الجديد .

ارى اشياء تفبرك ، تشغل ، تنتج ، تجمع ، ولا ارى ولادة من داخل .

ارى لمّاً وتراكماً ، ولا ارى نمواً عضوياً لحياة اللون والتأليف .

ارى ركوناً الى التلقّف والنقل ، الى الانسياق مع المرغوب فيه والمتعارف عليه والذي يمكن ان يباع ، ولا ارى جسارة على شقّ طرق جديدة وفتح كوى اخرى في الجدار .

ارى نزعة وكأنها متأصلة في النفوس الى الفنون المحلية الصغرى ، الى اللوحة المدجّنة التي يمكن ان تعيش في بيوت الناس كما يعيش البساط ، وتعيش السجّادة والثياب والمأكولات والعادات والتقاليد ، ولا ارى اللوحة المتخطية المستقلة المتوحدة التي لا تزين بيتاً ولا حائطاً.

ارى اللوحة المائعة المُحلوَنة ، ولا ارى اللوحة التي تقلق ، تهز ، تواجه الناظر بأغوار وحقائق داخلية مجهولة في ابعاد الانسان اللامتناهية .

ارى اللوحة الماكياج ، ولا ارى اللوحة الحقيقة الصريحة العارية .

ارى اللوحة المتبرّجة المصفقّة ، الموضّبة ، الملفوفة ، المعروضة ، اللوحة السلعة ، ولا ارى اللوحة المتبجّسة بالتمزّق والقلق والمعاناة .

ارى اللوحة المنقولة عن مجلات الفن في الغرب ، ارى اللوحة البِيرْكة التي تعكس الاستنقاع في حياتنا ، ولا ارى نهر الحياة والموسيقى .

ارى يداً تصنع اللوحة ، ولا ارى لوحة : رؤية ، فكراً ، سحراً ، نشوة ، تصنع اليد وتحركها .

يقال ان فنانين في بغداد والشام ومصر ، توصّلوا الى ايجاد طابع اصيل خاص مستمد من التراث .



فن ما بين النهرين نعرفه . ونعرف الفن المصري القديم .
ونحن نفضل ان نرى اياً من هذين الفنين الكبيرين العريقين في اصله ولا نحبذ ان نراه مشوّهاً منقولا .
ما الفائدة من اقتطاع نسخ عن فن قديم وتلصيقها على لوحات وعرضها على الناس ؟
إنسان ما بين النهرين عاش في مجتمع بعيد عن مجتمعنا . كان حسه بالعالم وبما وراء العالم غير حسنا ووعيه غير وعينا ، ودوره في سياق التطوّر غير دورنا . كانت الآلة تحيا معه في حياته اليومية حياة حقيقية فعلية احسها واختبرها فاطلع فنه ذاك .
لماذا ننقل اشكال حياة بعيدة عنا آلاف السنين .
هل يتقمص حقاً فنانونا اليوم ، تقمصاً فعلياً تلك الحياة وذلك الانسان ؟
نحن سطحيون مقلدون حتى فيما نظنه عودة الى الجذور .
الدوافع تأتينا من الخارج .

حتى تراثنا يجب ان يرتد الينا من الخارج لكي نتنبه اليه .

كل شيء يجب ان نراه في يد الأجنبي لكي نستحليه ونتلقفه .

بين مساء وصباح رحنا نقتطع نماذج من فنّ ما بين النهرين ونضعها على لوحات لاننا علمنا مؤخراً ان الاجنبي يهتم بتلك المدنيّة ويصدر عنها الكتب والمجلات .

بين صباح ومساء تفتق غرامنا بسومر وبابل واشور ونينوى لأن الاجنبي نبش هذه المدن واهتم بتراثها .

عادتنا ان نتلقف من الغير . نقتل سابر الاغوار اذا كان منا. نصلب يسوع ونطلق باراباس فيما بيننا .

نقيس انفسنا ابداً بالنسبة الى الغير . نقيم ذواتنا واشياءنا بالنسبة الى الآخر ومن زاويته ، وفي هذا العمل بالذات محوٌ لنا والغاء لاستقلالنا الروحي . ما هكذا يستوحى التراث ، ولا هكذا يكون التعبير عن نفسيات الشعوب .

وهناك نكتة الحروف العربية . الكل يعرفون النكتة . الكل باتوا يعرفون اللعبة . ومن المحيط الى الخليج هناك ازدحام على منجم الذهب.

الأحرف العربية نعرفها . الحرف العربي الكوفي جميل ، نعم .. وبعد .

الحرف العربي جميل ولا يحتاج الينا في ذلك . هل نزيد على جماله جمالا وعلى قيمته قيمة اذا اخرجناه من الكتاب ووضعناه على لوحة .

حتى فيما نظنه عودة الى التراث نحن مبتذلون سطحيون سوقيون .

كل خطّ معوجّ ، كل زيح مقوس ، كل شكل متلو او مستدير او مقنطر هو شيء وطني وفن شرقي وميزة قومية . كل لون أحمر أو اصفر او ليموني هو شمس بلادنا وحشاشة اكبادنا .

هكذا يستمر فنانونا في الاصالة والتراث .

لا قيام لفن اصيل كبير عندنا دون نفس منتفضة نشيطة متيقظة ، حرة ، عارفة ما تريد ، مؤمنة بذاتها ، معتمدة على ذاتها . دون انسان جديد كل الجدّة يحل على هذه الأرض .

٢ — الغوص الى الذات الخلاقة

القصد هو الغوص الى الذات الخلاقة .

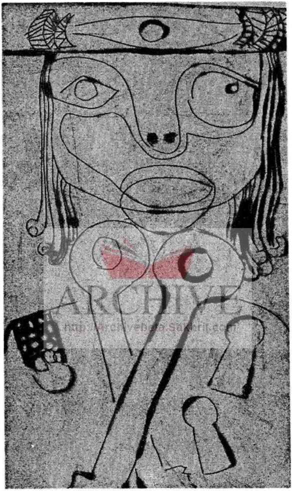
الذات الخلاقة غير الذات العادية التي نعرف بها ان نستمر بيولوجياً واجتماعياً . هي غير الذات التي نتزيّا بها حسب الظروف ونتحوط حسب المحيط ، ونعكس ما حولنا كالمرايا أو كالحرباوات .

الذات الخلاقة روح نشيط حر . ارادة الفكر الحب الخيال . قوة بها نتخطى ، بها نخترق ، نخلق ، نتحول ، لا نتحوّط .

الذات الحركة التي هي ابداً دفع وخرق . لا تتحوط ، بل تتحول ، تخرق، تخلق ظروفاً جديدة واشكالا جديدة لتحولها الدائم التجدد .

ولادة من جديد . قفزة في العلاء تفصل بين عالمين . عالم التيبس وعالم النمو . عالم الظلمة وعالم النور .

القصد هو الغوص الى الاعماق ، الى الذات الكبرى ، الى خزان القوى الخلاقة وتفجيرها .



القوى الخلاقة تلك التي أطلعت التراث القديم وتطلع الجديد .

نغوص اليهـــا ونطلقها في خلق اشياء جديدة قد تختلف كل الاختلاف عن اشكال التراث القديم .

اشكال جديدة تخص العالم الجديد الذي نحيا فيه ، تحكي لغته ، وتحمل علامته ، وتشارك فيما وصل اليه فن اليوم في آخر شوط من اشواط نشاطاته . الاتصال بالتراث والاستمرار فيه ، ربط الجديد بالقديم والقديم بالجديد، لا يكون بنقل اشكال التراث القديم وتقليدها ، بل يكون بالغوص الى القوى الخلاقة ذاتها التي اطلعت القديم واطلاقها لخلق اشياء جديدة قد لا تشبـــه

الاشكال القديمة في شيء ولكنها تتصل بها بمعنى انها وليدة الذات الخلاقة ذاتها التي اطلعت القديم وتطلع الجديد .

الاشياء الجديدة تتصل بالاشياء القديمة بمعنى انها تحولات وتغيرات جديدة للقوى الروحية النهوضية الانتفاضية الخلاقة ذاتها التي اطلعت القديم وتطلع الجديد . علاقة الجديد بالقديم ، والقديم بالجديد ، ليست علاقة اجترار وتكرار . ليست علاقة اشتقاق واستخراج اصطناعي خارجي ، بل هي ليست حتى علاقة سبب بنتيجة وعلة بمعلول . انها علاقة اعمق من ذلك بكثير . انها علاقة حياة دائمة في الاعماق . علاقة تحولات وتغيرات وتجدد وانتفاضات حياة كانٍ تتعاظم وتتكامل الى ما لا نهاية له .

٣ — خرق التراث

اذا لم نخترق التراث استعبدنا التراث .

اذا لم نتخلص من اجترار التراث ، اذا لم نعرف كيف نلقي التراث جانباً ، سمّرنا التراث الى الماضي الذي هو هو .

من كثرة ما نتغنى بالتراث ، من كثرة ما ننام على امجاد تراثية اكثرها وهمي ، اتمنى لو لم يكن عندنا تراث .

علينا ان ننسى ان لنا تراثاً او كان .

علينا ان نعود انفسنا على الشعور بأننا متروكون وحيدون وعلينا ان نبدأ من الأول ومن الآن في خلق شيء جديد .

كم تنقلب التراثات احياناً الى حجارة طواحين في الاعناق ، والى سلاسل في الارجل ، خاصة في الشعوب المتأخرة المقصرة الغبية التي ليس لها في عالم اليوم سوى التغني بالتراث .

التراث شيء من عداد المُعطى ، المنتهي ، المفعول .

هو ماض . هو يباس . هو حد .

التراث شيخوخة وحتمية . والخلق شباب .

كيف نلقي التراث جانباً دون ان نقتلع من الجذور ؟

كيف نكسر قشرة التيبس . كيف نخرق التراث ونبقى ضمنه وفيه ؟ خرق التراث ليس عملاً استبدادياً .

لا يكون بالكفر .

هناك الزام . هناك غرض وقصد . الزام هو الحرية .

حرية لها غرض والزام وتبقى في الآن معاً حرية لان الغرض فيها هو غرض داخلي لا غرض خارجي .

غرضها منها وليس من غيرها .

حرّية تلزم نفسها ان تبقى حريّة . ان تطرد كل أنواع الحتميات والضغوطات والمغريات والتسويات والتسهيلات حولها وتغوص حرية صافية الى الاعماق الى الذات الكبرى ، الى النفس التي هي الضمان الأوّل والأخير في الخلق والفكر والتقييم والحياة .

تلزم نفسها ان تغوص صافية الى منطقة الامهات .

تلزم نفسها ان تتحمل شظف حياة الفكر والخلق والتخطي ووحدتها ووحشتها ورعبهـــا .

غرضها ان تغوص حرية صافية الى خزان القوى الخلاقة التي تبدع ولا تتبع ، تتحول ولا تتحوط ، تخلق ولا تسرق . القوى التي تصنع الانتفاضات وتطلع النهضات ، فتعمل بها في خلق اشكال وصور ومثالات جديدة كل الجدة ، غير منقولة عن التراث او عن اي شيء آخر .

التراث ماض وجمود . والفن حركة وفعل .

التراث في حد ذاته شيء حاصل مُعطى جامد لا يحيينا ولا يدفعنا ولا يجددنا ، بل نحن الذين نحييه ونجدده ونقيمه بما نعمله الآن وهنا .

الفنان المبدع لا يكون صنيع التراث بل صانعه . هو الذي يبقي التراث حيـــاً متحولاً متجدداً بفضل نشاطه الحر الخلاق الدئم .

بالصدق المطلق الحرية يحيي الفنـان التراث ويطلع أشياء جديدة تتصل بالتراث من غير ان تكون مشتقة منه عمداً او مستخرجة منه استخراجاً .

الهرطقة المؤمنة الصادقة هي ميزة الفنان الاصيل .

لا شي جاهز عنده . لا شيء مكتمل مختوم منزل حتمي .

الفن عنده ليس في المعطى والحاصل ؛ هو في الصيرورة الدائمة .

يقظته تتجه ابداً الى الذي يصير ويحدث وليس الى الذي صار وحدث . الذي صار انتهينا منه . حصلنا عليه . انه هناك حلو وجميـــل .. وبعد ؟ كل ما صار دخل في الطبيعي المعطى وصار منه .

التراث إذاً طبيعة .

الفن يأتي من الفن لا من الطبيعة .

نور من نور . إله حق من إله حق .

والطبيعة — ومنها التراث — عظيمة وجميلة . آية رائعة من عمل فنان خالق قدير . نجل ذلك ونفرح به . ذلك شيء حصلنا عليه .. وبعد .

أنقف عند هذا الحد . أيكون عمل الفنان هو ان ينقل قطعةجمال من هنا ويضعها هناك . ان يشيل قطعة من هذا الجيب ويضعها في الجيب الآخر . أيكون عمله كتجارة جحا بالبيض ؟

غرض الفنان الاصيل ان لا يقلد ولا يردد ولا ينسخ غيره من الفنانين مهما كبروا وعظموا .

الطبيعة جميلة وعظيمة ولكن الفنان الاصيل لا يشعر بهول تجاهها ، ولايتبعَ مها كانت آياتهـا بينـــات .

في حضرة الطبيعة — ومنها التراث — يشعر الفنـــان وكأنه في زيارة متحف ، او زيارة محترف زميل له من الفنانين كبير ، فيتأمل ما يراه من انتاج غني مبدع غزير ، فيفرحه ذلـــك ويستهب فيه شعور من الفرح والحمـــاسة ليستعجل العودة الى محترفه هو ويعمـــل ويخلق بحماسة وفرح وفيض لا ليقلد وينسخ بل ليطلع اشيـــاء فنية تخصه هو او تخص ما بامكانه ان يطلع هو كفنان بين الفنانين .

بقدر ما يكون التراث عندنا غنياً يجب ان تكون القوة التي نحتاج اليها للتخلص من تقليده ونقله ، للتخلص من اغرائه وشده ، للتخلص من ديكتاتوريته ، اشد واعظم .

حليم جرداق

(الرسمان بريشة حليم جرداق)

دعوا الشعر يصير جناحا لمسرحنا الكسيح

الصلة بالجماهير هي القضية الاساسية والاولى في الاهمية بالنسبة الى مسرحنا الناشىء . لانها تثير عددا من القضايا المسرحية الاخرى . ولانها تطرح السؤال عن مصير المسرح ومدى فعاليته ، بشكل جدي ومقلق .

فكل مسرح ، وسواء أكان طليعيا أم ملتزما أم تجاريا ، يطمح في قرارته الى الظفر بهذه الصلة ، وانما تختلف الوسائل والطرق كما تختلف مقادير الصلة وأنواعها .

لا تزال هذه الصلة في تجربتنا المسرحية بلبنان ، ضائعة مضطربة بين «تكنيكجيي» مسرح منزوين خلف مقتنعاتهم الجليبة والآلية ، وبين متهافتين على الجمهور لا يعرفون كيف يتوسلون رضاه ، وبأي ثمن يحصلون عليه .

مع الفئة الاولى يتحول المسرح الى صفة وشكل خارجي . ومع الثانية الى ميوعة تنعدم فيها شخصية الفنان .

بين الاتجاهين تضيع الحقيقة الفنية . فيفقد المسرح واقعيته ، أو يكون واقعيا أكثر من اللزوم . أي لا يكون واقعيا على الاطلاق . يكون يوميا وزائلا أو متصلبا كالارقام ، ويكون هم المشتغلين به اجتياز الخشبة برخص وسهولة أو عدم اجتيازها مطلقا . فيحصل الذوبان في رغبات الناس السطحية عند بعض ، والانقطاع التام عند بعض آخر .

من تناقض هاتين الفئتين انه لم يحدث التناقض الكافي بين اعمالهما . أي لم تصلا الى نقطة الصدام الذي يتولد منه الصراع الفني المنتج والشاحذ على الخلق . فهما تعيشان في مستويات مختلفة ويمر كل منهما بالنسبة الى الآخر مرورا غير ملحوظ . ولا عبرة بتلك الاحقاد الصغيرة والشخصية فهي من نوع ثرثرات العجائز وليست صراعا بالمعنى الفني .

ان فقدان الصراع بين المدارس المسرحية عندنا هو الدليل الحسي الاول على عدم وجود مدارس مسرحية ، وبالتالي على فقدان الصفة المميزة للمسرح اللبناني. لقد بدأ مسرحنا جليبا ولا يزال، لسوء الحظ، حتى الان.

لم يصل بعد الى بلورة الاصالة ودفعها الى النجاح . والاصالة لا تتبلور حقيقة ، الا بالصلة الحية مع جماهير المشاهدين . والصلة بالجماهير ليست مفهوما كميا فحسب . فحفلات مصارعة الثيران ، ومباريات الرياضة تجمع في مدرجاتها من الناس اكثر مما تجمع انجح مسرحية ، ومع

ذلك فان هذه الجماهير تظل مجموعات من الافراد لا يجمع بينها الا الحماسة . ولعله من هذا النوع اجتماع الناس على الطرب أو على الضحك في بعض المسارح المزدحمة بالمتفرجين .

أما الصلة التي يطلبها المسرح فتتجاوز ذلك السطح من العواطف المشتركة . انها نوع من المشاركة في العواطف العميقة والمتنوعة والمعقدة ، كالحب والبغض ، والخوف ، والامل ، والتأمل في الموت والحياة والقدر . ليس هذا فحسب ، بل ان نوع المشاركة يختلف بين المسرح والفرجة اختلاف التفاعل الحي عن ملاحظة الشيء ملاحظة وحسب .

ان مهمة المسرح الاساسية في مضمار الصلة بالجمهور ان تحول المتفرج الى مشاهد . أي أن تخترق سطح اللهو عنده الى أعماق الاهتمام الجاد ، حتى الاتحاد في معناه الصوفي الاصيل . هذا التحول لا يحصل الا بضرب من السحر الضروري لكل عمل فني . ان الاقاليم التي يصل اليها المسرح في حقل الصلة بينه وبين الجمهور هي في الواقع أقاليم شخصية وفردية تنمو تحت سقف العزلة والانفراد . فأمام مشاكل الموت والحياة والحب والقدر يجد الانسان نفسه وحيدا . ولكن المعجزة التي يحققها المسرح هي أن يوصل الجمهور ، على كثرته ، الى اقصى حدود الوحدة وأعمق أبعادها . المتفرج في حفلات السيرك والمصارعة يصبح جزءا من موجة الحماسة الجماهيرية . ولكن المشاهد في المسرح يصبح كلا ، وعالما يصل الى وحدته لا عن طريق الانفصال عن الجمهور بل عن طريق الاتحاد به . يصبح الفرد في أخص خصائصه ، وأعمق دخائله هو المعني ، ولكنه ليس معنيا في معزل عن الاخرين ، ولا ذائبا في موجتهم . بل يبتلع الاخرين ، ويحتضن موجات التأثر . فاذا هو الواحد والكل في آن معا . هو الفرد والجماعة . هو الجماعة في فرد .

السحر المسرحي هو وحده الكفيل بحل التناقض بين عبقرية الفنان الفرد ومستلزمات المشاركة الجماهيرية ، كما انه الكفيل بحل التناقض بين وجود المشاهد في وحدته ووجوده بين الاخرين في حال واحدة .

وطن الفنان ذاته لا الاخرون . والمسرح ، على رغم صفته الاجتماعية ، هو قبل كل شيء فن جميل ، منبعه فردي وشخصي ، فليس بين المؤلف والورقة شيء الا الهامه وثقافته وذوقه . وليس بين المخرج والخشبة الا أفكاره وأدوات عمله . حتى الممثل — الذي يبدو أكثر العاملين في المسرح اتصالا مباشرا بالجمهور — لا يستطيع أن يؤدي رسالته اليه الا باستجماع نفسه واللجوء الى حاله الداخلية .

قد يبدو غريبا ان الفن الاكثر اعتمادا على الصلة بالناس ، ينمو تحت سقف العزلة ، وينبع من الوحدة الفردية . ولكنها غرابة معززة بالواقع الحاصل . فالفنان الذي يضع الجمهور حاجزا بينه وبين حاله ، يتعثر به ويجده حائلا بينه وبين الخلق . لذلك ترى ان الفنان الذي « يريد » أن يكون شعبيا ينتهي بخسارة نفسه . وقد تدوم له العلاقة بالشعب فترة من الزمن ثم تسقط هذه العلاقة عندما تنتهي المشاغل الشعبية اليومية التي كرس لها فنه . فالصفة الشعبية للعمل الفني لا تأتي بالقصد ولا تصنعها الرغبة في معالجة « المواضيع التي تهم الشعب » . لان « المواضيع التي تهم الشعب » شيء متغير متقلب على الدوام ، والفن

من طبيعته أن يلامس الباقي والانساني والمطلق .

« المواضيع التي تهم الشعب » تستطيع أن تصنع خبز الصحافه . ولكنها لا تستطيع أن تصنع خبز الفن ، واذا صنعته بالعرض فانها لا تستطيع ان تصنعه يوميا . قد تستطيع أن تؤمن الشهرة الموقته والحماسه العابرة ولكنها لا تستطيع أن تضمن البقاء ، لانها هي نفسها غير باقية ولا مستقرة . لو توسل شيكسبير سبل النجاح عن طريق معالجة « المواضيع التي تهم الشعب » لزالت أهميته بزوال هذه المواضيع وحلول غيرها محلها . ومع ذلك فان شيكسبير فنان شعبي بدليل انه انساني وباق . فالصفة الشعبية تحصل من الزخم الانساني الذي يتفجر من الاثر ، وهذا الزخم الانساني لا يصل الفنان اليه عن طريق القصد الخارجي والاختيار البارد بل عن طريق هواتفه البعيدة ورغبات نفسه الخفية . ولا يصل اليه عن طريق الاخرين بل عن طريق استلهام ذاته . ولا يصبح شعبيا بالفعل الا اذا كان يحتضن في ذاته هموم الناس ، بغير قصد ، واذا كان قلبه حاملا لعذاب العالم كله . لا يكفي أن أسمع على خشبة المسرح اعتراضا على نظام الضرائب وفوضى السير وغلاء الصبابيط والكتب المدرسية . انني أطلب من الخشبة عالم فنان عملاق لا تزول أهميته اذا ألغيت الضرائب وتنظم السير ورخصت الصبابيط ووزعت الكتب المدرسية مجانا . انني اطلب لغة سحرية تحدثنا عن هموم الانسان ، أي انسان ، سواء كان مناضلا في الفيتنام أم سائحا في حي الزيتونة . فعلى الرغم من تناقض هذين الا نموذجين من البشر يظلان يلتقيان على حب الحرية ، وحب الحياة ، والحاجة الى الصداقة . أعتقد ان الصحافة تتحدث كفاية عن تلك المواضيع التي تهم الشعب والتي ليست هم أحد بصفة خاصة . فليتركوا للفن أن يعبر عن هموم الانسان .

هناك نقاد كثيرون يأخذون على مسرحنا انه لا يعكس قضايانا المحلية ومشاكلنا الشعبية . وفي رأيي ان من أهم عيوب مسرحنا كثرة الاهتمام بهذه المشاكل من الخارج ، والحرص على ابرازها بأي ثمن . اردنا أن نصل الى الاصالة فضللنا طريقها . ظننا اننا نصل اليها عن طريق تعداد المشاغل اليومية ، وعن طريق الاكثار من أصباغنا القروية أو البلدية . فتشبثنا باللون المحلي وفقدنا الاصالة . وليس اللون المحلي الا ظلالا عابرة على وجه بحيرة الاصالة الحقيقية . انه القشرة الخارجية التي تغلف ماء الفن وحلاوته ، حيث الانساني والباقي .

كان من مظاهر هذا التهافت على اللون المحلي اسراعنا الى ما أسميناه اقتباسا ولبننة . وقد كان في الواقع عملا مزورا وشاذا ، تزويرا وشذوذا لم يكن منهما بد في بداية المرحلة ، أثناء تلمسنا معالم الطريق . فأسرعنا الى أعمال المسرحيين العالميين ، نلبس أبطالها أسماء عربية ونضع على رؤوسهم الكوفيات او الطرابيش ، وعلى افواههم بعض همومنا اليومية ، فنفسنا عن ضفوطنا برئة اصطناعية ، ولكننا لم نصل الى جوهر الصلة بشعبنا عن هذه الطريق . استطعنا ان نضحك الناس وان نسليهم ، وان نقدم لهم شيئا من المتعة ، وان نجلب اليهم المسرح ولكننا لم نستطع ان نجعل المسرح معبدا . لم نستطع بعد !! ولكن وظيفتنا ، نحن ، جيل شهداء المسرح ، أن نمهد لذلك . وأن نترك اسماءنا تمحي في طريق المسرحي الاتي الذي سينتصر .

لقد اكتفينا نحن أن نعيش في سجن الافكار العامة . وانصرفنا الى تطعيم الاثار الخالدة ببعض هموم شعبنا في المقتبسات المسرحية . عشنا في سجن الافكار العامة لاننا لم نجرؤ أن تكون لنا أفكار خاصة وهواجس خاصة . عندما نخاطب الناس الذين دفعوا اثمان بطاقاتهم وجلسوا ينتظرون . لم نجرؤ أن يكون لنا خيال . وخفنا أن نقع في الشعر . وهذا ناتج عن الفكرة السيئة التي حصلت لدينا عن الخيال والشعر من رواسب القرن التاسع عشر . لا نزال ننظر الى الخيال وكأنه شيء غير حقيقي يبعدنا عن جوهر الاشياء . يوم كان الخيال مد كلمات ، وعناق الفاظ عقيمة . ويوم كان الشعر تأريخا للحظات اليابسة ، بدأنا نكره الخيال والشعر ونطلب عنهما بديلا .

اليوم ادركنا شيئا جديدا هو أن ابتعادنا عن الشعر في المسرح كانت له حسنة عظيمة هي انه زادنا رغبة في الشعر بعد غيابه عن الخشبة ، وبقدر ما كرهنا الشعر القاموسي تشوقنا الى الشعر الحي . وبقدر ما دمر الشعر المفتعل هندسة البنيان المسرحي بقدر ما ننتظر من الشعر الحقيقي أن يبنيه . كرهنا التشاعر واحببنا الشعر . رفضنا ناصيف اليازجي لنسير على طريق اسخيلوس .

العاملون في المسرح يعرفون أن مساكن الشعر ليست القصائد وحدها . ففي مداعبات جورج شحادة من الشعر المضيء ما لا نجده في قصائد حليم دموس . فانما الشعر ملك الفنون الادبية كلها . وكل أثر خال من الشعر فمصيره الى الجفاف والتفتت .

تقودنا الصلة بين المسرح والجمهور ، الى التوقف عند اللغة المعبر بها على خشبة المسرح . انها مشكلة فريدة نعانيها نحن هنا دون سائر الامم التي لا يطرح المسرح عندها مشكلة لغته . ولكننا نطرح هذه المشكلة ونغالي أحيانا في تضخيمها نتيجة لاوضاع كثيرة ، ومتداخلة خلفتها قرون طويلة من التبعية والاستعمار . فخلال هذه القرون فقدنا صلتنا الحيوية بلغتنا حتى جمدت هذه وتوقفت عن التطور . فلما استفقنا من اغفاءتنا راعنا ما نجد من الهوة بين زماننا الحاضر واوضاع اللغة التي تردت . وفقد بعضنا ذاكرته ولم يرد أن يدرك امكانات التطور التي تحملها لغتنا في الداخل ومدى استغلالها هذه الامكانات في العصور السابقة . ومني بعضنا الاخر بجهل لغته واتخذ لها بديلا في حديثه اليومي . واسهمت مدارسنا وسياستنا التربوية في تكريس هذا البعد عن اللغة الام . كان من شأن هذا كله أن شجع بعضهم على الطعن في اللغة نفسها ، وادعاء تقصيرها ، والدعوة الى استبدالها .

ندع الآن جانبا الحلول النظرية والفرضيات لنلاحظ ان اللغة العربية لا تزال حية ، بالرغم من جميع الحواجز التي تحول بينها وبين التعبير عن العصر بكافة نواحيه . لا تزال حية لانها لا تزال قادرة على خلق الصلة بين الجماهير والافراد . وهي قادرة على خلق الصلة بين الجماهير والمسرح . لا شك ان اللغة العربية ، على لسان ممثل هزيل الثقافة تصبح ميتة ، تماما كما تموت أكثر اللغات حياة على السنة الممثلين الذين لا تعيش هذه اللغات في دمهم ، أو غير المتمرسين بها . لقد اثبتت مسرحية كاليغولا هذا الصيف أن ممثلا قديرا يستطيع ان يحرك الفصحى بحيوية وعفوية وطبع ، وان ينقلها بطراوتها ودقة ظلالها الى جماهير قروية غير

مثقفة في اكثرها لا مسرحيا ولا لغويا . طبعا لا يمكن لهذه التجربة ان تنجح مع ممثلين يعرفون لغتهم معرفة المستشرقين ، أو مع مخرجين لغتهم اليومية الفرنسية أو غيرها أو ليست لهم لغة يومية لانهم يتحدثون مزيجا من اللغات يعرفون كلا منها نصف معرفة . ولكنها تنجح مع الاصلاء في لغة قومهم ، المؤالفين لما في طياتها من زخم التعبير وغناه ودقته . نصل هنا الى ان مشكلة اللغة في المسرح هي مشكلة المسرحي — ممثلا أو مخرجا — بقدر ما هي مشكلة المؤلف . والمؤلف الذي يسعى الى ايجاد « لغة مسرحية » مستقلة عن « اللغة » ، فهو كالفقير الذي يحلم بالحصول على الثروة عن طريق اختراع نقود جديدة . لقد آن لاولئك الذين يفتعلون قضية اللغة أن يدركوا ان اللغات لا تفتعل ولا تخترع . ولكنها شيء حي ينبع من حاجة الانسان الى التعبير ويتطور مع تطور هذه الحاجة وتنوع مطالبها . من هذه الزاوية نكتشف ان صاحب اللغة الحقيقي هو المبدع ، شاعرا كان ، أم عالما ، أم فيلسوفا ، وليس النحوي الا تابعا لهذا المبدع يحمل أذيال ثوبه ويؤرخ خطواته في المغامرة الجميلة . ولا شك أن اللغة تتطور ولكنها تتطور بالعمل الفني ومن داخله . تشع منه حركتها اشعاعا . تتوالد تحت سقفه . وتفرض نفسها مطلة من نوافذه . فلا تبقى قيمة للقول أن المسرح عندنا هزيل لعجز لغتنا عن القيام بمطالبه ، بل الاصح أن لغتنا تبدو هكذا لعجز المسرحيين عن اتمام شروط فنهم .

هذه حالة من العجز ينبغي أن نقر بها ، وينبغي أن نعرفها ، ونحن نمهد سبيل المسرحي الاتي الذي سينتصر .

هذا المسرحي الاتي يلوح لنا الان في محاولات قليلة على صعيد الاخراج والتمثيل . بدأ يطل بوجهه البهي . بدأنا نتشوق الى قدومه . بدات الفئة التي تهيئه تتحرك في محاولات جادة . انها فئة ضئيلة ولكنها تعرف القصد بين ميوعة الارتماء في رضى الجمهور ، وتصلب المنغلقين عليه . هذه الفئة الضئيلة ، تدرك ، مع اعترافها بوجود الجمهور ان للعمل المسرحي مقومات فنية لا يجوز التخلي عنها ولو بثمن التصفيق والشهرة . ليس الجمهور في نظرها صنما يسترضى ويستعطف ، وليس وحشا يخشى ويهرب منه . ولكنه عنصر من عناصر المشهد وجزء من أجزائه الفنية . جزء عضوي ولازم . يعامل كما تعامل بقية المقومات الفنية ، بالتعرف اليه واكتشاف طبيعته ثم باستغلال امكاناته كقوة جاذبة في حركة العمل . ومن سوء طالع هؤلاء ان طريقهم طويلة وشاقة ، وانهم لا ينعمون بكنوز ملوك الدعاية .

الان بدأ دور هذه الفئة ولن تستطيع التراجع . بدأ دورها لتنمي التأثير السريع ، وتلغي بهر النظر بالخارج واللون والشكل ، وتهتم بالمضمون الانساني . بدأ دور الفئة التي طلبت الاصالة عن غير طريق الفولكلور وعن غير طريق التقليد لاشكال الفن الغربي ، وعن غير طريق التلاعب او الاستدرار .

ان انتفاضة السنوات العشر لم تكن كافية . نحن نحتاج الى انتفاضة كل سنة .

ادوار امين البستاني

التلفزيون في لبنان :
وسيلة جديدة لخدمة الرجعية والتخلف

الحقيقة الاولية عن التلفزيون اللبناني ، في محطتيه ، هي انه يبقى وعدا لم يتحقق بعد تسعة اعوام من العمل المتواصل . انه ، في كل بيت لبناني ، صندوق سحري صغير يفتحه المشاهدون بكثير من الرجاء كل مساء فيجدون ، بعد لحظات ، ان آلية السحر قد تعطلت فيه . وتتكرر العملية يوميا : فبدلا من الرؤى العجيبة او البهية او المدهشة التي يتوقعها المشاهدون ، يتكشف الصندوق الصغير عن مشاهد يومية عادية لا تحمل من السحر الا وعده ، فيغرقون بكسل مريح في ساعات الرتابة الكئيبة .

تتضافر ثلاث قوى لابقاء التلفزيون على وضعه هذا . هناك اولا رؤوس الاموال الاجنبية ، المتنافسة سياسيا وتجاريا ، التي تسللت الى شركتي التلفزيون فسيطرت عليهما واسهمت حتى الآن في منع قيام دمج بينهما ، رغم ان الكثيرين يعتقدون ان هذا الدمج هو خطوة اولى لا بد منها لحل مشكلة التلفزيون في لبنان . وهناك ثانيا ادارة التلفزيون في محطتيه ، التي تسير اموره بعقلية ضيقة ، منعدمة المخيلة ، بعيدة كل البعد عن روح الاصلاح والتجديد والابداع . وهناك ثالثا الحكومة ، التي تبقى نظريا صاحبة الكلمة الفصل في وضع التلفزيون ، ولكنها اكتفت حتى الآن بتحريك قضيتهما من حين الى اخر ، دون ان تكون مستعدة لفعل اي شيء حاسم بشأنهما .

هذه القوى الثلاث تركت التلفزيون يتحرك بقوة الاستمرار وحدها طيلة هذه الاعوام لان لكل منها منفعة أو فائدة من وضعه الحالي . ويبقى المتضرر الوحيد هو جمهور التلفزيون والشعب اللبناني . والضرر هنا سلبي وايجابي في آن واحد . سلبي من حيث ان المسؤولين عنه ، في الشركتين ، ظلوا عاجزين حتى الان عن تحقيق ادنى طاقات هذه الوسيلة الاعلامية الفذة . وايجابي من حيث ان المواد الرديئة التي يقدمها ، في الشركتين ، تترك تأثيرات خبيثة شتى في اذهان الجمهور الكبير الذي لا سلوى له في الامسيات الموحشة الا مشاهدة برامج التلفزيون .

هذه الحال تؤلف ، في الواقع ، مؤامرة واعية أو غير واعية على الشعب اللبناني بالنظر الى تأثير برامج التلفزيون الراهنة على النسبة العالية من اللبنانيين الذين يشاهدونها . فالمواد التي تعرضها الشركتان

في قناتيهما الرئيسيتين ، حتى باستثناء القناة ٩ المخصصة لعرض برامج ناطقة بالفرنسية والانكليزية ، تتألف مناصفة تقريبا من البرامج اللبنانية والمصرية ، ومن البرامج الاميركية والانكليزية والفرنسية . بيد ان اكثرية هذه البرامج ، العربية والاجنبية على السواء ، تكاد ان تكون من النوعية ذاتها : انها جميعها تقريبا تعمل على ترسيخ القيم والاخلاقية المحافظة والرجعية في المجتمع اللبناني .

ان المبدأ الذي تعتمده ادارة التلفزيون في الشركتين والرقابة الرسمية في اختيار البرامج هو ، على ما يبدو ، عدم السماح بتسلل اية افكار ثورية ، او حتى اية اراء جديدة ، الى البرامج المعروضة . ليس ثمة مجال كبير للاختيار في البرامج المستوردة من اميركا وفرنسا وبريطانيا ، لان معظم المواد التي تعرض في محطات تلفزيون تلك البلدان موجهة توجيها حذرا ، بدورها ، لدعم الوضع القائم في كل منها . ومع هذا ، فان هذه البلدان ، وبنوع خاص بريطانيا وفرنسا ، تنتج عددا من البرامج الفنية والمسرحية والثقافية التي تتصف بنوعية عالية وبمضمون خال من الموحيات والمؤثرات السياسية والاخلاقية الخبيثة ، وكان بامكان شركتينا ان تختارا استيراد هذه البرامج او بعضا منها على الاقل .

الا ان الشركتين آثرتا دوما الا تستوردا الا تلك البرامج التي يظن انها ستلقى رواجا بين الجمهور ، وهي عادة من النوع السطحي الذي يهدف الى الاثارة الزائفة عن طريق تقديم نسبة عالية من العنف والجنس . وربما كانت حجتهما في ذلك ان ميزان الربح والخسارة الذي تعملان بموجبه كشركتين تجاريتين لا يسمح لهما الا بتقديم تلك البرامج التي تجتذب اكبر نسبة ممكنة من المشاهدين ، وبالتالي المعلنين ، لكن تأكيد هذه الحجة يكاد ان ينفي وجود اي تمييز او اختيار متنور على ضوء طاقة التلفزيون كوسيلة اتصال لجماهيرية فذة في خدمة الشعب اللبناني .

تتجلى « المؤامرة » بمزيد من الوضوح في نطاق البرامج المحلية ، ذلك بان ثمة تشديدا زائدا فيها على تمجيد السطحية والسخافة والقبح والافكار التقليدية المحافظة وحتى الرجعية . وهذا القول ينطبق بوجه عام على البرامج الثابتة او الدائمة في الشركتين ، من المنوعات الفنائية الى برامج الالعاب ، ومن التمثيليات الحية والمسلسلات التمثيلية المصورة بالفيديوتيب الى برامج المقابلات .

فبرامج الالعاب ، مثلا ، تبدو محضرة بصورة خرقاء لاشراك الذين تستهويهم فكرة الحصول على جوائز مادية سهلة المنال . وهذه البرامج لا تهبط الى مستوى مريع من « التسلية » السخيفة الهادرة للوقت وحسب ، بل انها تفسد المشتركين فيها والذين يشاهدونها من حيث انها تمنح الجوائز لمن لا يستحقونها وتعلم البسطاء ان يتوقعوا الحصول على شيء دون بذل اي جهد .

واذا كانت برامج الالعاب تفسد الاخلاق وتعطي صورة خاطئة عن واقع الحياة ، فان البرامج الفنائية المنوعة تفسد الذوق العام حتما . فاذا استثنينا بعض البرامج التي تعرض مرات قليلة نادرة في السنة ، كبرامج الاخوين رحباني وفيروز بنوع خاص ، وجدنا ان معظم البرامج الفنائية الثابتة ، او حتى التي تعرض في المناسبات والاعياد ، هي مزيج

مشوش لا شكل له من الاغنيات والرقصات التي تقدم عادة في كاباريهات ومرابع ليلية من الدرجة الثانية والثالثة . فحفلة المنوعات التي تعرض في التلفزيون تتألف عادة من وصلة او وصلتين طويلتين من رقصة هز البطن التي تؤديها راقصة يخيل اليك احيانا أن كل ما تملك من كفاءات فنية يتركز بصورة رئيسية في مزايا جسدها البارزة وفي استعدادها للكشف عن اكبر مساحة ممكنة من لحمها الابيض البض دون الاساءة الى الرقيب الرسمي ، وما تبقى من الوقت يملؤه عدد من المغنيات والمغنين ذوي الكفاءات والمواهب الضحلة ، بأغنيات تردد الكلام الرتيب الكئيب عينه عن الحرمان والحب والقمر والنجوم .

والحقيقة الاولى التي تبادرك في نطاق برامج التمثيليات الحية والمصورة هي أن لا مكان فيها على الاطلاق للمثقفين من ذوي المواهب الفعلية ، وللمضمون الفني الجدي ، وللافكار الفنية والسياسية المبتكرة او الجديدة او الثورية . فهذه كلها ممنوعة بحكم العقلية المحافظة المهيمنة على التلفزيون في شركتيه . وبدلا من هذا تقدم الشركتان عددا من البرامج التي لا يروق معظمها الا للكهول والشيوخ (او ذوي العقليات الكهلة والشائخة قبل الاوان) والاطفال الذين لا تتجاوز اعمارهم سن التاسعة او العاشرة . فعلى المشاهدين ، مثلا ، ان يختاروا بين برنامج « مسرح الفكاهة » الذي يقدمه صلاح تيزاني وفرقته وينخفضون بالفكاهة فيه الى مستوى سحيق من التهريج الرخيص ، وبين برنامج « يسعد مساكم » (اطول البرامج عمرا) الذي يقدم فيه اديب حداد جرعات سخية من المواعظ التقليدية والحكم المحافظة . وحتى في المرات القليلة التي يقبل بها التلفزيون بعرض اعمال لفرق مسرحية محترفة او شبه محترفة ، تكون هذه الاعمال عادة من المسرح الكلاسيكي الذي لا يخشى من ثوريته وتأثيره ، او تكون اعمال محضرة خصيصا للتلفزيون وتنطوي على مواضيع خالية تماما من اي مضمون فكري او سياسي .

وتبقى برامج المقابلات اكثر البرامج وعدا ، من حيث ان طبيعتها عينها تفرض عليها مستوى « فكريا » اعلى بعض الشيء من مستوى البرامج الاخرى . ولكن سياسة ابعاد الافكار والآراء الجديدة والثورية ، حتى في الامور غير السياسية وغير « الحساسة » ، تبقى هي السياسة السائدة هنا كذلك . لقد قدمت شركتا التلفزيون عددا من برامج المقابلات منذ تأسيسهما ، وكانت هذه البرامج كلها تقريبا تركز على اجراء مواجهات مع النوع « السليم » و « المضمون » من الاشخاص ، كالوزراء والمسؤولين في الدولة واعضاء الجمعيات الخيرية ، وغيرهم من «الابرياء» الذين يسمون عادة وجوه المجتمع ونجومه . وكان معظم المقابلات في هذه البرامج من النوع السطحي والسريع (حرصا على « تسلية » المشاهدين) بحيث تبقى الاحاديث بعيدة عن الامور الحساسة (اي السياسية والعقائدية والدينية) وتخلو من اي مضمون فكري او ادبي او فني جدي .

وحتى في برنامجي « مع اهل الفكر » و « نجوم على الارض » ، وهما برنامجا المقابلات الجديان نوعا ما اللذان ابتدات بعرضهما احدى الشركتين في الاشهر الاخيرة ، تجد ان ليلى رستم ، السيدة المصرية الذكية سريعة الخاطر التي تقدمهما ، تحرص على عدم التطرق الى المواضيع «الحساسة» وتحاول بجهد مؤلم الا تغوص الى اعماق اي موضوع . والى ذلك ، فان

معظم الذين قابلتهم السيدة رستم هـم من المغنين والممثلين السينمائيين الشهيريـن في برنامج « نجـوم على الارض » ، ومن كهول الفكر والادب وشيوخهما في برنامج « مع اهل الفكر » ، فكأنما التلفزيون يصر ، حتى في هذا المجال وعند هذا المستوى ، على ابعاد الطليعيين من الفنانيـن المبدعين من رجال الفكـر المجددين والثوريين .

انه لامر يدعو الى الاسف حقا ان تبقى وسيلة اعلاميـة بالغة الاهمية كالتلفزيون مشلولة ، لانها محافظة ورجعية الى هذا الحد ، في بلد كلبنان يحتاج حاجة ماسة الى التغيير الجذري في جميع نواحي حياته .

رجا جورج

عالم اللغة وعالم الشعر

المفردة اللغوية التي اخترعت لنقل التصور الخـاص الـى حيز مجموعي ، هي ، في الاصل ، اشارة الى شيء ، او تخيل شيء . فهي ، في أوسع جغرافية لها ، بديل ناقص لا يغني عن الاصل . فهذه الحـروف الاوعية جزء من عالم المنظور ، ووسيط اصطلاحي بين « الانا » والمجال ؛ ومع ذلك فان كثيرا من الشعراء يعتمد المفردة اللغوية بديلا كاملا لعالمه الشعري، ان لم يبالغ في ذلك فيجعل العالم الشعري مجالا لغويا وحسب .

وكما اضر هذا التصور الخاطىء بتطور الشعر ، كذلك عزز الخرافة القائلة « ان الشعر لا يترجم » بكثير من الحجج التي تبدو منطقية ومقبولة لاول وهلة ، وخصوصا حينما يستغرق الحصار اللغوي ذهنية المترجم والعمل الذي تراد ترجمته على حد سواء .

فهـل هناك مزية قومية وحقيقية للمفردة اللغويـة بحيث تفقـد رسوباتها الموحيـة اذا ما ترجمت ؟ نعم ! قد يكون للمفـردة موروثـات خاصة في الوسط الاستعمالي لها ، بحيث تفقد جزءا لا يستهان بـه من ايحاءاتها وذيولها الدلالية بعد الترجمة ، لـكن هذا المحظور يصبح أقل خطرا أمام الشاعر والمترجم اللذين يتخذان من مفرداتهما اشارات الـى عالم شعري ، لا الى جغرافية لغوية .

السؤال الان : ما الذي هو أكثر شمولا واتساعا من غيره : عالـم اللغة ، أم عالم الشعر ؟ انه على الرغم من التزاوج الابدي بيـن الشعـر واللغة ، وعلى الرغم من آنية المفردة (على اعتبار انها تموت وتحـيا) ، واستمرارية الشعر ، فانه يمكن ، الـى حد ما ، أن نفصل بينهمـا من الوجهة النظرية فقط ، لنخلص الى أن اللغة ، في جلوة عبقريتها ، ليست سوى عمل عقلي محض يضرب جذوره في المصلحة المشتركة للمتعاملين به ، وهي بذلك جزء من الحركة الفعلية للمادة (شأنها شأن النقد) . اما

الشعر الذي يتعامل مع عالم « الاحتمال » ، غير المرئي ، بالحدس ، فانه يستخدم اللغة على اعتبار أنها الوسيلة اليتيمة التي يتم بواسطتها هذا الاتصال . لكن استقراء تجريبيا لشعرنا العربي يثبت فقدان هذه الصلة بين الشاعر و « الاحتمال » ، ويقرر أن عالم اللغة ما يزال الى الان أكبر من عالم الشعر لدى معظم شعرائنا العرب . بل انه يمكن القول اننا ما زلنا نتصور ونعالج معظم موضوعاتنا الحارة تصورا ومعالجة لغوية .

هذا التفتح اللغوي في اللاشعور الجمعي للعرب هو الذي وضع الجمالية الصوتية مقياسا لمنجزات الفكر ، واعاق طموحنا الجاد الى شعر خالص ، وترجمة فاعلة ، باعتبار أن « دينامية » الخيال ، والصورة ، والمعالجة ، والتجربة ، والنقل ما تزال تولد عندنا من المعاجم .

التجربة الشعرية المعقدة كالانسان هي التي تقف شعراء اليوم ومترجمي الاعمال الشعرية أمام مسؤوليتهم في تحديد العتبة الصغرى والكبرى للعلاقة « اللفشعرية » . ولعل هذا هو السبب الوحيد الذي يسوغ تكرار ترجمة كثير من المنجزات غير العربية بأساليب مختلفة محاولة للاقتراب حتى الحلول في العمل الاصلي .

هذا بالنسبة الى الترجمة الشعرية ، كعمل عقلي وحدسي في آن . أما بالنسبة الى مسوغات الترجمة فقد تبدو على ضوء واقعنا الشعري كثيرة ، ومعقدة ، ومثيرة لاكبر جدل عقيم عرفه العالم ، لكنها — وبكل بساطة — لا تخرج عما يمكن أن تؤديه اللغة من اتصال بين التصورات الداخلية للبشر . فالترجمة واللغة هما بحق اقدام التصور الداخلي للعالم .

ولكن ، هل نعتبر نقل « مثنوي » « جلال الدين الرومي » الى العربية ترجمة ؟ فالمثنوي المغترب عن العربية اغتراب شعر « محمد اقبال » و « سعدي الشيرازي » ليس تصورا داخليا غريبا عنا ، حتى ندخل نقله الى العربية في عداد الترجمة ، تماما كما يترجم « افتوشنكو » و « نيرودا » . ان المرحلة التي فرضت هذه الدغدغة بيننا وبين الاخرين ، لا يمكن أن تقارن أبدا بالجذور الوحشية التي تشدنا الى شعراء فارس ، ما بعد القرن السابع الميلادي ، لان مرحلة ما بعد هذا القرن جمعت ثقافات المنطقة ، من « أذربيجان » حتى « الاندلس » في قناة واحدة ، كما وحدت نظرة الفرد ، على اختلاف قوميته ، الى الكون والانسان والحياة فجعلته رباني النزعة ، انساني الثقافة ، قدري المجهول ، بحيث نستطيع ان نقول في نقل « المثنوي » الى العربية ما قيل في « العقد الفريد » حينما وصل بغداد « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

ولعل هذا هو الشيء المهم الذي يجب ان يقوم من خلاله المثنوي . هذا الديوان الذي يعتمد النظرة العامة لحضارة عصره مادة لتكوينه الداخلي ، سيلقى لدى القراء العرب تفاوتا بين القبول والرفض ، لان التلقي لدى معظم القراء والنقاد لا يعتمد التذوق بقدر ما يعتمد الحساسيات اللاشعرية . وانه مع التسليم المستحيل بأن النظرة المادية التي تسود موازيننا النقدية اليوم لن تؤدي في المستقبل القريب الى انحطاط الخيال ومسخه ، فاننا لا نستطيع أن نسلم بأن هذه النظرة لا تضر في مجال التذوق للابداعات التي تمثل نظرة صوفية للعالم «كالمثنوي».

فالتذوق المعاصر بالديالكتيك يؤثر بشكل حيوي في نوع التجربة التي يجب ان يتلقاها القارىء من « المثنوي » مفترضا فيه ان يكون مرآة لنفسه بكل منازعها ، تماما كما يحب المراهق ان يرى في كل رواية رومانسية اسم حبيبته .

لقد اخذ « جلال الدين الرومي » بالنظرة السائدة التي كانت تشطر الانسان الى جزئين منفصلين : روح ، وجسد ، فأقام عالما روحيا خالصا، بحيث أغرق الديوان فيما يحلم ان يكون عليه العالم من مثالية حتى ليقف بك امام تساؤل تطرحه على نفسك ، وانت تقرأ الديوان : هل ما زال « الرومي » في المحيط الداخلي لنظرية الشعر ، أم انه تجاوزها الى عتبات نوع آخر . هذا التساؤل تفرضه دائما الابداعات الصوفية دون غيرها ، ذلك أن المبدع المتصوف حينما ينفذ من « القال » الى « الحال » ، انما يشارك الطبيعة في فعل الابداع . وهنا تكمن المزالق التي يسقط فيها معظم الشعراء الذين اتخذوا من التجربة الصوفية مجالا لابداعهم ، فكم من شاعر توهم « التصوف » اقتباسا من المظان الدينية ، وحسب ان الحديث عن « الحلول » هو الحلول ، وان وصف « الحال » هو الحال ، وان لا هم للمتصوف سوى ان يتحول الى شجرة او حجرة أو عشبة ، ناسيا أن التصوف حاجة ، ونزعة انسانية ملحة ، يكون « التصوف الديني » جزءا من نشاطاتها لا ... كلا . ثم ان هناك فرقا كبيرا بين حديث التجربة الصوفية عن نفسها وبين وصفها ، فرقا نجده بين شعر الحلاج وبين « مأساة الحلاج » . وانه لبون شاسع بين وصف الكون ، واغتماره .

لقد تجاوزت صوفية « جلال الدين الرومي » آثارها في التكوين الداخلي للمثنوي ، ونفذت الى البناء الشكلي له . فالمثنوي من زاوية الانواع الادبية ليس شعرا ، وليس قصة . أن جرأة جلال الدين على المزج بين هذين النوعين الادبيين مزجا حلوليا انما نبع من لا شعور وراثي أو من شطحة صوفية ، واعطى لشعره مزية فريدة ما نزال نحاولها في هذا العصر ، ومن خلال هذا المزج اتيح للمثنوي ان يضطلع بقدرة الاداء التي يحتازها الشعر والقصة ، في آن . ولقد استطاع مترجمه ، الاستاذ كفافي أن يتفهم هذا الواقع فنسف الجسور بينه وبين كل الذين سبقوه الى ترجمة المثنوي « نظما » ، وحاول جهده ان يطاوع لغة الترجمة لعالم جلال الدين الرومي بما فيه من تصوف وشعر وقصة وحوار .

وكان لانفتاح «المثنوي» على فن القصة دور كبير في ابتلاع الفكرة الافلاطونية التي نمت بين متصوفة الدين بشكل خاص ، واثرت في ابداعاتهم بحيث جعلوا الفن والاخلاق يصدران عن ينبوع واحد ، على اعتبار ان الانسان « حيوان اخلاقي » وان الفن يبدأ وينتهي بالمقدس . ولست ادري هل تشهد الارض ، قبل ان تهدأ ، قبسا من الاتفاق بين « الحيوان الاخلاقي » و « الحيوان اللااخلاقي » . هذا جوهر المثنوي .

ان ترجمة المثنوي من جديد نفاذ الى جزء مهمل من تراثنا ، وحافز جديد للمغامرين الشعراء . (المثنوي — جلال الدين الرومي — المطبعة العصرية (ج ١ — ٢) ترجمة الدكتور محمد عبد السلام كفافي)

منير العكش

مفارقة الحب في « الحب والحب العذري»

يعرف صادق جلال العظم ظاهرة الحب بأنها حاجة إلى امتلاك المحبوب والاتحاد به، وانفعال تلقائي ، مركز على شخص المحبوب ، ومرتبط عضوياً بالاحساس الجنسي عند الرجل والمرأة ، على السواء. ثم يدرس، من خلال علم النفس والأدب ، التمزق الإنساني بين قطبي الحب : الامتداد الأفقي في الزمان ، حتى الموت ، والاشتداد العمودي ، حتى الانخطاف في اللحظة؛ ويبيّن في شخصية الزوج المثالي في المجتمعات الدينية ، نهاية قصوى لنزعة الامتداد ، وفي شخصية الدونجوان ، نهاية قصوى لنزعة الاشتداد .

وعلى أساس هذه الملاحظات العامة ، يحلل الكاتب الحب العذري ، من حيث كونه رفضاً لمؤسسة الزواج — أي اختياراً لنزعة الاشتداد - وميلاً مرضياً إلى النرجسية والسادومازوخية. ويخلص من دراسته بنقد جذري لمؤسسة الزواج التقليدية ، وباستعراض سريع لتطور الرابطة الزوجية من نطاق الأسرة — الوحدة الانتاجية (الأسرة — الخلية الاجتماعية) ، الى رابطة فردية بين شخصين متساويين يتمتع كل منها بحريته واستقلاله وعمله .

ربما كانت دراسة صادق جلال العظم عن « مفارقة الحب الكبرى » صياغة جديدة وحسب لافكار قديمة معروفة . وربما أُخذ عليه ، في دراسته عن الحب العذري ، تعنته على النصوص الروائية والشعرية . لكن أهمية هذا الكتاب (وأهمية كل ما يكتبه صادق جلال العظم) تكمن في جوهره العلمي الصلب . فهو طرح جدي لمسألة فكرية ونفسية كبرى ، من جهة ، وهو من جهة ثانية ، محاولة تقييم عقلانية لظاهرة من ظواهر الحياة الاسلامية .

إن صادق جلال العظم ، هو ، في ثقافته وشجاعته، محطم الأصنام الذي انتظرناه طويلاً.
(الحب والحب العذري ، منشورات نزار قباني — ١٢٨ صفحة — ٢٥٠ ق.ل.)

فاروق مردم

من قبل ومن بعد

قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ كان العالم هو العالم وكانت الارض تبدو ثابتة راسخة. بعد الخامس من حزيران بدا ان العالم شيء آخر ، ولا بد من ان تعاد له هويته كي يغدو مكاناً صالحاً للعيش ، وبدا ان الارض تميد وأننا الهندي الأحمر في القرن العشرين الذي يخوض حرباً ابدية للبقاء ، حربا ابدية للإمساك بمعنى الحياة ، حربا قد لا تكون دوماً حرب طائرات . وهي حرب غير متكافئة بين وثنيي روما الجديدة عبدة المادة ومؤمني القرن المسيحي الاول الجدد ، لكن الضعفاء . واذا كان مسيحيو القرن الاول العزل قد دحروا روما الغاشمة بفضل تلك القوة الروحية الهائلة التي كانت سلاحهم الوحيد ، فلا بد من الاعتراف باننـــا نفتقر الى مثل هذه القوة . ولا غنى لنا عنها لصد القوة المادية المرعبة المسلطة فوق رأس الشعوب .

هذه القوة الروحية القادرة متعددة الوجوه والميادين والمستويات أتناول منها وجهاً واحداً كان له فعل السحر في الانسان العربي : هـذا الوجه هو الشعر . ولكن الشعر فقـد فعاليته ودوره في تاريخنا الحديث ، فلم يسهم في بناء كياننا الروحي بـل ظل ألهية السلام يتحدث عن الخصر والورد والقمر تارة ، وينتظم فقاعات من الخطب الحماسية السياسيـة تارة ، ويغرق في شكاوى وانفعالات ذاتيـة تارة اخرى . وقلما جاء الصيحة المحورية التي تخترق الوجـدان الذاتي الى الوجدان القومي . وليس الشعراء وحدهم المسؤولين بل يشاركهم النقاد والمتذوقون هذه المسؤولية . اذ قلما اعترفنا للشعر بهويته كثورة دائمة ، كحركة ، كصيرورة دائمـة . على العكس من ذلك فرضنا عليه شخصية المحافظ المقلد الذي يدور في أفق محدود ويلتزم جماليـة السكون .لم نتح له ان يخطىء او يغامر ويتحرى ويتخطى كي يكتشف ، كي يرى بعيـداً ، كي يجد طريقاً الى جذورنا ، كي يرانا في صورنا الحاضرة والمقبلة . ومهما يكن امر الشعر والنقد في الماضي فلم يعد ممكناً ان يستمر الشعر وغير الشعر في خطه وكأن شيئاً لم يكن . بـين التاريخ قبل الخامس من حزيران والتاريخ بعـد الخامس من حزيران جرح عميق لا يمكن تجاوزه ، لا يمكن القفز فوقه . ولا بد من المرور به واختراقه . انه جرح يشطر التاريخ إلي قبـل وبعد . وكما كان النزول الى القبر طريقاً للصعود كذلـك سيكون استبطان هذا الجرح شرطاً للخلاص فمن عجز عن اختراقه ظل وراءه في الضفة ، الاخرى ، ضفة الماضي ولم يدخـل المستقبـل . والشعر الذي لا يستبطن هذا الجرح هو شعر لا يلامس وجودنا ، هو شعر للموت ، لان صاحبه يعيش خارج وجدان شعبه ، خارج التاريخ . اذ اقول هذا لا اعني العودة الى الخطب السياسية المنظومة،لا أعني الالتزام الضيق الذي كثر الكلام عليه من قبل . اعني ان موقفنا من العـالم ونظرتنا الى الاشياء لا بد من ان يخترقا هذا الجرح اولا . سواء كان الموقف موقف حب او فرح او تأمل في المطلق . من يخرق هذا الجرح سيعاني تحولا حتمياً . ففي ثنايا هذا الجرح يطرح وجوده من الاساس على بساط البحث . عبور الجرح قوةتطهر وتغير . وعبـور الجرح يعني ان نعانق الفاجعة ، ان نسمر عيوننا عليهـا ، ان نعيشها نبضة نبضة ، ان نتجرعها قطرة قطرة ، ان نرفض العزاء والتمويه ، ان نواجه ونسأل ونبحث ، أن نملأ الجرح ملحاً وترفض المخـدر . فنحن بحاجة الى هذا المطهر ولا غنى عنه ان اردنا الخلاص .

واذ كان الشعر لغة الاعماق ، كان اللغة المؤهلة لتخليد صوت الجرح فينا . اللغة القادرة على رفعنا الى مستوى الفاجعة بكشفها عن ابعاد الجرح جميعاً . والشاعر هذا الوسيط الذي ينقـل الاسرار ، هذه الشبكة المفرطة الحساسيـة التي تلتقط الاختلاجـات الاولى وبوادر التحول والانتفاض لتعكسها من خلال حساسيته الخاصة ، سيكون خـارج حقل الحقيقة والحساسية ما لم يستوطن هـذا الجرح . اذ ذاك يعود له دوره الروحي ، دور الرائي الذي يدعم حركة الجماعة او نضالها باساس روحي ميتافيزيقي.

والشعر اليوم مؤهل لان يلعب دوراً روحيـاً لانه ثورة وحركة . هو ثورة لانه اعادة خلق مستمرة ، اعادة نظر مستمرة . ونحن اليوم احوج ما نكون الى اعادة النظر . وهو حركة لانه حوار الحياة الزمنية مع مطلقات فوق الزمان . هو حركة لانه يحاول ان يعطي للعالم معنى كلما استهلك التاريخ المعنى القديم للعالم. واذا كان معنى العالم القديم قد بدا باهتاً عبر هزيمتنا الاخيرة ، فان على الشعر ان يجهد في اعادة المعنى الى العالم في بلورة حقيقة ، اسطورة جديدة تعيد الى العالم معناه . والحق ان معنى عظيماً ورائعـاً ينتظر الشعراء في قرارة هذا الجرح حيث تتجلى غربة الانسان العربي وانسحاقه ، تتجلى غربة الحقيقة والقيم التي يتغنى بها ، وفيه يتجلى إله القرن العشرين بكل بشاعته وزيفه ووحشيته . وعبر هذا الجرح يستطيع ان يتلمس الطريق الى الإله المهجور ، إله الحق والمحبة ، الذي ينتظرنا عبر الجرح ليمنحنا الخلاص . جرح الخامس من حزيران ذاك هو التحدي الاكبر للشعراء .

خالدة سعيد

وثائق

الثورة الطلابية الثقافية في اوروبا

١ - العلم المسيّس

تتعارض فكرة العلم المسيس مع الفكرة السائدة عن العلم بحيث أن وصف نشاط علمي بأنه مسيس يعتبر برهانا على أن هذا النشاط غير علمي . ويستنتج من ذلك أن الصفة الاساسية للعلم النقدي هي غياب كل تسييس . فحياد العلم ، سياسيا ، هو اذن بداهة ، بالنسبة الى الفكرة السائدة . لكن هذه البداهة خادعة . فليس هناك علم محايد سياسيا .

١ ــ العلم يؤسس خاصيته العلمية وحقيقته ، بنظرية المعرفة وبالتأمل المنهجي. إنتقدت البورجوازية القوى القديمة التي تضمن الحقيقة ــ اللاهوت والميتافيزيقيا ــ من حيث أنها ضمان السيطرة الاكليريكية والاقطاعية . وأحل محلها الفرد المفكر الذي يتأمل في تجاربه . وصارت مسألة الدقة في هذا التأمل حاسمة . غير ان الصعوبة كانت تكمن في لفظتي « الدقيق » أو « الصحيح » ، فلم تكن المسألة بالنسبة الى العلم أن يظهر أنه يفهم موضوعاته « بدقة » وحسب ، وانما كان عليه كذلك أن يبدو « صحيحا » في نظر من كانوا يمارسونه ، أو بتعبير آخر ، في نظر الناس . كانت الصعوبة هي في ايكال الحقيقة الى الفرد الواقعي ، الملطخ بالاخطاء والمنافع الخاصة . وكان الحل القائم على اكتشاف بنية عقلية مطهرة في الفرد يمكن الركون اليها ، قليل الفائدة كالحل الاخر الذي كان يرفع العقل حتى ليجعل منه جوهرا يتجاوز الفرد ، فاتحا في التاريخ ، عبر رؤوس ضيقة كثيرة ، طريقا ظافرا . لم يشارك الحلان بشيء في حل الصعوبة الاساسية : لا يجوز أن تتأسس الحقيقة في البنية الخالصة لعقل الناس ، ولا في عقل عائم فوقهم . يجب أن تتأسس في الناس الواقعيين والعاملين ، اذ لم يعد اللاهوت ولا الميتافيزيقا ، منذ أن سقطت القوى القديمة ، يقدمان اي اتجاه . ولم يكن للعلم ، بسبب الصراع بين المنافع الخاصة للأفراد الواقعيين ، غير امكانيتين

من أجل توكيد علميته الخاصة . اما أنه كان قادرا على فهم الكفاح الواقعي بين الافراد كالكفاح التاريخي من أجل الفرد الجديد بالحقيقة وحوله . كما حدث في الثورة البورجوازية على النظام القديم ، وحينذاك اضطر أن يشارك في الكفاح الواقعي وأن يبقى سياسيا . واما أنه كان يختصر مسألة الحقيقة بمسألة الفهم الصحيح للأشياء ، وكان حينذاك يتملص من المشكلة . ان الوضعية التي سادت في القرن التاسع عشر تمثل على وجه الدقة هذا التملص من المشكلة . واذ جعلت الوضعية من ادراك الواقع ضمانا للحقيقة، حولت الصعوبة عن العلم البورجوازي معلنة أن الواقعي هو الحقيقي . وليس صدفة أن تكون قابلية العلم البورجوازي لنقد الواقع قد غابت لحظة أصبح المجتمع البورجوازي هو نفسه هذا الواقع . كانت الوضعية اذن وما تزال كل شيء الا الحياد ازاء القيم .

ويميل العلم دون غموض ، من جراء فكرة الحياد سياسيا التي كونها عن الوضعية وعن نفسه ، الى تشجيع اللانقدية في ما يتصل بالمجتمع البورجوازي . ولهذا مغزاه . فبقدر ما أصبح العلم بالنسبة الى المجتمع البورجوازي شرطا جازما لارتكاب جرائم سياسية لا مثيل لها ، ضحاياها شعوب بكاملها لا يعود ــ وهذا هو استنتاجنا الاول ــ ممكنا اهمال ولاء العلم البورجوازي ، الكامن في ما يتصوره هو ذاته أنه محايد سياسيا .

٢ــ تحول رجل العلم الى أداة مسجلة ، منذ أن ردت مسألة الحقيقة الى مسألة الفهم الدقيق . من هنا ، تم اقصاء جميع المنافع الفردية ، بحيث أن تحديد ضامن الحقيقة على أنه « فرد مفكر » لا يتيح لهذا الفرد أن يكون الا كأداة . ان كان العلم يعترف أنه يجهل كل ما يتجاوز العقلانية الأدائية ، فلا ينبغي آنذاك أن يؤكد لا مسؤوليته ومجانبته الاساسيتين وحسب . انه، على العكس ، يأخذ على عاتقه في الوقت نفسه مهمة رفض كل استخدام أوسع للعقل .

ان التأمل في ميزته الخاصة ، مرتبط الآن بما يتوجب عليه أن يرفض. ان نقد عجزه عن أن يضع مناهجه بشكل آخر لا يكون **أدائيا** ، يحدده على أنه هجوم توتاليتاري على المبدأ القائل ان من الواجب تحديد المناهج وفاقا للموضوع ، ونقد رفض التأمل حول أهدافه يحده على انه ادعاء بأن يحل المذهبية محل الصدق ، ونقد فصله بين العلم والتطبيق يحدده بأنه ملزم بأن يضحي من أجل مشكلات الساعة ببعده النقدي الشامل ، ونقد انتهازيته يحدده بأنه محاولة لأن يحل الانحياز محل انعدام الراي المتسرع ، ونقد مشاركته في الجريمة السياسية يحدده بأنه هجوم ارهابي على حريته الخاصة واستقلاله الخاص .

ان العلم البورجوازي لا يبدو ، بمواقفه الدفاعية هذه ، انه لا ادري ، أو كثيري ومتسامح ، بل يبدو على العكس متشددا . باسم « الصراحة » و« غياب الراي المسبق » ، و«الاستقلال » يمكنه جهارا أن يدلل على أن كل نقد لتبعيته وعبوديته ، انما هو نقد سياسي ، لا نقد علمي خالص . وليس للادريته أية صلة بالتواضع السقراطي أو نزعة الشك . بل ان لاادريته على العكس ، أداة كفاح لمنع كل هروب خارج البعد الادائي . بهذا الحصر الأدائي، يفكك العلم البورجوازي العلاقة بين النظرية والتطبيق. ان حذف هذا الحصر يفرض العودة من جديد الى التأمل العقلي في أهداف العمل العلمي ، والعودة في الوقت ذاته الى بداهة أن الحقيقة ليست حصيلة

تأمل خالص ، بل حصيلة تطبيق محدد عقلانيا وعقلانية تتحدد في التطبيق . هكذا يصيب العلم البورجوازي حين يدفع التهمة بأنه سياسي ، لكنه مع ذلك **يلجأ الى حيلة حين** يزعم أنه غير سياسي في هذا الدفاع . أنه ، على العكس ، يقوم بكفاح سياسي ضد علم قادر على الاعتراف بخاصيتـه السياسية ، قادر ، بالتالي ، على أن يخضع أهدافه السياسية الى النقد العقلي ، وأن يتحرر من تبعيته للواقع البورجوازي ومشاركته الانتهازية في الجرائم السياسية ، وأن يقرر بذاته تطبيقه عقلانيا وعقلانيته في التطبيق.

وفي الدفاع ضد علم يعي ذاته سياسيا ويسلك سياسيا ، يتجاوز العلم البورجوازي ، وهذا هو استنتاجنا الثاني ، الكياسة اللامسؤولة ظاهريـا تجاه المجتمع البورجوازي . في هذا الـدفاع يأخذ على عاتقه بفعالية ووعي مهمة نوعية : الكفاح ضد انعتاق العقل الذي لا يعود من الممكن ، اذ ينعتق ، أن يستخدم لغايات بورجوازية . هذا الكفاح ازداد أهمية بقدر ما يكـون الاستخدام البورجوازي العلم ضروريا لصيانة المجتمع البورجوازي .

٣- ان « حياد » العلم ، أو رفضه الاتصال بالحياة السياسية في المجتمع يجد تعبيره التأسيسي الأكثر وضوحا في **الجامعة** البورجوازية . هنا كذلك تبدو في غاية الوضوح الأولية التي يمنحها المجتمع للمنتجين العلميين بالنسبة الى المنتجين الآخرين . ان الاستقلال الجزئي للمنتجين العلميين في استقلال الجامعة الشكلي ، يعبر عن امتيازاتهم .

ان لكون العلم المؤسس ، في أماكن **كالجامعة** ، يبدو جاهزا للحياد ازاء الحياة الاجتماعية الواقعية ، ولمكافأة هذا الاتجاه بازدياد الامتيازات التأسيسية لرجال العلم ، نتيجة سياسية واجتماعية هي تجريد المنتجين الاخرين من العلم . وكون العلم لا يصل الى المنتجين الاخرين الا بوساطة طبقات مسيطرة ، يبدو طبيعيا تقريبا لهذه الطبقة من العلميين الذين يدينون بوضعهم الممتاز للضغط المستمر ولوضع المنتجين الآخرين تحت الوصاية . الحقيقة الموكولة للفرد ، المطهر من جميع المصالـح الخاصة ، هي في الواقع اذن ، موكولة الى أفراد طبقة يدينون بامتيازهم لوجود أفراد راشديـن وأفراد تحت الوصاية ـ وهو وجود يمكن تفسيره بالشروط الاجتماعيـة . وبما أن الكفاح التاريخي الدامي الذي يهدف الى اقامة علاقات اجتماعية يمكن الفرد أن يجد فيها حقيقته ، وبما أن المسألة ، في هذا الكفاح ، هـي الغاء الامتيازات والضغط والتبعية ، فان الحقيقة لا يمكن أن تكون مرتبطة بنزاهة الأفراد ذوي الامتيازات .

نستخلص استنتاجنا الثالث من موقف العلماء الاجتماعي في المجتمع البورجوازي : العلمـاء البورجوازيـون انتهازيـون و « حياديون » ازاء قوى تكفل وضعهم المتميز ، اعني أن العلم البورجوازي سياسي بشكـل واضح : أنه يناقض الثورة .

ليست المسألة اذن مسألة علم سياسي أو لا سياسي . المسألة ، على العكس ، هي التأمل العلمي الدائم ، غير المنفصل عن التطبيق ، في أهداف العلم السياسية ، ان علينا ، في وضعنا الراهن ، قبل كل شيء ، مهمتين :

١ . ابراز الصفة **النخبوية** ، اللاعقلانية للعلم البورجوازي ، ونقدها جذريـا .

٢ . اقامة قواعد نقاش مستمر ، علمي ، وعملي للأهداف السياسية

التي يمكن أن توافق العقل والتي يمكن ، بناء على ذلك ، ان تصبح أهداف العلم .

ان الجامعة القائمة ليست جديرة بذلك في حالتها الراهنة . هاتان المهمتان منوطتان اذن بالجامعة النقدية . ولئن انتقدت بأنها سياسية ، فهذا يؤكد انها اختارت الطريق الصحيح .

٢ - أهداف الجامعة النقدية وتنظيمها

١ . تأمل نقدي وتحليل علمي من أجل تطبيق ديمقراطي وسياسي .

تعلن الجامعة النقدية ان مهمتها هي المشاركة – بالتأمل النقدي والنظري وباستخدام المناهج التجريبية والتحليلية – في تحديد اهداف واعمال الفئات الراديكالية للمعارضة الديموقراطية خارج البرلمان في برلين الغربية ، التي تريد أن تشارك بفعالية في جعل مجتمعنا مجتمعا ديموقراطيا وفي الغاء الضغط واللاانسانية وبخاصة في بلدان العالم الثالث .

ان الجامعة النقدية تعمل على جعل عملها وتقدمها التحريريين الحاضرين والمقبلين أكثر فعالية وأكثر قابلية لان يكونا مفهومين ، وذلك باللجوء على نحو خاص الى تربية في الفعل او في العمل وفي القدوة . انها تعتبر نفسها موضوعا نقديا وعمليا في آن ازاء مجتمع تحول فيه « العلم » الى تقنية خالصة تقريبا الى « جوهر الحياة العملية » (شلسكي Schelsky ومن هنا صار موضوعا خالصا للسياسة الراهنة .

وينبغي أن تدعم نتائج الاعمال بشكل خاص التطبيق السياسي لمجموع ممثلي الطلاب الذين يشاركون في حركة المعارضة الديموقراطية في جعل « التفويض السياسي » للطلاب أمرا واقعا ، سيتم تصحيح الأقتران النوعي التاريخي بين النظرية النقدية والعلمية والتطبيق ، بشكل عام وعلني . هذه الضرورة التي تجد أساسها الحقوقي في حق الطلاب الذي يعترف به الدستور في المشاركة بالبحث العلمي الحر والتسيير الذاتي للجامعة يمكن ان تعوقها السلطة الادارية لكن لا يمكن أن تلغى .

٢ . الاصلاح الديموقراطي للدراسات ونقد التعليم العالي .

تتحدد الجامعة النقدية بانها شكل جديد من تنظيم التعليم العالي العملي والتجريبي ، ومن النقد الدائم للتعليم العالي ، حيث يعرقل او يمنع الناطقون الرسميون او الهيئات الحالية للتعليم العالي مضامين ومناهج العلم ، وتطبيقه واندماجه في النمو الاجتماعي المفيدة لانعتاق المجتمع وديموقراطيته فان على الطلاب ، بالاتصال مع الاساتذة والخبراء المهنيين أن يدرسوا هم انفسهم طريقة الاعمال حول هذه الموضوعات . هذا النشاط المستقل يدعم جهد الانعتاق الذاتي ، المهدد دائما ، والتحقق الشخصي للطلاب والباحثين الشبان ، وهو جهد يصطدم بالتنظيم الحالي للتعليم والبحث الجامعيين لكن يمكن كذلك ان يبدو مفيدا على المدى الطويل ، في الكفاح من اجل فرض اشكال عمل وغائية عمل مرضية ذاتيا ، ومحررة .

على الجامعة النقدية ، لكي تجعل اصلاح الدراسات المنظم تنظيما ذاتيا اصلاحا مستمرا ، أن تعمل من جهة على النقد المستمر للتعليم العالي

فتهاجم علنيا داخل الجامعات وخارجها البنى والاهداف اللاعقلية والضاغطة في التعليم الحالي وتعيد فيها النظر . وعليها من جهة ثانية بالتعاون مع ممثلي الطلاب من جميع الفروع ان تساعد بشكل فعال متضامن جميع الطلاب للسيطرة على الالزامات الراهنة ، اللاعقلية غالبا في الدراسات والفحوص .

ان الجامعة النقدية ، اذ تمهد لاصلاح التعليم والنقد العام المستمر للتعليم العالي بالتطبيق وبتنظيم نفسها ولو بطريقة متجزئة ، تعمل على دعم موقف ممثلي الطلاب والعمال العلميين في كفاحهم من اجل جعل البنى الجامعية ديموقراطية .

واذ تنطلق الجامعة النقدية من عملها في استراتيجية التغير الديموقراطي والاجتماعي الذي سيمحو السيطرة والضغط ، وعلى اساس تعليمها التجريبي الخاص وبحوثها الخاصة تجهد للحصول على التنبؤ بطريقة جديدة محررة ونقدية في معالجة المواد ليس في المناهج الرسمية للدراسات والبحوث وحسب لكن كذلك في تكوين المدرسين وفي التعليم الجامعي والمدرسي .

٣ . السياسة الديموقراطية فيما يتعلق بالتكوين العلمي والمهني .

ان الاصلاح التجريبي للجامعة والنقد الدائم للدراسات العليا واعلان الاصلاحات الديموقراطية العامة في الجامعة تشارك اخيرا في تقدم نظري علمي اسرع واكبر وفي دعم التنظيم الاجتماعي الذاتي لمعارضي هذه الجهود في الكفاح ضد اضمحلالهم الدائم المخادع او ضد الاستقلال المفرط لامكاناتهم في التحقق العملي ضمن الشروط الاقتصادية والاجتماعية الراهنة . بقدر ما يكون التقدم النظري والعلمي والتقني كثيفا ، ممكن التنظيم اجتماعيا . يسرع العلم في صيرورته قوة تاريخية للانعتاق في وجه السدود الاجتماعية القائمة التي تعارض استخدامه العملي ، الممكن موضوعيا ، في سبيل تحسين الوضع الانساني .

وتجهد الجامعة النقدية كذلك أن تصير ساحة نقاش ومركز عمل للطلاب ، والعلماء وجميع العمال الذين تلقوا تنشئة عليا والذين يريدون ان يضعوا انفسهم بوعي في خدمة تطور العلم الذي سيوجه ضد المؤسسات والمشاريع التي تستخدم طرائق علمية من اجل تنظيم التدمير الماكر للراسمال الثقافي والتشويش او افساد التقدم العلمي . ويهيء بالتعاون مع العلماء والمنظمات النقابية ، « مركز وثائق حول استخدام العلم لغايات مخربة وغير انسانية » .

وفي الجامعة النقدية يستطيع الطلاب والشبان المتخرجون الذين يريدون في حياتهم المهنية ان يشاركوا في تحقيق الامكانات العلمية والتقنية لتحرير العمال ، ان يتهيأوا لمواجهة صراعات محتومة مع النخبة القائمة للسلطة والأجهزة البيروقراطية ، ومع زملاء كذلك تكيفيين وسلطويين . وينبغي تأسيس أشكال من التنظيم والاستراتيجية تتيح للمثقفين النقديين ان يكافحوا ، في مهنتهم وفي مشاريعهم ، من اجل ديموقراطية اجتماعية وعقلانية انسانية لشروط العمل وغائية العمل . ومن الواجب ان نضيف الى ذلك النقد المنظم للبنى اللاعقلية لتنظيم العمل التي تستند الى السيطرة السطحية موضوعيا للنخبة المديرة المتميزة والهرمة ، وتكوين معارضة منظمة في داخل المجموعات المهنية ، واستثمار شروط الاستخدام الملائمة لتحسين أوضاع العمل ، بالاضافة الى حملات التوضيح من اجل اقامة تعاون سياسي مع العناصر الواعية بين الشبان وفي الطبقة العمالية .

٣ - نصر في النصر

نشهد بلا ريب ، في مظاهرات الطلاب الألمانيين والايطاليين والفرنسيين أعظم حدث سياسي ثوري عرفته اوروبا الغربية منذ الاضراب البلجيكي عام ١٩٦٠ واضراب الشعب الجزائري في باريس كمقدمة للاستقلال الذي حققته الجزائر . غير أن التسارع في تفكك نظام الشرعية البورجوازية اشتد كثيراً : فلقد أدان البورجوازية أبناؤها أنفسهم . هذه المرة رأى المجتمع البورجوازي الحرب الاهلية تقوم في قلبه : لا حرب أمتين أو حرب طبقتين ، بل البورجوازية نفسها التي انقسمت الى قسمين وفرقها انشقاق الأجيال بين نظرها وعملها أعني بين نظريتها الشاملة للانسان الكوني « لحقوق الانسان » والنظرية الثورية للانسان اللاعنفي ، للشبيبة التي كشفت وعرت العنف السائد الخفي **والايديولوجي قبل كل شيء** ، الذي تختبىء وراءه البورجوازية . وقد بلغ الصراع نقاءه السياسي في مدلوله : صراع سياسي وايديولوجي خالص ، دون أي ارتباط مادي محدد أو منفعة جزئية للدفاع عنها أو خصوصية يطلب الاعتراف بها ، انه رفض شامل وجذري للمجتمع البورجوازي . هنا أصالة الحركة .

ليست هناك اهداف محددة: انهم يتذرعون دائما بالتعطيل لبلاغة التسوية والتسليم والتسريحات التوفيقية . هذه المرة يرفضون وينبون للتأكد من أنهم لا يطلبون الحصول على شيء . واذن لتجنب كل عنصر يمكن أن يخنق حركة الثورة والتغيير الجذري للمجتمع . انهم يهدفون الى زلزلة البنى الأكثر ثباتا الأكثر بداهة ، الاكثر ضرورة لما يشكل أساس الوجود الاجتماعي للرأسمالية . كان ينبغي أن نفهم الدهشة الساذجة لمدير الشرطة من أن يسموا S. S. (جستابو) كل رجل يعتمر خوذة ويحمل عصا ويمارس مهمته كشرطي ، كي نفهم ما يجعل البورجوازية عاجزة عن الفهم . ذلك ان الشرطي ، هو في جوهره ، بالنسبة الى كل طالب وكل انسان نقي الفكر جستابو ، لانه هناك بالضبط من أجل ان يشغل هذه الوظيفة التي كشف عن جوهرها رجال الجستابو : لتوكيد النظام ، يعني الفوضى المؤسسة للمجتمع البورجوازي، ونظام كبته ازاء كل من لا يدخل في اطار ما قرر أن يتخذه نظاما لحياته .

وفي المقام الأول لتأكيد هذا الحدث الأساسي الذي هو كالهواء المسموم الذي لا تستطيع الرئات الايديولوجية للبورجوازية أن تستغني عنه لئلا تختنق بالهواء المفرط النقاء ، بالحرية الزائدة ، وهو أنه **لا بد من الشرطة ،** وان هذا أمر مفروغ منه وان الانسان سيء : كل انسان ، في نفسه أولا ، شأن شيطانه الخفي ، وبخاصة كل طبقة بالنسبة الى الاخرى ، أن مجتمعا دون شرطة هو كالكلب دون طوق ، الفوضى ، البلبلة ، الاعتباطي العائد لقوى العنف العمياء ، وان الحفاظ على النظام اذن ، اذا كان شراً لا بد منه ، فلأن هذا الشر خير على كل ابن أن يتلقاه كعطية من السماء : النعمة التي ابتكرها المجتمع العلماني ، هبة الروح القدس المنقولة — فلا جهل بالشريعة — الى كل وارث جدير بهذا الاسم .

وعدا ذلك يطلبون منه أن يدرس المجتمع ، أن يفكر وفاقا للحقيقة ، أن يحلل الوقائع بدقة ، وهذا أمر مقبول بحد ذاته (حين يسمح القيام به) . لكن فوق هذا كله سيطلب منه الموافقة والانضواء . لتتجاوز عن تبليد الجماهير بالاعلام الناقص والكاذب ، بوسائل التحكم الضخمة ، لكن يجب الا

يطلب منها زيادة على ذلك أن تبلد نفسها . والواقع أن ليس هناك الا شيء وأحد للاكتشاف ، حينما نلاحظ وظيفة المجتمع : انه العنف القائم بقوة الامر الواقع، بهذه الحالة الاعتباطية التي هي الدولة البرجوازية ، والذي يحدده جميع شياطين رفضه الدفينة : الحرية ، الجنون ، الفقر ، الجريمة ، الجنس ، المسؤولية ، العفوية ، الديمقراطية الحقيقية ، السعادة ، العرق الاسود، الاصفر، الاحمر، قوة العمل الخ .. باختصار جميع هذه المجالات التي وصمها اسمها ذاته والتي هي على وجه الدقة حصيلة الرعب المضاد الذي تكابده البورجوازية لكي تقيم امبراطوريتها المعممة ، امبراطورية الخضوع لقانون الربح الوحيد ، قانون المردود والانتاجية . **كالفينية** غرائز انسانية راسخة في الخطأ لخدمة الشرعة الوحيدة للنظام الانتاجي والتقدمي . هذه الحقيقة الصغيرة الأساسية جدا ، حقيقة التناقض بين **قانونها** والحرية ، الأرض المشتركة وأساس الاستقرار لما يقارب القرنين من الوجود الاجتماعي البورجوازي هي التي تتفجر وتذهل البورجوازية فيما ترى فجأة ارض وجودها العريق تتأرجح تحت خطوات تقدم أبنائها التاريخي : تلك هي العدالة الطبيعية التي انقادت اليها طبقة عبر أبنائها والتي تتركها بلا سند ضد هذا الرفض المفاجيء لتشريعها . كانت الثورة خلال وقت طويل متفائلة : كان العنف والعقل سواء . وكانت الأسباب نفسها التي تولد التمرد هي التي توفر له وسائل النجاح ووسائل تحققه . لم يكن الانسان يواجه الا مشكلات يستطيع حلها .منذ فترة قصيرة ، وهذه هي عبقرية الراسمالية الجديدة ، انفصل التمرد عن الأداة العقلانية لتحققه : البلدان المتخلفة (دون قوى انتاجية) والطلاب (دون اندماج اجتماعي) يجسدون التمرد والعنف، وتجسد البورجوازية الراسمالية العقل والسلطة الحقيقية. هل قدر للمجتمع الصناعي ان يصبح حقيقة الانسانية ؟ كلا ، ابدا . هذا العنف المستحدث البالغ أوجه يبتكر من جديد أدوات ، وعقلانية أصلية ، ويجد وسائل جديدة للعجز الذي تملكه . هكذا يتغير معنى كل شيء : ما يبدو وضعا مستحيلا يتكشف عن انه كاف جدا لبلوغ النتيجة : يتضاعف الخطر وحسب .

لا بد من رؤية الفيتناميين يصلحون دولاب دراجة بقضيب حديدي استخرج من طائرة اميركية اسقطت ، لكي نفهم ان العقلانية ، سواء كانت عقلانية الأهداف البعيدة أو الأهداف المباشرة ، لم يتخل عنها الثوريون ، وانما تغير معناها وحسب ، أنها ستكون عقلانية الابتكار العقلاني الذي سيضعونه في خدمة العلة الأساسية ، التي تكونها تضحية حياتهم ، وحياتهم الجاهزة للتضحية : القضيب الحديدي الذي لا يساوي شيئا ، الرمز الساخر لاكبر مجتمع صناعي في العالم ، أصبح **العقل** كله انطلاقا **من المحتوى المطلق** حيث قرروا المخاطرة بحياتهم .

كان ينبغي رؤية الطلاب الباريسيين يقتلعون بلاط الشوارع في باريس لكي نعرف ان **العقل** أقل الزاما مما يعلمنا اخصائيوه في العلم ، لأنه جاهز لمؤازرة التمرد الفعلي ، ضد الالتزامات المعقدة لهذا العقل بين ايدي الشرطة الذين لا يملكون ما يخاطرون به لان كل شيء للضياع ، والذين لا بد من أن يختبئوا وراء عرباتهم المصفحة ودروعهم وأدوات الدفاع الذاتي الدقيقة الاخرى .

كان واجبا ان نتابع أمثولة كاسترو وغيفارا لكي ندرك في أي ناحية تقدر الستراتيجية أن تتجدد في كل مناسبة ، حين تكون الثورة نابعة ، بشكل مباشر ، من عفوية وجود الثائر وحدها : المناوشة المتجولة ، الاجتماع السياسي ، الاحتلال المتحرك للأرض ، التحريض ، اظهار العنف الذي يمارسه العدو ، أسلحة التعبئة الثورية والعمل العقلاني الذي يسحق عقلانية الخصم المزيفة .

ومن الطبيعي أنه ينبغي اللعب بقيود الخصم : بما لا تزال البورجوازية غير مستعدة أن تحققه حتى الآن ، ان تأمر جنودها باطلاق الرصاص على ابنائها هي . هذا هو ثمن النقاء الايديولوجي حيث تجد الثورة الطلابية اسبابها ، ذلك أن الطلاب قادرون ، لانهم أبناء آبائهم ، على القيام بالكفاح في هذه الحرب الأهلية المتميزة ، حيث يناضلون ضد امتيازاتهم الخاصة وأنهم قادرون في الوقت نفسه أن يجمدوا الخصم في نقطة وفي مكان بحيث يستحيل عليه أن يرد كما كان سيرد حين يواجه عدوا طبقيا .

ولأنهم يهاجمون نقطة الضعف في الأمبريالية الغربية ، أعني الايديولوجية، تبدو ثورتهم خطرة وفي الوقت نفسه تصل الى عنفها المتفجر . ولا يجوز الشك فيها ، فتلك هي الحالة نفسها في الفيتنام : تتحدد المعركة كل مرة وفاقا للمناضلين ووضع القوى الحاضرة وليس وفاقا لطهر التضحية .

ولأن الرأي العالمي لن يقبل استخدام القنبلة الذرية ، تصبح الابتكارات الثورية للقوى الفيتنامية ممكنة كلها .

« لا اهداف ، لا مطالب محددة ، لا بديل » ، ويبقى الآباء مشدوهين ازاء ظاهرة هذه الثورة التي هي ظاهريا بلا برنامج والتي تبدو حرفيا نقيضا لكل ما يتعلق بجوهر كل مطلب . ذلك أن المسألة تتصل ، على الوجه الصحيح ، بالوجود خارج أنواع نظام العقلانية كلها ، اذ أن البورجوازية احتكرت **جميع العقلانيات** الموجودة ، أي برفضها حيث لا ملاذ لها ، اذ أن وجودها نفسه يتوقف على هذه الأنظمة . وجودها **كحقيقة** من حقائق تاريخ العالم المتطور ، المتقدم والصناعي ، أعني علتها ومصلحتها في الأخير .

ذلك أن كل عقل هو من الصعيد الآخر ، صعيد الأبوة ، والقانون ، والعقل الكامل الصحيح . انه ، باختصار من صعيد الرعب ، وأن الطلاب يريدون أن يقضوا على الرعب ، على القسر القانوني الطاغي ، الموروث المخضع المعطّل .

من هذه الناحية يكون العنف كذلك الصورة الأكثر دقة للغاية المقصودة والهجوم المطلوب . بالعنف ، سرعان ما يتجابه الطلاب مع **الدولة** البورجوازية على أرضها ذاتها ، مقسورين على أن يرفضوها ، على أن يقتلعوها ، ويرشقوا بها في حركة العنف الصافي راس الشرطة المسعورين ، المخوّذين المعزولين . انها لحظة ثورية كبرى لا يتحدد فيها الانسان بميراثه ، بل بقدرته على ان يضع ذاته استنادا الى قراره وحده بتقرير مصيره . لنكن هادئين : الأهداف الملموسة غير منعدمة ، بيد أن لا واقعيتها يجب أن تبقى صامتة ما دامت لم تكتسب الواقعية التي يضفيها عليها اسقاط النظام القائم .

اننا في عصر « **الجنون** » الجماعي ــ يسيطر **كاسترو** على جزيرة بثلاثة عشر رجلا ، ويغلق **ماو** الجامعات سنة كاملة ، مسلحاهكذا الجماهير بمناورة

ضد البيروقراطية (سواء شاء ذلك أم لا) ستؤكد استمرار الثورة ، واخيرا الفيتناميون الذين يصمدون بدراجاتهم البسيطة في وجه أقوى دولة عسكرية وصناعية في العالم . نراهن أننا نشهد ولادة « جنون » جماعي وأنه سينجح كالجنون السابق : انه بدأ ينجح .

٤ - نحن سائرون

١) لم تعد هناك مسألة طلابية . **الطالب** مدلول باطل . نحن « ذوو امتيازات » ، ـــ لا من الناحية الاقتصادية ـــ لكن لأننا وحدنا لدينا الوقت والامكانية الطبيعية والمادية لكي نعي حالتنا وحالة المجتمع .

اننا ، بخاصة ، مستهلكون سلبيون ولا ننتج « ملكا » أو « ثقافـة » . **كون الانسان بروليتاريا ليس « قيمة » ولا مستقبلا.** فليتحول البروليتاريون الى **عمال** حقيقيين مع جميع الحقوق التي يتضمنها ذلك . وليتوقف الطلاب عن ان يكونوا ذوي امتيازات في الثقافة ومستغلين مقبلين ، وليعيدوا فورا الى المجتمع ، في شكل اجماعي ، ما اعطاهم اياه المجتمع افراديا .

٢) اننا كطلاب ، لا يجوز أن نسمح بفصل المدرسين و« الطبقات » الأخرى عن المجتمع ، أو ان نتساهل في أن نتحد في طبقة منتحلة من الطلاب بمشكلات اندماجها الاقتصادية والاجتماعية .

٣) لم نكن في الماضي الا أقلية صغيرة قابلة للاندماج بالضرورة . نحن الآن **« اقلية »** كبيرة جدا غير قابلة للتمثل لكنها تحتفظ بـ**« وضع »** الأقلية القديمة . هذا هو التناقض الذي نعيش فيه ، نحن أبناء البورجوازيين . **لم نعد واثقين من دورنا المقبل كمستغلين** . ذلك هو أصل قوتنا الثورية . فلا ندعه يفلت . لنستأصل أنفسنا : لنصبح عمالا لكي يصبح العمال جميعا ذوي امتيازات ـــ لهم الحق بالمعرفة والثقافة واختيار مصيرهم الخاص .

٤) نحن من الان فصاعدا عمال كالاخرين . نحن « رسمال » مباشر ومقبل للمجتمع ، ولسنا وعـدا ببديل للطبقة الحاكمة .

٥) توقفوا ايها الطلاب عن كونكم متطفلين ، ولو موقتين ، مستغلّين مقبلين ، ومستهلكين ذوي امتيازات . لكن منتجين حقيقيين « للملك » والخدمات والمعرفة .

٦) لقد مات الطالب الحر ، ومات طالب المساء . سيدرس الناس كلهم اذا كان الناس كلهم منتجين ، يستهلكون ويدرسون في آن .

٧) اننا **كطلاب ـــ عمال** نرفض مجتمع الاستهلاك . نحن مخطئون . كل انسان يجب ان يستهلك ما يعادل انتاجه . **فلا يجوز فصل الانتـاج والاستهلاك بالتوزيع او التقسيم التقني للعمل .**

لا يقدر مجموع العمال ان يستهلك الا ما ينتجه مجموع العمال . وعلى مجموع العمال ان يختار ما يريد ان يستهلك لكي يعرف ما يريد ان ينتجه.

٨) ان اثراء (تبرجز) الطبقة العاملة ، المقنّع والمعلن بالمطاليـب الباطلة التي اعطيت لهم ، كان مشروعا للراسمالية المعاصرة . فلقـد

استطاعت بذلك ان تقسم العالم قسمين المرتهنين وجميع القابلين لان يصيروا مرتهنين كذلك في امد قصير او متوسط ازاء المطرودين « الموقتين » من هذا العالم ، البلدان التي نسميها متخلفة .

٩) لقد اصبح **الطالب بروليتاري البورجوازية** ، واصبح العامل **بورجوازي العالم الثالث** .

١٠) لنستمر ، طلابا وعمالا ، في الكفاح من اجل تغيير جذري لجميع المجتمعات المستقلة ، الضاغطة ، الخادعة .

لنكن ما نحن وما نريد ان نكون
لا ما يراد لنا ان نكون غصبا عنا .

١١) لنرفض في آن واحد **نزعة اللامبالاة بالسياسة ، ونزعة الثورة للثورة** ، بكونهما في جوهرهما ، واحدا . ان بعض الحظوة والزيادة لن يغير شيئا من وضعنا كأشياء سلبية ازاء السلطات السياسية، الاقتصادية التقنية .

١٢) **ليست الثورة ترفا ، او فنا . انها ضرورة حين تستحيل كل وسيلة أخرى** . وأنتم ، أيها الطلاب والعمال ، وحدكم تستطيعون أن تقوموا بها . لن يقوم بها انسان من اجلكم ، اذ ليس هناك انسان قادر على ذلك .

١٣) ان كانت حالتنا تقودنا الى العنف ، فلأن المجتمع كله يعاملنا بعنف . **لنرفض عنف « السعادة »** المصنوع للناس كلهم ــ فهذه السعادة الفاضحة للساعات الاضافية ، للتجارة بقوتنا على العمل ، بقوتنا الحياتية . هي مقايضة ببعض لعب سوداء وبيضاء او ملونة لا تفيد فيما بعد الا في أحكام استعبادنا وتجريدنا من انسانيتنا .

١٤) اننا كطلاب ــ عمال نرفض من الان فصاعدا هذه الحلقة الجهنمية وهذا الموت البطيء . **اننا نصر على أن يكون للعمال ، في مختلف مستويات مسؤولية الاستهلاك ــ المنتج ، والانتاج ــ المستهلك ، القدرة على القرار جميعا وبالتضامن ، في تبادل خدماتهم وفي انسانيتهم العاملة .**

ان يعمل الانسان هو ان يحقق حياته بفاعلية ضرورية وحرة . ان **تقسيم العمل هو تبادل الخدمات بتضامن انساني عبر تقنيات مسيطر عليها.**

١٥) لنقبل كطلاب ــ عمال وسائل غاياتنا . اذا كنا نريد تغييرا جذريا لوضعنا ، فلن نحصل عليه بالحوار ، فالحوار منقطع منذ زمان طويل، واذاكنا لا نريد الا تنظيما «لامتيازاتنا» أو مزيدامن اللعب، فلا نتوهمن الثورة ، ذلك انها تكلف غاليا .

فلنختر ، ايها الطلاب ــ العمال ! لكن لنختر بسرعة !

١٦) لنكن شيئا اخر غير « شخصيات » مسرحية مأساوية ــ كوميدية ليست حتى في مستوى الهزل . **لنكن ممثلين حقيقيين !**

١٧) أن نعمل لا يعني أن نطلب « المستحيل » في النظام الحاضر . يعني انه لم يعد لنا ان نطلب « دورا » وحقوقا ــ هو ان نمنح المحبة والاعمال الجيدة تضحياتها .

١٨) لنرفض حوار الكلمات الاصم ، لنرفض كذلك حوار القوة الوحشي الاصطلاحي .

لا يجوز ان نتحصن وراء مطالبينا ولا وراء متاريسنا . يجب ان نهجم!

١٩) لنقم بمسؤولياتنا ازاء انفسنا وازاء الاخرين . لنرفض رفضا حاسما ايديولوجية **الانتاج والتقدم والقوى** المزيفة التي تحمل الاسم نفسه . **سيكون التقدم كما نريد أن يكون** . لنرفض دوامة «الترف» و «الضروري» – الحاجات التافهة المفروضة لكي يشغل كل عامل نفسه باسم « القوانين الطبيعية » للاقتصاد .

٢٠) انت **كعامل** عليك ان تقرر مع جميع العمال الاكفاء او غير الاكفاء ، انتاجك الخاص .

٢١) لنرفض جميع التقسيمات القائمة ، عن وعي او عن ضرورة ، بين البروليتاري والبورجوازي . **أزل نفسك** ، أيها البروليتاري ، وصر عاملا حقيقيا بكامل المعنى . آنذاك لن يبقى هناك بورجوازيون بل عمال وحسب .

لنرفض كذلك استقلال التكنوقراطيين « الثقافي » . حين انفصل العمل عمن يقوم به ، وقام التناقض الحي بين انتاج الاستهلاك ، لزم تقييم الشيء الوحيد الباقي **أي العمل** الاولي ، القوة ، العنف . هذا أتاح فصل المهندسين عن العمال ، الخلاقين عن المنفذين ، الادباء عن العلماء « المفيدين » عن « غير المفيدين » ، وخلق **تسلسل** في **« القيم »** و**« السلطات »** وجعل كل واحد شرطيا على الاخر لكي يزداد انتظام ادارة العمل في « الحرية » الاكثر كمالا .

٢٢) انتا كعمال من مختلف الانواع لا يجوز أن نُخدَع . فلا نخلطن **التقسيم التقني** للعمل ، **بالتقسيم التدرجي للسلطات والمسؤوليات** . الاول ضروري ، والاخر ثانوي يجب ان يحل محله تبادل متساو لقوى عملنا وخدماتنا داخل مجتمع متحرر .

٢٣) لنرفض كذلك الفصل بين **العلم والايديولوجية** ، أكثر أنواع الفصل ضررا لاننا نفرزها نحن انفسنا . لم نعد نريد أن نُحكَم سلبيا بواسطة « قوانين العلم » أو قوانين الاقتصاد او الالزامات التقنية .

العلم « فن » تكمن اصالته في تطبيقاته الممكنة خارج نفسه . فهو لا يقدر أن يكون مصدرا لمقاييس تتجاوز ذاته . لنرفض قيصريته الخادعة ، سبب التطرفات والتأخرات كلها ، بالنسبة اليه نفسه ، ولنستبدل هذه القيصرية باختيار حقيقي بين الممكنات التي يقدمها لنا .

٢٤) لنرفض كذلك سهولات اللغة الثورية ، أداة التمثل ورفض طرح المشكلات . لنسأل دائما أية ثورة نريد .

٢٥) لا نجب حينما نسأل : « اين نذهب » . لسنا في السلطة ، ليس لنا أن نكون « أيجابيين » ان نسوغ « تطرفنا » .

لكن جوابنا يعني كذلك وبخاصة اننا **نريد** وسائل غاياتنا ، أي السلطة ، أو على الاقل **سلطة** ينتفي فيها كل شكل من أشكال الضغط

والعنف من حيث انهما أساس لوجودها ووسيلة لاستمرارها .

٢٦) لا يجوز أن نترك لاهدافنا أن يتمثلها الثوريون المتعبون والمؤسسات القائمة .

اننا **نريد ونلح** أن يراقب الانتاج الاستهلاك والاستهلاك الانتاج وأن نراقب الاثنين نحن **كلنا، عمال العالم كله ، متحدين في ضرورة حياة واحدة وفي عدم السماح لهذه الضرورة ان تصبح عنصر تغريب .**

٢٧) البروليتارية ، شأن البورجوازية في حينها ، ثوريتان — يعني انهما لم تقدرا على الحوار الا بتغيير المجتمع جذريا . وقامت وتقوم محاولات لتجريد البروليتارية من هذه القدرة بتقسيم العمال ومحاولة انشاء « تعايش سلمي » مزيف بين البورجوازية والبروليتارية في وجه **جائعي الارض** . هذا « الاشتراك في المصلحة » يقوم على **العرقية** والتدرجات الكثيرة لقيم العمل الثقافية والمالية . ويسوغ هذا كله بايديولوجية القرن الاخير التي جزئت وشوهت .

٢٩) اذا نظر اليكم ايها الطلاب ، كذوي امتيازات ، فلكي يحكموا دمجكم في هذه البيرو — تكنوقراطية الصناعية للتدخل والتقدم بأن يخدعوكم بالمقتضيات الاقتصادية — العلمية . نفهم حينذاك اهمية هذه التسمية . فذوو الامتيازات هؤلاء لا يمكن أن يكونوا في نظر العمال الا **بورجوازيين** صفارا محرضين . وهم في نظر الطبقة الحاكمة **جاحدون ومضطربون رومنطيقيون** . نقطة الانطلاق مختلفة — اما التعليل فواحد .

٢٩) كانت الثورة البورجوازية حقوقية — وكانتالثورة البروليتارية « اقتصادية » . **ان ثورتنا ستكون اجتماعية وثقافية** ، لكي يتمكن الانسان من أن يصبح ذاته ولا يعود يكتفي بايديولوجية ذات منزع انساني .

٣٠) لنرفض اخيرا ايديولوجيات الانسان « الكلي » الذي يقدم لنا هدفا أخيرا : نهاية التاريخ — وذلك باسم « التقدم » من أجل أن يجيد رفض الرقي .

نحن **العمال — الطلاب** ، الطبقة الثورية ، نحن أصحاب الايديولوجية السائدة ، ذلك أن هدفنا هو ان ننهي انفسنا كطبقة ، وأن تنتهي معنا جميع الطبقات .

لا نريد أن نكون الا عمالا شبانا

وهذا يمكن ان نعرضه على الاف العمال ، شبانا أو شيوخا ، عقليين أو يدويين ، لكي يقدروا ان يكونوا مثلنا ونكون مثلهم .

مرة ثانية يجب ان نلغي جميع الامتيازات ، جميع السدود المموهة ، ومن أجل ذلك يجب علينا أن نكافح بقوانا كلها وبجميع الوسائل حتى النصر الذي لن يكون **نهائيا الا مؤقتا** .

- اعيدوا قراءة هذا النداء مرات .
- صيروا مبدعية — صححوه .
- وزعوا منه ملايين النسخ .
- علقوه . انسخوه .

وحين نصبح جميعا مبدعيه ، سينهار العالم الهرم ويفسح المكان لِ

اتحاد العمال في جميع البلدان

اننا سائرون !

٥ - مقترحات تمهيدية لثورة ثقافية

١) نعيش في مرحلة التمهيد للثورة .

مرحلة التمهيد للثورة هي التي تشهد ولادة ايديولوجية جديدة . هذه الايديولوجية تنتظر من يؤسسها .

٢) الطوباويون هم أولاء الذين يؤمنون بأنهم ، اذ يكتفون بتغيير البنيات الاجتماعية ، يغيرون فكر الافراد .

٣) كل صراع نقدي سياسي . السياسة النقدية ليست شجاعة ولا خلاعة ، انها واجب وحسب .

٤) ليترك كل انسان لنفسه عناق الانسياق لحماسته ، دون أن يشعر بالاثم ، لكي يتعلم من جديد معنى الانساني .

٥) لنأخذ من الموجود كل ما هو صالح نشوه .

٦) ليعد الاساتذة من جديد الى التربية لكي يجدوا فيها الرضى الذي يذهبون غالبا للبحث عنه في المؤتمرات او غيرها .

٧) كل شخص يخاف من « المغامرة » ، يجب أن يعرف انه لا يخاف الا من التغيير .

٨) الاكثرية الثقافية والاجتماعية والسياسية بين الشبان مندمجة في مؤسسات .

٩) ليأت للنقاش كل شخص لا يفهم . كل شيء يمكن أن يتوضح لكل شخص .

١٠) ان بنياتنا النفسية المتيبسة العتيقة يجب أن تزول لكي تفسح المكان لتخيل عالم جديد .

١١) اننا نعيش في مرحلة حرجة لا يستطيع أن يفهم من العالم شيئا من لا يفهمها .

١٢) جميع المفاهيم القائمة بائدة يجب أن نعيد النظر فيها .

١٣) ليس التغير غاية بحد ذاته ، فبين الجمود والحركة هامش يكفي جميع الذين يريدون أن يجهدوا انفسهم في التفكير .

١٤) الانسان شاب بفكره لا بعمره .

١٥) كل فكر شاب ، ما يزال متحررا من البنيوية النفسية المحددة ، يقدر أن يتخيل أفكارا جديدة وأن يكون خلاقا .

١٦) الاستقلال الحقيقي هو وحده الذي يتيح الابداع .

١٧) يجب ان يزول مفهوم صراع الاجيال ، فهو ليس الا تمويه للكفاح من أجل السلطة .

١٨) ليلعب « الاباء » دورهم « كآباء » ، وحينئذ ستكون الثورة تطورا .

١٩) كل شخص يعتبر الانفعال غريبا عن الفكر المنطقي يجب أن يتخلى فورا عن هذه الرؤية المثالية ..

٢٠) الابداع ينطلق من الانفعال .

٢١) اعادة اكتشاف الشخص لذاته أمر لا غنى عنه من أجل تكون الفكر .

٢٢) ان منشأ الفرق بين العادي والعبقري لا يعود الى مستوى الذكاء بل الى ارادة التخطي .

٢٣) كل ابداع جديد يجب أن يتضمن عناصر تناقض الجمود .

٢٤) ان على رجال المؤسسات القائمة ـ مؤسسات الحكومة والمعارضة على السواء ـ أن يستمروا في تصدير الحاجات الرائجة . ان عليهم أن يوفروا الخبز اليومي . سنفعل ذلك غدا من أجلهم ، وفوق ذلك سنقدم لهم الثقافة .

٢٥) ان على الاخرين غير المكلفين بتصدير الحاجات الرائجة ، أن يشمروا عن زنودهم وينزلوا الى الشارع ويعيدوا النظر في طرائق تفكيرهم .

٢٦) ان تكون مسؤولا وأن تفكر سياسيا شأن يخص الجميع . انه ليس امتيازا لاقلية من « المريدين » .

٢٧) لا يجوز ان ندهش من تبلبل الافكار ، ولا أن نسخر أو ان نبتهج ، ان ذلك شرط انبثاق الافكار الجديدة .

٢٨) يفهم « آباء » النظام ان الاستقلال ليس كلمة مجوفة ، انه يفترض تقاسم السلطة ، يعني تغير طبيعتها .

٢٩) وراء صراع الطبقات يكمن جوهريا صراع من اجل السلطة .

٣٠) تحقيق الاستقلال والمشاركة في السلطة يمكن أن يتم سلميا اذا اراد « آباء » النظام ان يجيدوا اداء أدوارهم .

٣١) لكي نتعلم التفكير من جديد يجب أن نمحي كأفراد تابعين لطبقة .

٣٢) ليستمر جميع العمال من مختلف المهن في دفع منظماتهم للخروج من الشباتية ، وليحاولوا بمساعدة العمال الثقافيين أن يسيروا الى الامام صوب الاستقلال .

٣٣) الا فليعد الينا طعم الاعياد .

٣٤) قد ينقرض العلم الاحمر . وكذلك العلم الاسود . فليبتكر لنا الرسامون ألف علم ترمز الى البحث والجهد والثورة الداخلية

والحماسة والابتكار .

٣٥) الا فليبدع الموسيقيون والشعراء أغاني جديدة .

٣٦) أن تفجر مناهج تفكيرنا الجديدة هو وحده الذي يتيح أن نفكر من جديد في عالم جديد .

٣٧) بدءا من ابداع كل انسان تنشأ ثقافة جديدة وايديولوجية جديدة.

٣٨) لا يمكن انسان أن يصل الى الاستقلال ما لم يكن قد تعلم السير . فليتعلم الذين يعرفون أن يسيروا كيف يعلمون السير . وليعلمه الى الآخرين الذين يعرفون أن يسيروا وأن يعلموا .

٣٩) هذا كله من أجل أن يقدر الانسان أن يصبح نفسه !

٦ - البنى الذهنية والثورة الثقافية

١) نسمي مذهبا كل ما اعتقدناه حتى الآن وكيفية اعتقادنا .

٢) لا بد لاعادة النظر الاجتماعية من اعادة نظر شخصية والعكس صحيح .

٣) الموقف النقدي هو الموقف المذهبي الوحيد الذي يجب أن نتعلمه ونحافظ عليه .

٤) ما دمنا رجعيين أو معارضين ، أي مرتبطين تسلسليا بما هو موجود ، لا نستطيع أن نبدع أو أن نتقدم . لا نفعل الا أن ننقل في المرآة ما ندينه .

٥) لن تحدث الثورة بأن نقذف خارج أنفسنا ، بشكل فوضوي ، كل ما كبتناه من شهور أو سنوات .

٦) لن تحدث الثورة بأن نترك الاشخاص يناقشون دون توجيه ، بينما يطلب منهم شيء لم يتعلموه قط : المشاركة في الابداع الجماعي .

٧) ما دامت البنى الذهنية دون تغير ، فان طعم السلطة سيبقى أسوأ الامراض في كل مجتمع .

المحامون العرب والحرية

عقدت لجنة الحريات العامة وسيادة القانون ضمن اطار مؤتمر المحامين العرب الذي عقد مؤخرا في دمشق جلساتها في مقر عملها بكلية الهندسة في دمشق خلال الفترة من ٥ ـ ١٩٦٨/٩/٧ برئاسة نقيب المحامين في الاردن الاستاذ سليمان الحديدي وحضور أعضاء المكتب وعدد كبير من المحامين أعضاء المؤتمر العاشر . وبعد توضيح مهمة اللجنة واقرار منهاج عملها جرت مناقشة عامة في جلستي صباح ومساء ١٩٦٨/٩/٥ اشترك فيها عدد كبير من اعضاء اللجنة وفي ضوء تلك المناقشة وما تضمنته من آراء ومقترحات أو توصيات ، وفي ضوء القسم المتعلق بالحريات العامة وسيادة القانون الوارد في تقرير الامين العام للاتحاد المقدم للمؤتمر العاشر وفي القرارات والتوصيات الصادرة عن المؤتمرين الثامن والتاسع للمحامين ، وفي ضوء الدراسات والمذكرات التي وضعت أمام اللجنة .. أعد المكتب في جلسته المنعقدة في صباح ١٩٦٨/٩/٧ مشروع البيان والقرارات والتوصيات الذي عرض على اللجنة في جلستها الختامية المنعقدة في مساء ١٩٦٨/٩/٧ وتم اقرار هذا المشروع بالصيغة التالية :

أ ـ البيان

في هذه المرحلة الخطيرة الحاسمة التي يجتمع فيها المؤتمر العاشر للمحامين العرب لاول مرة بعد نكسة الخامس من حزيران ، فان المحامين العرب مطالبون أمام ضمائرهم كقانونيين وأمام شعوبهم كمواطنين وكمثقفين ان لا يلجأوا الى التعميم أو الى الاكتفاء بالابحاث النظرية وتقرير المبادىء العامة المتعلقة بالحريات العامة وسيادة القانون . فهذه المبادىء واضحة ومدونة في مقررات المؤتمرات السابقة وفي الكثير من دساتير الدول والمنظمات والهيئات السياسية والمهنية والنقابية وفي الاعلان العالمي لحقوق الانسان .

وانما المطلوب من مؤتمرنا الذي ينعقد في ظل آثار الهزيمة أن يبحث تأثير انتهاك الحريات العامة والخروج على مبدأ سيادة القانون في وقوع هزيمة الخامس من حزيران ، ومطلوب من مؤتمرنا ايضا ان يتابع دون تعميم أو غموض الخطوات التي اتخذت بعد تلك الهزيمة في مضمار كفالة الحريات العامة واحترام مبدأ سيادة القانون في مختلف أجزاء الوطن العربي .

ان ادراكنا العميق والراسخ لتواطؤ الاستعمار والامبريالية العالمية ـ بقيادة الولايات المتحدة الاميركية مع اسرائيل وتأثير هذا التواطؤ في الحاق الهزيمة بالامة العربية في الخامس من حزيران لا يجعلنا ولا يجوز ان يجعلنا نغفل أو نغمض أعيننا عن رؤية آثار المساس بالحريات ومبدأ سيادة القانون في مجال شل فعالية الجماهير الشعبية وحجب رقابتها على الانظمة والحكومات والاجهزة الرسمية مما كرس أو ساعد على تكريس

القصور والتسلط والفساد في هذه الاجهزة وجعلها عاجزة عن مواجهة الخطر الاستعماري الصهيوني كما جعل الجماهير تفاجأ بالهزيمة المخزية المذلة التي واجهتها في أعقاب عدوان الخامس من حزيران .

الا أنه رغم نكسة الخامس من حزيران ورغم القرارات والتوصيات التي أعلنتها وسجلتها قرارات مؤتمرات المحامين المتعاقبة بصورة عامة والمؤتمرين الثامن والتاسع بوجه خاص في مجال الحريات العامة وسيادة القانون فاننا نرى :

١ — ان قضية الحريات وسيادة القانون لا تزال تلاقي العنت والاهمال والاعتداء في معظم أجزاء الوطن العربي خلافا لابسط المبادىء والاسس التي قررها الاعلان العالمي لحقوق الانسان ورغم كل البيانات والقرارات والتحذيرات التي كان ولا يزال يعلنها اتحاد المحامين العرب ويرفع صوته باحترامها من خلال مؤتمراته السابقة واجتماعات مكتبه الدائم ونشاط أمانته العامة منذ تأسيسه وحتى الان .

٢ — لقد كان ما تلاقيه قضية الحريات الديموقراطية وسيادة القانون من عنت واهمال واعتداء في معظم أجزاء الوطن العربي من العوامل الرئيسية التي شاركت أو ساعدت على عزل الشعب العربي عن قضاياه ومعاركه الكبرى والمصيرية مما كان له أكبر الاثر في تلك الهزيمة المخزية التي لحقت بالامة العربية في الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

٣ — على الرغم من أن الحريات ومشاركة الجماهير في توجيه مقدراتها ومصائرها بصورة عامة وفي هذه المرحلة الخطيرة والحاسمة بالذات بوجه خاص تعتبر من أسلحتنا المهمة في معركة الصمود والمجابهة والاعداد لازالة آثار العدوان والتحرير الشامل باعتبارها المناخ الملائم للقيام بواجب الاعداد وحشد كل الطاقات الوطنية في مواجهة العدوان والاحتلال وأهداف ومخططات الاستعمار فان الشعب لا يزال في معظم أجزاء الوطن العربي في عزلة عن قضاياه الكبرى والمصيرية لا يعترف له بحق ولا يسمح له بمشاركة ولا يمارس حقوقه الاساسية وحرياته الا في حدود ضيقة ودون أية ضمانات حقيقية .

٤ — على الرغم من أن متطلبات المعركة المفروضة على الامة العربية من قبل الصهيونية والاستعمار والامبريالية العالمية توجب على الانظمة الحاكمة في كافة أجزاء الوطن العربي الاستجابة لمتطلبات الحشد والتعبئة الشعبية والعمل لازالة كل التناقضات القائمة بين أي منها وبين قوى الشعب الوطنية بكفالة حرياتها العامة واحترام حقوقها الاساسية واعلاء سيادة القانون في التعامل والتعاون معها ، فاننا نرى مع الاسف الشديد بأن العكس هو السائد حتى الان في معظم أجزاء الوطن . فلا تزال حتى الان الاحكام العرفية والقوانين الاستثنائية والمحاكم العسكرية الخاصة سيوفا مشهرة على رقاب المواطنين ولا يزال الحبس الاحتياطي والاعتقال السياسي والنفي والابعاد الاداري هي لغة التعامل والتخاطب معهم ، وان الكثير من السجون والمعتقلات لا تزال تضم بين جدرانها العديد من المناضلين والوطنيين العرب ، وان الكثير من الكفاءات العربية والفنية والتقدمية لا تزال محرومة من حق المشاركة في الدفاع عن الوطن أو في تعميره وتطويره وتقدمه أو حتى من شرف المواطنة فيه .

٥ ــ انه من المحزن والمؤلم لمؤتمرنا ولامتنا العربية أن تتخذ أجهزة الدعاية والصهيونية والامبريالية من صور العنت والانتهاك والاعتداء على الحريات العامة وسيادة القانون في عدد من أجزاء الوطن العربي واجهة ووسيلة تتستر وراءها في نشر ما تريد من الاتهامات والاكاذيب والمزاعم المضللة والادعاء بأن صراعها مع العرب هو صراع بين نظامها التقدمي الديمقراطي المزعوم وبين انظمة عربية رجعية أو فاشية .. متخذة من تلك المظاهر والاجراءات العربية الماسة بالحريات العامة وسيادة القانون وسيلة دعائية لتركيز مثل هذه المزاعم المضللة وخاصة في عقول بعض الكتاب والمفكرين في العالم .

وفيما يلي استعراض محدد وشامل يلقي الضوء ويوضح الصور العامة السابقة عما تواجهه قضية الحريات العامة وسيادة القانون في مختلف الاقطار العربية .

ففي الاقطار التي ما تزال تحكمها الطبقات شبه الاقطاعية والراسمالية المرتبطة بالاستعمار فان الحريات العامة وسيادة القانون لا وجود لها في غالبيتها سواء قبل الخامس من حزيران او بعده .. ومن هنا يستمد العمل الثوري فيها مصادر شرعيته الاساسية .

أما في الاقطار ذات الانظمة البرلمانية والدساتير التقليدية البرجوازية فان نمو الحركة الشعبية في ظل الحريات التي تكفلها هذه الدساتير يجعل الطبقات الحاكمة شبه الاقطاعية والراسمالية المرتبطة مصلحتها بالاستعمار الجديد والمعيقة للتقدم تتنكر لهذه الدساتير عندما يهدد نمو الحركة الشعبية المتعاظم مواقعها في الحكم ومصالحها كما حدث في العديد من الاقطار العربية وغيرها من بلدان العالم الثالث .. وبالتالي تصبح الثورة مشروعة لحماية الحريات العامة وسيادة القانون ضمن مصادر مشروعيتها الاخرى .

أما من الانظمة التقدمية التي أسقطت منها سلطة شبه الاقطاع والرأسمالية المرتبطة مصلحيا بالاستعمار الجديد فان الحرية كل الحرية للجماهير ولا حرية لاعداء الجماهير هو الاطار الذي نطالب ضمنه باطلاق الحريات الديمقراطية واحترام مبدأ سيادة القانون .

ان شعار « الحرية للجماهير » ليس نقيضا للثورية (مقررات المؤتمر التاسع) ولكنه ضمانتها الاساسية .

ان المساس بالحريات الديموقراطية وانتهاك سيادة القانون هو النذير بأن طبقة جديدة تنمو وتعمل على الحلول محل الطبقات القديمة في السلطة والامتيازات والوقوف بالمسيرة الشعبية الثورية عند حدود المحافظة على امتيازات فئات هذه الطبقة الجديدة وسلطتها فهي لذلك تلجأ الى تحنيط الجماهير وشل قدراتها ومبادرتها بالحد من حريتها الديمقراطية وانتهاك مبدأ سيادة القانون .

ان الثورية في هذه الاقطار هي الحشد الطوعي للجماهير الشعبية من أجل استكمال مهام تصفية الاساس المادي « الاقتصادي » والاساس النفسي « الثقافي » للطبقات شبه الاقطاعية والرأسمالية المرتبطة مصلحيا بالاستعمار الجديد والمعيقة للتقدم وتعبئة كافة الموارد والطاقات في كل

قطر منها من أجل تحرير الارض العربية وازالة الكيان الصهيوني الاستعماري العدواني في فلسطين .

بعد ٥ حزيران لا بد أن ينتهي منطق الوصاية والتسلط على الجماهير باسم الثورة وحماية النظام الثوري ليرتفع شعار اطلاق طاقات الجماهير وتحريرها من الوصاية والتسلط حماية للثورة ودفعا لها الى الامام وذلك اقرارا لقانون الترابط والتلاحم بين الحرية والاشتراكية والوحدة .

اننا نرى في تلك الاقطار أن كافة الانظمة فيها تنادي بالوحدة والاشتراكية وبالحرية ومع ذلك فانها عاجزة عن تحقيق الوحدة فيما بينها ومع ذلك فاننا نجد طبقات جديدة تنمو فيها وتوسع من امتيازاتها على حساب خطط التنمية كما نجد أن جيوب الطبقات الحاكمة القديمة ما تزال موجودة على الرغم من أن القضاء على هذه الجيوب هو المبرر الذي تستند اليه الاجراءات الماسة بالحريات الديمقراطية وسيادة القانون .

وهذا يعني أن اجراءات المساس بالحريات العامة وسيادة القانون لا يمكن أن تدفع بمسيرة الجماهير الثورية الى مواقع الوحدة والاشتراكية والحرية ولكنها فقط تنمي طبقة جديدة تجسدت مصالحها في الابقاء على التجزئة حفاظا على سلطتها القطرية وتوسيعا لامتيازاتها على حساب خطط التنمية والتطبيق الاشتراكي والمشاركة الفعلية للجماهير في توجيه مقدراتها ومصائرها .

اننا لا بد أن نفرق بوضوح بين الثورة والنظام الثوري من جهة وبين الحاكمين باسم الثورة والاجهزة القائمة على امرها من جهة أخرى وبالتالي لا بد أن نفرق بين اجراءات حماية الثورة وبين اجراءات حماية الحاكمين والاجهزة من رقابة الشعب .

ان الصراع ضد الطبقات القديمة لا ينتهي باسقاط سلطتها وانما يستمر بعد الثورة . ففي ظل الثورة يعبر هذا الصراع عن نفسه بالاجراءات الاقتصادية وبالقاعدة القانونية الاقتصادية التي تحمي هذه الاجراءات وبالعمل السياسي الشعبي لتعبئة الجماهير وتنظيمها وعزل الطبقات القديمة وشل قدرتها سياسيا على التحرك المعادي لمصلحة الجماهير .

ولكن الاعتقالات الكيفية بدون محاكمات وانتهاك الحريات الديمقراطية وسيادة القانون واطلاق سلطة ومجالات عمل الاجهزة السرية والقمعية .. الخ .. لا يمكن أن يكون مبررا في ظل سلطة ثورية تعمل بتأييد وحماية الجماهير الشعبية ولا يمكن أن تكون الا عملا ضد الجماهير وضد الثورة ومن أجل حماية الحاكمين لا الثورة ومن أجل ايقاف مسيرة الثورة لا حمايتها .

ان المنظمات النقابية والمهنية في ظل انتهاك الحريات العامة وسيادة القانون تصبح واجهة للحكم وتفقد صفتها كأجهزة شعبية أساسية فاعلة في النظام الديموقراطي الشعبي .

ان تعدد التجارب والحركات الثورية في الوطن العربي واقع موضوعي أملته ظروف التجزئة الطويلة ولكنه واقع طارىء لا بد أن يزول بتفاعل هذه التجارب وصولا الى وحدة اداة الثورة العربية من المحيط الى الخليج .

وبحكم أن الامة العربية أمة واحدة فان هذه التجارب المختلفة في الشرق أو في المغرب تنشأ لها امتدادات تنظيمية في كل قطر عربي أو في بعض هذه الاقطار التي تحكمها احدى هذه التجارب أو الحركات .

وفي هذا العصر الانساني من عصور البشرية وبعد كل هذه المرحلة التي قطعها النضال العربي وبعد ٥ حزيران بصفة خاصة لم يعد من المعقول أو المقبول أن تدعي فئة أو حركة بالذات تمثيلها دون غيرها لحركة الثورة العربية أو امتلاكها وحدها للبرنامج والحقيقة الكفيلة بدفع حركة الثورة العربية الى آفاقها القومية والاجتماعية .

وفي ظل هذه الاوضاع العالمية والقومية والوطنية فان التفاعل بين حركات وتجارب الثورة العربية فيما بينها وبين كل واحدة منها وامتدادات التجارب والحركات الاخرى في القطر الذي تحكمه هو أمر ضروري وحيوي وبالغ الاهمية ويتصل مباشرة بهدف تحرير الارض المحتلة وتوحيد أداة الثورة العربية وبالتالي اقامة الوحدة العربية وتوفير القاعدة المادية والبشرية الكفيلة بدفع التطبيق الاشتراكي الى أقصى مستويات الكفاية والعدل وحمايته من العدوان والتآمر الاستعماري .

اننا نشاهد اليوم أن الكثير من اجراءات كبت الحريات الديموقراطية انما تمارس في الاقطار التقدمية ضد الامتدادات التنظيمية والفكرية والسياسية للتجارب والحركات الثورية التي لا تتبع التجربة القائدة في القطر .

ومن هنا فان اطلاق الحريات الديموقراطية في الاقطار التقدمية بالاضافة الى كونه ضمانة لدفع الثورة الاجتماعية الى الامام يصبح أيضا من ضمن شروط توفير الظروف الملائمة لتوحيد اداة الثورة العربية وتحقيق الوحدة .

ولذلك فان الحرية للجماهير تشمل بالضرورة كافة القوى التقدمية والقومية الاشتراكية والمنظمات المهنية والنقابية للفئات والطبقات صاحبة المصلحة في تحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة .

ويتبع هذا حصر اعداء الجماهير في الفئات المرتبطة ماديا بالاستعمار والاحتكارات الدولية وصاحبة المصلحة في التجزئة والتخلف (شبه الاقطاع والرأسمالية المرتبطة بالاستعمار الجديد والمعيقة للتقدم) والجواسيس والخونة .

ان تقنين الثورة هو الكفيل بجعل ملاحقة الثورة لاعداء الجماهير يتم ضمن مبدأ سيادة القانون وكفالة الحريات الديموقراطية .

ب – القرارات والتوصيات

من روح هذا البيان والمفاهيم التي تضمنها فان المؤتمر يقرر المطالبة والتوصية بما يلي :

١ – يطالب المؤتمر برفع والغاء كافة صور الكبت والقهر والقمع المتخذة او تتخذ في اي قطر عربي بحق المناضلين ضد الاستعمار العالمي والصهيونية والاستغلال والتخلف والتجزئة .

٢ ــ يشجب المؤتمر كل اجراءات الاعتقال التي تتخذ في مختلف اجزاء الوطن ضد المواطنين لاسباب سياسية ويطالب باطلاق سراحهم فورا او تقديمهم للقضاء لمحاكمتهم على التهم المسندة اليهم .

٣ ــ يطالب المؤتمر بتحريم الاعتقال الكيفي بدون مذكرة قضائية وتحديد فترة بنص القانون لتقديم اي معتقل للمحاكمة او اطلاق سراحه والغاء القوانين او النصوص القانونية التي تجيز الاعتقال الكيفي .

٤ ــ يطالب المؤتمر بوضع سلطة المخابرات والاجهزة السرية ونشاطها في مجال امن الدولة لا امن الحاكمين بحيث يقتصر نشاطها على مكافحة التجسس والتامر الاستعماري وفقا لاحكام القانون تحت رقابة الشعب وفي خدمته وأن تكون من السلطة لا جهازا يعلوها .

٥ ــ يطالب المؤتمر بان يحرم بنص دستوري محاكمة المواطنين امام محاكم خاصة او استثنائية .

٦ ــ ان المؤتمر اذ يعتبر بيان ٣٠ مارس دليلا رائدا في دعم حرية المواطن وتحديد الضمانات الاساسية الواجب توفرها في أي دستور بالنسبة للحريات الشخصية وتقرير الصلة الوثيقة بين الحرية السياسية والحرية الاجتماعية ، يطالب باصدار دساتير في كل الاقطار التقدمية تكفل انجاز مهمة تقنين الثورة باسرع ما يمكن وحصر وتحديد اعداء جماهير الامة العربية واطلاق الحرية كل الحرية للجماهير وكافة المنظمات النقابية والسياسية القومية التقدمية المكافحة في سبيل تحقيق اهداف الثورة العربية وعدم ملاحقة اي مواطن الا وفقا لاحكام الدستور والقوانين الدستورية .

٧ ــ يوصي المؤتمر المكتب الدائم بتشكيل لجنة دائمة تابعة للامانة العامة باسم « لجنة الدفاع عن الحريات العامة » يوكل اليها مهمة الدفاع عن المحامين والمناضلين والاحرار العرب الذين يتعرضون لاية اجراءات تعسفية مخالفة للقانون او للمبادىء المقررة في هذا المؤتمر .

٨ ــ يطالب المؤتمر (لجنة الدفاع عن الحريات العامة) المشار اليها في الفقرة السابقة في كل مرة ترفض فيها اي حكومة عربية تمكينها من القيام بمهمة الدفاع عن المحامين او المناضلين العرب الأحرار او ايقاف الاجراءات التعسفية المخالفة للقانون الى كشف هذه المواقف التعسفية بكل وسائل الاتحاد المتوفرة .

٩ ــ يدعو المؤتمر كافة المحامين العرب والمنظمات الشعبية والسياسية والنقابية وكافة المواطنين في كل أجزاء الوطن العربي للنضال ضد كل قانون او اجراء مخالف لمبادىء سيادة القانون والحريات ومقررات هذا المؤتمر .

١٠ ــ يشجب المؤتمر جميع اجراءات الاعتقال والتعذيب الكيفية التي تتخذ ضد المناضلين والاحرار في المملكة العربية السعودية بسبب مطالبهم الاصلاحية وفي مقدمتها اقامة نظام دستوري برلماني

ديموقراطي ويدعو كافة المحامين وجماهير الشعب العربي لدعم كفاح ونضال جماهير الشعب العربي في المملكة العربية السعودية من اجل تحقيق هذا الهدف الاولي .

١١ - يشجب المؤتمر جميع اجراءات الاعتقال والتعذيب والملاحقة التي تتخذ ضد المناضلين والاحرار في تونس بسبب مواقفهم المشرفة الباسلة من العدوان الصهيوني الاستعماري على الامة العربية وضد سياسة الاستسلام والتواطوء مع الاستعمار التي ينتهجها نظام الحكم القائم هناك ، كما يحيي المؤتمر هؤلاء المناضلين والاحرار ويهيب بكافة الهيئات الوطنية والتقدمية والنقابية في الوطن العربي باستنكار الاجراءات القمعية والارهابية التي تتخذ بحقهم والمطالبة باطلاق سراحهم فورا .

اشارة : كانت لجنة الحريات العامة وسيادة القانون ، مؤلفة على الوجه التالي :

١ - المكتب .

الاستاذ سليمان الحديدي	(الاردن)	رئيسا
الاستاذ عبدالفتاح البوشي	(سورية)	نائبا للرئيس
الاستاذ يوسف ابو حمود	(سورية)	نائبا للرئيس
الاستاذ عبدالسلام المحمود	(سورية)	مقررا
الاستاذ عبدالله علي حسن	(ج.ع.م)	مقررا
الاستاذ عبدالوهاب القيسي	(العراق)	مقررا
الاستاذ فاتح أسير	(سورية)	امينا للسر
الاستاذ نزار عرابي	(سورية)	امينا للسر
الاستاذ احمد محمود فؤاد	(ج.ع.م)	امينا للسر

٢ - الاعضاء .

الاساتذة : محمد الشويكي ، حزام الناصر ، شاهر الطالب ، باسل البسطامي ، هشام التل ، محمد قدورة ، سامي عباسي ، احمد النجداوي (الاردن) .

الاستاذ عبد العزيز بناني (مراكش)

الأستاذان : عبد حيدر ، نخلة مطران (لبنان) .

الاساتذة : ابراهيم ابا زيد ، مصطفى الزعبي ، عبدو الخليلي ، جهان موصلي ، احمد سمير الجندي ، ابو الخير عابدين ، احمد عمران ، مصطفى الطالب ، جريس عبود ، انطوان جبران ، نصر الزير ، اسماعيل اليوسفي محمد الفاضل ، محمد علي ناصر ، محمد عنجريني ، فدوى وفائي ، محمد منان ، احمد هيثم قباني ، حمزة محمد حمزة ، احمد رفعت العمر ، محمد خوندة ، عبد الحميد الخليل ، علي الاسعد ، عبد الرزاق عودة ، مفيد اللجمي ، نوري حجو الرفاعي ، محمود البعاج ، عبد الكريم طيارة ، محمد كف الغزال ، سمير كحالة ، توفيق صالحة ، بيار عبد الاحد ، عبد الرحمن البيك ، هاجم فلوح ، منير داذخي ، محمد الكسار ، غسان خضري ، مطانيوس ايليا ، جورج خريوط ، ممدوح دهيمش ، خالد الخطيب ، ولبد

زاكري ، لوقا جميل لوقا ، محمد الحامد ، فؤاد المزيك ، عارف جزماتي ، لطفي حاج حسين ، يونس ناصر ، علي يانق ، علي النداف ، نادر قوشجي ، عزت زعاويط ، رياض بالي ، طانيوس ايلي ، بيرج تيولجيان ، عبدالله لاذقاني ، انطون جبران ، موفق حلبي ، شهاب موملي ، محمد سعيد نينو . صلاح الجندي ، جورج ضية ، نديم ملاح (سورية) .

الاساتذة : احمد العافي ، علي مظلوم ، علي كامل ، غازي فرج ، حمزة سعيد ، محمد حاتم ، كاظم الخالدي ، توفيق الالوسي ، عبد الوهاب قيسي ناجي يوسف ، عبد الرزاق الحديثي ، فرات وتوت ، علي النقيب ، صبري المهدي ، ابراهيم غثوان (العراق) .

الاساتذة : سعد واصف ، نازلي الشربين ، حسن الشاذلي ، عبد الرحمن نصر الصباحي ، عبد الرزاق طلعت ، سلامة ناشد ، حشمت عزيز ناجي عزيز ، عباس احمد مرسي ، وديدة مرو عزب ، عبد الوهاب الباسطي سيد بغدادي ، سعد ابو اليسر ، فهمي ناشد ، محمد السيد نوفل ، عبد الوهاب الجزار ، غبريل اسحاق ، فوزي حمزة ، مصطفى كامل منيب ، فؤاد دهمان ، فائز صقر ، منير جبران ميخائيل ، بشرى رزق فتيان (الجمهورية العربية المتحدة) .

الاساتذة : صفية صفوت ، بدر الدين المدثر ، جوزف فرج جودة (السودان) .

الاساتذة : محمد اياد ، منتصر دابح ، بناي عبدالقادر ، اسعاد محمد حسن (الجزائر) .

التعليم الجامعي والبحث العلمي في لبنان

كانت اللجنة التنفيذية للجمعية اللبنانية لتقدم العلوم قد قابلت رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ شارل حلو في ٢٠ آب ١٩٦٨ ، وبناء على طلبه في ان تقدم اللجنة مذكرة تمهيدية حول المواضيع التي ورد ذكرها في مخطط عمل الجمعية ومن بينها التعليم الجامعي والبحث العلمي في لبنان ، قامت اللجنة التنفيذية بوضع مذكرتين تبينان ما تعانيه من مشاكل رئيسية في هذين الحقلين والحلول الممكنة .

وارفقت المذكرتان برسالة لرئيس الجمهورية جاء فيها : « لقد تخلف لبنان طويلا عن وضع هذه الدراسات ويتوجب عليه ان يسارع الى القيام بها واكمالها في اقرب وقت ممكن وبذلك نصبح قادرين للتطلع نحو المستقبل عوضا عن العيش في الماضي .

ان الحلول التي اوردناها ممكنة ومعقولة واعتمادها يخفف من القلق الذي يسود اوساط المثقفين لا بل يسهل تلافي حركات الشغب الآخذة بالازدياد في مختلف البلدان التي لم تتمكن بعد من فهم حاجات شبيبتها . ان

التقاعس عن تحقيق الشيء المعقول والممكن بسبب جهل معطيات المشكلة ومسبباتها ، كثيرا ما يؤدي الى اليأس ويدفع بالناشئين نحو الثورة .

ان التفكير في عصر النفقات في الظروف الراهنة امر طبيعي ولكنه يتم دون تمييز بين الممكن والمعقول وما هو ممكن وغير معقول . فاقتطاع مليوني ليرة من موازنة الجامعة اللبنانية ومليوني ليرة من موازنة مصلحة الابحاث العلمية الزراعية وبضعة ملايين من موازنة وزارة التربية هو بالشيء الممكن لكنه غير سليم وغير معقول كما انه لا يشكل الحل الافضل للتوفير على الخزينة .

فاذا صح تطبيق مبدأ التوفير باختصار النفقات على المشاريع القليلة الانتاج فلا يصح اطلاقا تطبيقه على التعليم والبحث العلمي ، اذ ان المقاييس العالمية تشير الى ان توظيف الاموال في هذين الحقلين هو اجدى الطرق لتثمير الاموال العامة . والحل المعقول ، ولكنه غير وارد لدى المسؤولين هو زيادة في موازنة التعليم والجامعة والبحث العلمي لنؤمن بفضل ذلك ارتفاعا نسبيا في الدخل القومي من شأنه ان يسد في المستقبل عجز الموازنة.

ان شعورنا بخطورة الاوضاع القائمة وبتجهم الغد المطل علينا يجعلنا اكثر ايمانا بواجبنا واكثر تعلقا بمطالبنا ويدعونا الى موضوعية التفكير وصراحة التعبير والى العمل بكل ما لدينا من امكانيات لتفادي المشاكل والصعوبات التي سنصل حتما اليها اذا لم نقم بوضع الحلول الناجعة في الوقت اللازم .

فنحن اذ نرجو بالحاح من فخامتكم اعطاء التوجيهات للاسراع في القيام بالدراسات الموضوعية الكاملة واعتماد الحلول المناسبة نود ان نؤكد لكم باننا دائما على اتم استعداد لوضع امكاناتنا ومؤهلاتنا في خدمة الوطن والمشاركة في كل نشاط بناء . »

وفيما يلي نص المذكرتين :

١ ـ مذكرة تمهيدية حول التعليم الجامعي في لبنان

الوضع الحالي

ان التعليم الجامعي في لبنان لا يتلاءم في حالته الحاضرة مع متطلبات المجتمع ، يشوبه الكثير من العلل ، واهمها ما يلي :

ا ـ تخلف الوعي الجماعي على الصعيد العام والخاص لمفهوم الجامعة ورسالتها القومية والدور المنوط بها في تطوير الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية .

ب ـ نظام التعليم ومحتواه ، ونوعيته ، واساليبه البالية والمنقولة لا تتلاءم بجملتها مع اوضاعنا الحالية . حتى الآن لم تجر اية دراسة لانظمة التعليم وطرقه وبرامجه ، مستقاة من خبرتنا ومن حاجاتنا المحلية .

ج ـ ضعف التعليم في مراحله قبل الجامعية وعدم ملاءمته لحاجات البلد

على مختلف المستويـات .

د ـ انعدام التخطيط للتعليم في مختلف مراحله بما فيه التعليم العالي .

هـ ـ عدم وجود خطة متواصلة للربط ما بين التعليم الجامعي ومتطلبات الخدمات العامة ، بالاضافة لمشاكل العمل والبطالة . ان سياسـة التوظيف لا تلتزم ، لاعتبارات شتى ، بالكفاءات ولا ترتكز على التعليم وبنوع خاص التعليم الجامعي . مثالا على ذلك متخرجون عديـدون يعملون خارج نطاق اختصاصهم في القطاعين العام والخاص . فالهوة بين قطاع التحضير الجامعي وسوق العمل وحاجات المجتمع اللبناني آخذة بالاتساع .

و ـ عوائق تنظيمية وادارية خاصة بالجامعة اللبنانية .

ز ـ ضعف الامكانات المادية في المؤسسات الجامعية ينتج عنه نقص فاضـح في الاجهزة وضعف نوعي وكمي في الطاقة البشرية .

ح ـ ضآلة مرتبات الاساتذة الجامعية تمنعهم من التفرغ للتعليم والبحث . فغلاء المعيشة ومتطلباتها الملحة تقلق تفكيرهم ، وانعدام التقديـر والتشجيع المعنوي لا يسهل عليهم مواصلة التضحية وبذل اقصى ما يمكنهم من نشاط . وهناك تفاوت عظيم في المرتبات التي يتقاضاها الأساتذة في مختلف الجامعات العاملة في لبنان .

التعليم الجامعي والبحث العلمي

ان التعليم الجامعي والبحث العلمي مرتبطان ارتباطا وثيقا متكاملا ، ولا يمكن ان يكون هنالك تعليم جامعي صحيح دون ان يرافقه بحث علمي اصيـل .

ان انظمة التعليم وبرامجه وطرقه المتحجرة وعدم توفر المختبـرات الكافية ومنها المراجع العلمية ، وعدم تشجيع الانتاج الفردي ، تجعـل التعليم الجامعي في لبنان غير مهيأ لممارسة البحث العلمي المركز بطبيعتـه على دراسة المواضيع الملحة المتطورة بشكل دائم .

عدم تشجيع العلماء اللبنانيين (وكلهم تدربوا في الخارج) على البقاء في لبنان ، يحرم الجامعة من الاطر الضرورية لانماء البحث ومتابعته .

الجامعة اللبنانية

ان الجامعة اللبنانية لا تستطيع القيام بتأدية رسالتها ما دامـت امكاناتها المادية والبشرية دون الحد الادنى بكثير .

لا تصبح الجامعة جديرة بهذا الاسم ان لم تكن مركزا حيا للبحـث العلمي وهو العنصر الاساسي في تطوير نوعية التعليم وفي تقدم البلـــد اقتصاديـا واجتماعيـا .

كان من الممكن اعطاء حل لمعظم المشاكل التي نعاني منها الآن لو كانت الجامعة اللبنانية مؤهلة لتأدية دورها .

الحلول

فيما يلي بعض الخطوط الرئيسية للحلول :

ا ــ دراسة الاوضاع وتحسينها وتطويرها ضرورة حيوية لا تعجز عنها امكانات لبنان الحالية .

ب ــ اعتبار الجامعة جسما عضويا يتألف من الهيئة الطلابية والهيئة التعليمية وادارة تنفيذية تتفاعل تفاعلا سليما ، وليس كمجموعة مؤسسات متلاصقة جامدة غير قابلة للحياة وادارة روتينية تمنع هذا الجسم العضوي من النمو والتطور نحو الافضل .

ج ــ اعتبار الجامعة اللبنانية عماد التعليم العالي والبحث في لبنان بحيث تكون دماغ المجتمع المفكر الحر والمغذي البشري لمؤسساته والجهاز الكفؤ لتشخيص العلل التي يشكو منها الوطن ، والادارة الفعالة في تطوير المجتمع .

د ــ اعطاء الاولوية للجامعة اللبنانية (فروعها العلمية خاصة) في موازنة الدولة وتأمين الحد الادنى من متطلبات المؤسسات التعليمية على ان يصار فيما بعد الى التدرج من الادنى نحو اعلى حد ممكن .

هـ ــ اعتماد الاختصاص والكفاءات والقيمة الفردية والانسانية اساسا للتوظيف في القطاع العام ، على الاخص في قطاع التعليم على اختلاف مراحله .

و ــ المباشرة بوضع دراسات ومخططات لحاجات البلد وللتعليم بشكل عام والتعليم الجامعي بشكل خاص والعمل على تنفيذ هذه المخططات وتقييم نتائجها وتصحيحها بصورة مستمرة .

خلاصة

ان الجهد المالي (وغير المالي) المطلوب من الدولة هو في متناولها . « فالعنصر البشري الكفؤ متوفر ومستعد للعمل في خدمة الدولة شرط ان نؤمن له الجو المناسب للانتاج والحد الادنى من الدخل المادي ليعيش بكرامة ويتفرغ بكليته للبحث والتعليم ونحن لعلى ثقة من ان عددا كبيرا من العلماء اللبنانيين يرضون الالتحاق كاساتذة في الجامعة اللبنانية برواتب اقل بكثير مما يمكنهم الحصول عليه في الخارج .

٢ ـ مذكرة حول البحث العلمي في لبنان

البحث العلمي على نطاق قومي غير موجود في لبنان بالرغم من توفر العنصر البشري ، والبحث العلمي الذي يقوم به نفر قليل من الباحثين في لبنان رغم اصالته لا يتقدم بالشكل الذي يرضي القائمين بـه .

العوائق هي :

ا ــ لم تقتنع الدولة حتى الآن بان انفاق المال على البحث العلمي دون

الفصل بين النظري والتطبيقي منه ، انفاق ضروري للتنمية وتثمير مضمون في الامد البعيد .

ب ــ عدم تفهم المسؤولين والمجتمع لاهمية البحث العلمي مما يجعل العالم اعزل من كل تقدير وتشجيع .

ج ــ عدم وجود نظام للباحثين Statut du chercheur يميزهم عن الموظفين العاديين .

د ــ الاسس الادارية المتبعة حاليا في الدوائر العامة ، لا تتلاءم مع الاحتياجات العلمية وهي تعرقل تنفيذ برامج البحث وتقدمها . مثلا شراء المعدات والتجهيزات العلمية والمستحضرات لا يمكن ان يتم بالطرق المتبعة حاليا . كما ان تأخير وايقاف اختبار علمي في مرحلة تنفيذه لاسباب ادارية غير جائز لما ينتج من خسارة وضياع في الوقت .

هـ ــ التعليم الابتدائي ، الثانوي والجامعي لا يهيىء للبحث العلمي بشكل عام كما هو وارد في المذكرة حول التعليم الجامعي .

امكانات البحث الحالية

ان امكانات البحث تكاد تكون منعدمة في الجامعة اللبنانية وفي جامعة القديس يوسف وهي متوفرة نوعا في الجامعة الاميركية ، نظرا للتمويل والمساعدات الواردة من الخارج ، ومتوفرة بشكل غير كاف في مصلحة الابحاث العلمية الزراعية . لقد خسرت هذه المصلحة عددا من باحثينا البارزين حاملي الدكتوراه (خمسة خلال عامين) لاسباب مادية وروتينية ادارية .

باستثناء مصلحة الابحاث العلمية الزراعية التي تساهم ايضا في تمويلها مؤسسات عالية ، لم تمول الدولة اللبنانية حتى الآن اى بحث علمي . اما الابحاث العلمية الجارية حاليا في لبنان فهي تعيش وتستمر بفضل المساعدات الاجنبية فقط .

الامكانات البشرية متوفرة في جميع الجامعات في لبنان ولكنها تفتقر الى المال والتجهيزات والتفرغ للعمل .

المجلس الوطني للبحوث العلمية

انشأت الدولة منذ ٦ سنوات مجلسا وطنيا للبحوث العلمية اناطت به مهمة وضع سياسة علمية وتمويل وانماء البحث العلمي في لبنان ، على ان هذا المجلس لم يتمكن حتى الآن من تأدية دوره وتمويل اي مشروع علمي ، بالرغم من الطلبات العديدة التي قدمت له . لقد اقتصر نشاطه على ايفاد الطلاب الى الخارج للحصول على دكتوراه دون ان يؤمن لهم امكانية البحث لدى عودتهم وهم آخذون بالهجرة ، كما لو ان الدولة تسعى الى تهجير ابنائها . ان هذا المفهوم بدأ يعم اوساطا عديدة ، طلابية وغير طلابية .

ان الشعور السائد عند الاكثرية الساحقة من الباحثين اللبنانيين (من مقيمين ومغتربين) هو فقدان الثقة في هذا المجلس والقائمين عليه ،

شعور تشوبه المرارة ويرافقه تساؤل : « هل وعى حقا القائمون على المجلس مشاكل البحث ومتطلباته في لبنان ؟ » .

ان التردد والتباطؤ في التنظيم ووضع الخطة واتخاذ القرارات وتنفيذها وصرف الاموال المتوفرة ، وان كانت غير كافية ، لا يتلاءم مع طبيعة البحث العلمي وتطور العصر السائر في ركب التقدم العلمي السريع .

الحلول

ا ــ تبني المفهوم الحديث الذي يرى في البحث العلمي عنصرا اساسيا لكل تقدم اجتماعي واقتصادي وضمانة اكيدة لسلامة البلاد .

ب ــ اعطاء الاولوية للجامعة اللبنانية كمركز للبحث العلمي وتجهيزها بالاجهزة الاساسية الضرورية بما فيه الطاقة البشرية وتأمين الموازنة الكافية لها .

ج ــ تقوية مصلحة الابحاث العلمية الزراعية واعطاؤها الاستقلال المالي والاداري وتأمين ما تحتاجه من اعتمادات مالية تمكنها من تنفيذ مخططاتها على الوجه الاتم الاكمل .

د ــ مساعدة الباحثين في لبنان ، حيثما وجدوا لخلق جو ملائم للبحث وجعل الطاقات البشرية في حالة تأهب دائم لبذل امكاناتها في سبيل تقدم لبنان وسلامته .

هـ ــ تأمين اجهزة ادارية وفنية قادرة على تعزيز البحث العلمي وتغذيته وانمائه .

و ــ اعتماد الاختصاص والكفاءة والقيمة الفردية والانسانية والاساس العلمي في انماء مقدرات لبنان والحد من الاستعانة بالخبراء الاجانب .

ز ــ الاسراع في صرف الاموال المتوفرة حاليا ، والتي ستتوفر ، على البحث العلمي ، لاعادة الامل للباحثين اللبنانيين في مستقبل البحث في لبنان والحد من هجرتهم .

ح ــ تخصيص واحد بالمائة من الدخل القومي ، وليس من الموازنة ، كحد ادنى للبحث العلمي (هذا ما اجمعت عليه الدولة المتقدمة) اي ما يوازي حاليا ٣٥ مليون ليرة لبنانية .

الخلاصة

ان في لبنان وخارجه عددا لا يستهان به من الباحثين اللبنانيين المتدربين الذين لم يساهم لبنان الا بقسط قليل في تحضيرهم وتدريبهم وهؤلاء يمثلون ثروة هائلة تقدر كلفة تحضيرها بما يزيد على مئة مليون ليرة لبنانية لا يستثمرها لبنان ولا يستفيد منها بشيء .

ان هؤلاء الباحثين يرغبون من صميم قلوبهم العمل في خدمة وطنهم بشرط ان يؤمن لهم وسائل العمل الضرورية والمناخ الملائم للعمل والانتاج .